

عبدالفتاح عبدالعزيز

رواية

# أربوس

ARBOS

صراع الممالك



تشكيل للنشر والتوزيع

## عما سبق من أحداث آربوس

إنها جزيرة آربوس، أرض الوافدين والمعمرين، أرض الحوريات وذكرانهم، أرض روح آربوس، جاءها يوسف رفقة إسراء تعاطفًا مع أم إسماعيل، من ابتلع البحر فلذة كبدها، وكان روح إسماعيل كانت قريبًا لمجيء ثلاثتهم ليروا أن القدر ألجأهم إلى أرض مطويّة ظنها الخلق أسطورة قديمة، فيما صارت لهم عيانًا. وجدوها منقسمة إلى مملكتين متنازعتين، آربوس الشمالية وجارتها الجنوبية، بينما اتفقت الجارتان على ألا يتفقا، سوى في أمرٍ واحد، وهو استعباد الوافدين من قبل المعمرين بكلتا المملكتين. أولئك الوافدون الذين يقذفهم البحر كل ليلة، عرايا، فاقدين لذاكرة الهوية، ليعيشوا لسبعة أعوام في كبدٍ وشقاء، ثم يولوا وينتهي أجلهم، مع قاعدة غريبة لامتداد الأعمار بالقتل فيما بينهم، حيث يأخذ الوافد القاتل بقية السنوات السبع التي كان يملكها الوافد الذي قام بقتله، دون ذنبٍ اقترفوه ليعيشوا هذه الحياة، إلا أنهم كانوا غرقى في العالم الحقيقي خارج تلك الجزيرة الآثمة، ومن ثمّ صاروا مطمئًا للحوريات اللائي جلبنهم.

بدت تفاصيل ثلاثتهم واحدة من حيث القدوم، لم يكونوا غرقى، ولم يفقدوا ذاكرة الهوية، إنما كانوا صيدًا لإحدى

الهورييات التي جلبتهم وفقًا لصفحة خاسرة دارت فيها منارة شاطئ الفنار، كما تم استقبالهم جميعًا في زنازين استقبال الوافدين بساحة آربوس الشمالية، لكن اختلفت مصائرهم فيما بعد.

رحلت أم إسماعيل عن الدنيا راضية، لقناعتها أنها لم تدخر عمرًا ولا جهدًا من أجل لقاء ابنها الذي لم تلقه إلا في خيالاتها. أما إسراء فبعدها كانت تعمل على إعداد الأفلام الوثائقية بعالم حقيقي، تنتقل بين أرجائه بثقة وحرية، صارت واحدة من معمرين آربوس الشمالية، بل صارت ملكتهم، ذاك عقب ما أفقدوها ذاكرتها لتصبح مارينا زوجة ملكهم الكهل زايد، إثر اقتناعه هو وحاشيته بأنها من سلالة المعمرين النقية مثل زهير الأول.

أما يوسف، بخيال الكاتب، وبروحه جلادة ذاته، وبذكرى حبه الأول لرفيقتة من عالمه الحقيقي إسراء، من كان سببًا في جلبها لهذه البقعة، مصحوبًا بنبوءة الوافد المخلص التي أنبتت بداخله تعاطفًا مع حال أولئك الوافدين، انطلق هاربًا من قيود حكام آربوس الشمالية نحو سلسلة الجبال الغربية بصحبة فارس، أول من صادق بتلك الأرض، طامعًا في أن تعينه قبائل الوافدين الهمجية اللائي تقطن هناك، لكنه فشل في هروبه الأول، ونكل حكام آربوس بكل من ساعدوه في



فراره، عدا فارس الذي اكتمل هربه، من ثمّ حاول يوسف مرة أخرى لكن بالحيلة والخداع بعدما أقنع حكام آربوس أنه لان لهم وسيصنع لهم البارود الذي يعرف صنعته، ليبعثوا جنودهم برفقته وكأنهم يؤمنوا له طريق فراره، فينجح في الوصول لتلك القبائل بسلسلة الجبال بعدما أنقذت ميراثه حياته وانتشلته من مطاردة أسريه، لتأخذه إلى راعي قبيلتها الذي أخذ يكشف له حقائق آربوس واحدة تلو الأخرى.

عرف أن أصل حياة البشر في جزيرة آربوس هم أولئك الوافدون الذين يلقيهم البحر كل يوم، وأنه قبل قدوم الوافدين إليها لم يكن هناك من يدعى معمرين، بل لم يكن بها حياة للبشر، وإن كان الوافد من البحر لا يعيش إلا لسبعة أعوام ثم يفقد روحه، فإنه لو تزوج وأنجب يكون أبناؤه بأعمار حقيقية، وليس كما يدعون بالمملكتين بأن أبناء الوافدين لا يعيشون إلا لسبعة أعوام مثل آبائهم. أدرك أن المعمرين ما هم إلا أبناء الوافدين الأوائل، لكن مع تواتر أجيال المعمرين الذين ولدوا بأرض آربوس، صار وافدو البحر الجدد في الأجيال اللاحقة مجرد قلة منبوذين ومستعبدين، وأنكر المعمرون نسبهم وصلتهم بالوافدين الأوائل؛ مدّعين أنهم خلق مختلف عن الوافدين، ويمتد نسبهم إلى من ادّعوا أنهم المعمرون الأوائل، وذلك على إثر تغير الحقائق وتزوير التاريخ القديم للجزيرة بتعاقب

## الأجيال ومرور الأزمان.

بل الأتكي أنه أدرك أن قبائل وافدي الجبال ليسوا وافدين من البحر هاربين من حكم المملكتين كما يشاع، إنما هم أبناء وافدون من أجيالٍ لاحقة، على الأجيال الأولى، هربوا من سطوة المملكتين وقواعدهم التي نصت على عدم تزاوج الوافدين وعلى عدم اندماجهم في المجتمع بعدما صارت أكثرية أهل آربوس من المعمرين، بل ونصت على ألا يُعد معمرًا إلا من يملك صك معمر من أبوين معمرين حتى وإن كان مولودًا لأبوين وافدين بأرض الجزيرة، ومن ثمَّ تُطبق عليه قاعدة السنوات السبع ويُقتل إن تجاوز تلك المدة.

ليحيا أولئك الهاربون بالجبال ويكونوا أجيالًا متلاحقة ممن ولدوا بأرض الجزيرة دون صكوك معمرين، أجيالًا ذات أعمار طبيعية، لكنها دون سند للحياة، يعيشون مضطهدين معرضين لهجمات آربوس الشمالية والجنوبية، حيث لم تكتفِ الجارتان بأسر وافدي البحر الذي يلقيهم كل يوم، بل يستزيدون من وافدي الجبال الذين في حكمهم مجرد وافدين مثل من يأتوا من البحر، ليتخذوهم عبيدًا بالمملكتين.

زاد تعاطف يوسف معهم بعد اكتمال علمه بحالهم، لا سيَّما قصة ميرا وأهلها، التي واصلت معه طريق هروبه من جند

آربوس الشمالية حتى فقدوا أثره وانشغلوا عنه بحربٍ جديدة نشبت بين المملكتين، ليبدأ عندها في محاولة تجميع وافدي الجبال من حوله، وتصنيع البارود، مقاومًا خنوع رعاة القبائل، متمسكًا بأمله في معاودة لقاء إسراء، فيما تدفعه رغبته في الانتصار لأولئك المستضعفين الذين تقووا به ووجدوا فيه شيئًا من الأمل لتغيير حياتهم، إلى أن استطاع أن يشيد قرية قوية ذات أسوار أعلى سلسلة الجبال الغربية، صمد في الدفاع عنها بواسطة باروده وباعتماده على المخلصين من حوله أمثال ميرا وفارس وأكمل ويزن، ففشلت محاولات آربوس الشمالية في غزوها مرة تلو الأخرى، في حين عاهد آربوس الجنوبية وطلب أمانها، ولما استقر الحال به فوق الجبال، أخذ يزيد من بأسه بأن وسّع من قريته حتى صارت مملكة فوق الجبال سماها مملكة الوافدين، بينما شيد قلعته الأولى (سرابوس) على ضفة نهر جودي عند سفح الجبال، قبل أن يستزيد ويغزو غولار أقرب إمارات آربوس الشمالية إليه.

لكن بينما كان يتمدد بقوة وثبات، إذ بالأحوال تتبدل داخل مملكة آربوس الشمالية، حيث رحل الملك زايد ليخلفه ابنه من مارينا الملك جاد بن زايد، وصارت مارينا هي الوصية على عرش ابنها. حينها ظن يوسف أن الأقدار طاوعته للمرة الأولى، معتقدًا أنه قد يصل إلى اتفاقٍ معها يُحسن

من أوضاع الوافدين بأرض آربوس كلها دون قتالٍ أو إهدار دماء، من بعدها قد يجد سبيلاً إلى وصالها، إلا أنه بدلاً عن ذلك تعرض لمكيدة دبرتها حاشية مارينا ووقع بأسرهم، بل وقاموا عندها باسترداد غولار، ثم أسقطوا قلعة سرايوس وحاصروا مملكته التي بناها فوق الجبال بقواتٍ من المملكتين (آربوس الشمالية والجنوبية) اللتين اتفقتا عليه.

لكن ما خفف من وطأة ما لاقاه هو يقينه وقتها بأن مملكته فوق الجبال ستقاوم وتتنصر حتى وإن أعدموه بساحة آربوس الشمالية، كما وجد شيئاً من السلوى لقلبه حين زارته مارينا بمحبسه وأقسمت له أنها أجبرت على ما دبروه حفاظاً على ملك ابنها وروحه، وأنها لا تملك حكم المملكة بصورة حقيقية بل مجرد واجهة، وبالأخير أخبرته أنها وإن كانت لا تتذكره فإنها تعرف أنها أحبته يوماً ما...

إلا أن المخلصين له مثل فارس وميرا وبعض جنودهما لم يتركوه يواجه مصيره بساحة آربوس الشمالية وحده، بل هبوا لنجدته وحولوا الساحة إلى مضمار حربٍ خاطفة بيوم إعدامه؛ حرروه وهربوا به نحو مملكتهم المحاصرة كي ينقذوها، لكن طريقهم لم يكن هيئاً، بل ضحوا بأرواحهم من أجل إنقاذه، فقتل فارس مدافعاً عنه عند سفح سلسلة الجبال الغربية، ليفلت يوسف برفقة ميرا وحدهما ويتجها إلى أنفاق

الجبال محاولين بلوغ مملكتها المحاصرة بأعلى القمم، متأملين أن يصلوا إلى مدخل نفق تحت مملكتها صنعته ميرا قديمًا قبل الحصار، لكن اتضح لهما أن الغزاة من المملكتين أحكموا الحصار على أسوار مملكتها وأنفاقها، لذا حاولا جاهدين الإفلات من متعقبيهما، بينما أخذ ينبت حب ميرا بقلب يوسف، وأخذت صورة إسراء في الذبول شيئًا فشيئًا، إلى أن أصيبت ميرا بجروحٍ بليغة، وشرع الموت في حصار روحها، وحالما أخذت السبل تضيق بيوسف لدى كهفٍ بساحل البحر يجاهد فيه لمدأوة ميرا، وجد نقشًا على جدران كهفه استدل منه على موقع بقعة الحوريات، فذهب نحوه نحوهن بلا ترددٍ أملًا أن يجد لديهن ترياقًا ينقذ ميرا وعودًا ينتصر به على عدوه، ليلتقيهن ويخبرنه بتفاصيل جديدة عن الجزيرة وأهلها، عن زهير الأول وعن الحوريات أيضًا.

عرف أن الحوريات يجلبن الغرقى الوافدين لأجل أن يأخذن في المقابل ما يدعى لآئى الميلاد من روح آربوس، ذلك كي يتناسلن، لأن تلك اللآئى ما هي سوى لقاءات من ذكورهن الموجودين بنهر جودي، لا تمر إليهن إلا في مقابل الإتيان بالغرقى، ثم يلتقمنها ليبدأن حملهن. أخبرنه أن كل لؤلؤة جنين برحم حورية تتعلق بروح الغريق الذي أحضرته الحورية في مقابل منحها اللؤلؤة، تظل اللؤلؤة تنمو على مدار سبعة أعوام داخل رحم الحورية، ويتكون حولها



الأهداب، إلى أن ينتهي عمر الغريق الوافد بأرض آربوس بعد سنته السابعة بصورة طبيعية، عندها تدب الروح باللؤلؤة التي تحملها الحورية، ثم يبدأ تشكل الجنين على مدار عامين آخرين داخل الرحم قبل أن يولد، أما إذا قام وافد بقتل وافدٍ آخر قبل أن يتم المقتول سنواته السبع، فإن ذلك يؤدي إلى عدم اكتمال نمو لؤلؤة الجنين التي تتعلق بالوافد المقتول، وتلفظ الحورية التي أحضرته لؤلؤتها لتلتقمها الحورية التي جلبت القاتل، فيزيد بذلك عمر القاتل وفقًا لقواعد اللؤلؤة الأقدم والأحدث، ويزيد أمد حمل الحورية التي أحضرت القاتل، مما يحدث خللاً وارتباكاً في التناسل لدى الحوريات باستمرار التقاتل على الأعمار بين الوافدين.

فطن يوسف إلى أن قاعدة استيلاء الوافدين على أعمار بعضهم بالقتل تتعلق بحركة لآئى الميلاد بين أرحام الحوريات، وأن أي تقاتل بين الوافدين على الأعمار يحدث ذلك الاضطراب في التناسل لديهن، وهو ما دفعهن قديمًا للتحالف مع من يدعى زهير الأول مؤسس المجتمع الأول بآربوس، هذا لأن الوافدين الأوائل بزمن زهير الأول كانوا يتقاتلون لأجل الاستيلاء على أعمار بعضهم مما كان يحدث ذلك الخلل في تناسلهم، لذا ساعدن زهير الأول على منع التقاتل بين الوافدين بأول أيام الحياة بآربوس كي يستقر التناسل لديهن في البحر، وكي يصبح زهير ملكًا على سائر

بر آربوس، وتتكون القرى والنظام الاجتماعي، ويزيد النسل المولود بآربوس، مع منع قتل الوافدين لبعضهم البعض، واندماج الوافدين الجدد في أهل الجزيرة كلما وفدوا، وظلن من بعدها على عهده مع ورثته واحدًا تلو الآخر، إلى أن حدث ما يُدعى خيانة الحوريات، وما أعقب ذلك من انقسام بين المملكتين، وانحدار معاملة الوافدين بالتدريج مع مر السنين، إلى أن صاروا مستعبدين يُستخدمون في الحروب بين المملكتين، كذلك استخدامهم كأداة لهو في منازلات يوم آربوس بكتا المملكتين، مما أعاد الاضطراب في التناسل عند الحوريات...

بالأخير عرف أنه اكتملت فيه أمارات وشروط تؤهله لعقد عهد مع الحوريات مثل زهير، وفقًا له يساعده في الرجوع لمملكته والانتصار لها بواسطة ثلاث آلاف من الحوريات المترجلات (الزورجولات)، كما وعدنه بإعادته إلى عالمه الحقيقي لو أتم مهمته والتزامه معهن، بأن ينفذ لهن مطلبهن المقابل الذي أجلن الإفصاح عنه حتى يملك على الأقل نصف بر آربوس، وهو بثقه في العهد. ما أرقه حينها أنهن ألزمنه الزواج بإحدى أميراتهن «أفرودينا» التي ستشاركه في العودة والحكم، ولن يحق له الزواج بغيرها طالما بقيت معه، بيد أنه بالأخير وافق مرغمًا على أمل أن ينهي مطلبهن ثم يعدن إلى البحر من حيث أتين...

بتلك الأثناء كان يزن يجاهد صامدًا داخل مملكة الوافدين المحاصرة كي لا تستسلم لعدوها المحاصر، مقاومًا نزعات الانشقاق والفرقة والانهازامية، متأملًا أن يعود سيده يوسف إلى المملكة فينجدها، إلا أن كفة المنهزمين بالأخير تغلبت؛ حبسوا يزن داخل مقر إقامته، واتفقوا على تسليم المملكة لقوات أربوس الشمالية والجنوبية، إلا أن يوسف ظهر في أشد اللحظات حلقة قبل تسليم المملكة بساعات وبصحبته ثلاث آلاف من (الزورجولات)، فاستطاع أن يصد هجومًا خاطفًا من قوات أربوس الشمالية، لكنه عرف بعد حين أنهم قد أسروا ميرا من كهفها الذي تركها فيه قبل ذهابه نحو الحوريات، ذلك نتيجة خيانة من تركه بصحبته «ماجد»، الذي خانته مرة أخرى بإرشاد قوات أربوس الشمالية إلى نفق ميرا عن طريق التلاعب بها بعدما استردت وعيها وشيئًا من قوتها بمعسكرهم، مما أدى إلى تلك الهجمة الخاطفة التي لولا تداركها يوسف لسقطت مملكة الوافدين.

لكن يوسف أجل حساب ماجد إلى حين، وبدأ بإعداد العدة لمهاجمة قوات أربوس الشمالية التي ظلت تحاصره، كي يدحرهم ويسترد ميرا، من ثمّ جهاز عتاده وسلاحه، نظم جيوشه، ووجد كلمتهم قبل أن يخرج لملاقاتهم بأحد وديان سلسلة الجبال، وبحيلة عسكرية قديمة استطاع أن

يبيد أكثرية قواتهم لينسحبوا مندحرين نحو مملكتهم، إلا أنه لم يستطع تحرير ميرا التي عرف أنهم أرسلوها أسيرة إلى مملكة آربوس الشمالية برفقة الجرحى الذين سقطوا منهم أثناء صده لهجومهم الأول، ومن بينهم الأمير مالك بن حاكم رانتاز أكبر إمارات آربوس الشمالية، ليبدأ يوسف في الاستعداد لغزو قلب مملكة آربوس الشمالية، ذلك ليتمم عمله بهذه الأرض نصرَةً للوافدين وانتقامًا لأكمل وفارس وسائر من ضحوا لأجل حياة عادلة، كذلك لاسترداد ميرا وإسراء، وكي يلبي للخوريات مطلبهن بالاستيلاء على نصف بر آربوس، لا سيَّما أنه بعدما دحر قوات آربوس الشمالية سارع ملك آربوس الجنوبية إلى طلب العودة إلى عهدهم القديم بعدم الاعتداء، وانسحب بقواته نحو مملكته طالبًا الأمان من يوسف، الذي وافقه عليه بعدما فرض عليه جزية، لتبقى آربوس الشمالية هي المقصد وحدها.

هناك بالمملكة الشمالية الأم كانت مارينا تحاول الاستئثار بالحكم بعيدًا عن سطوة ضررتها زينة البحر ووزير المملكة الكهل حكيم بن زيادة، وقائد الجند حارث المعتاض، ذاك من بعد هروب يوسف من ساحة إعدامه وقتما كانت قوات مملكتها لا زالت تحاصر مملكة الوافدين، وينشغل قائد الجند بالحرب، لأجل هذا حاولت استمالة الأمير مالك إليها، الذي عرفت أنه واقعًا في هواها عبر وصيفتها زهرة، لذا بدأت في

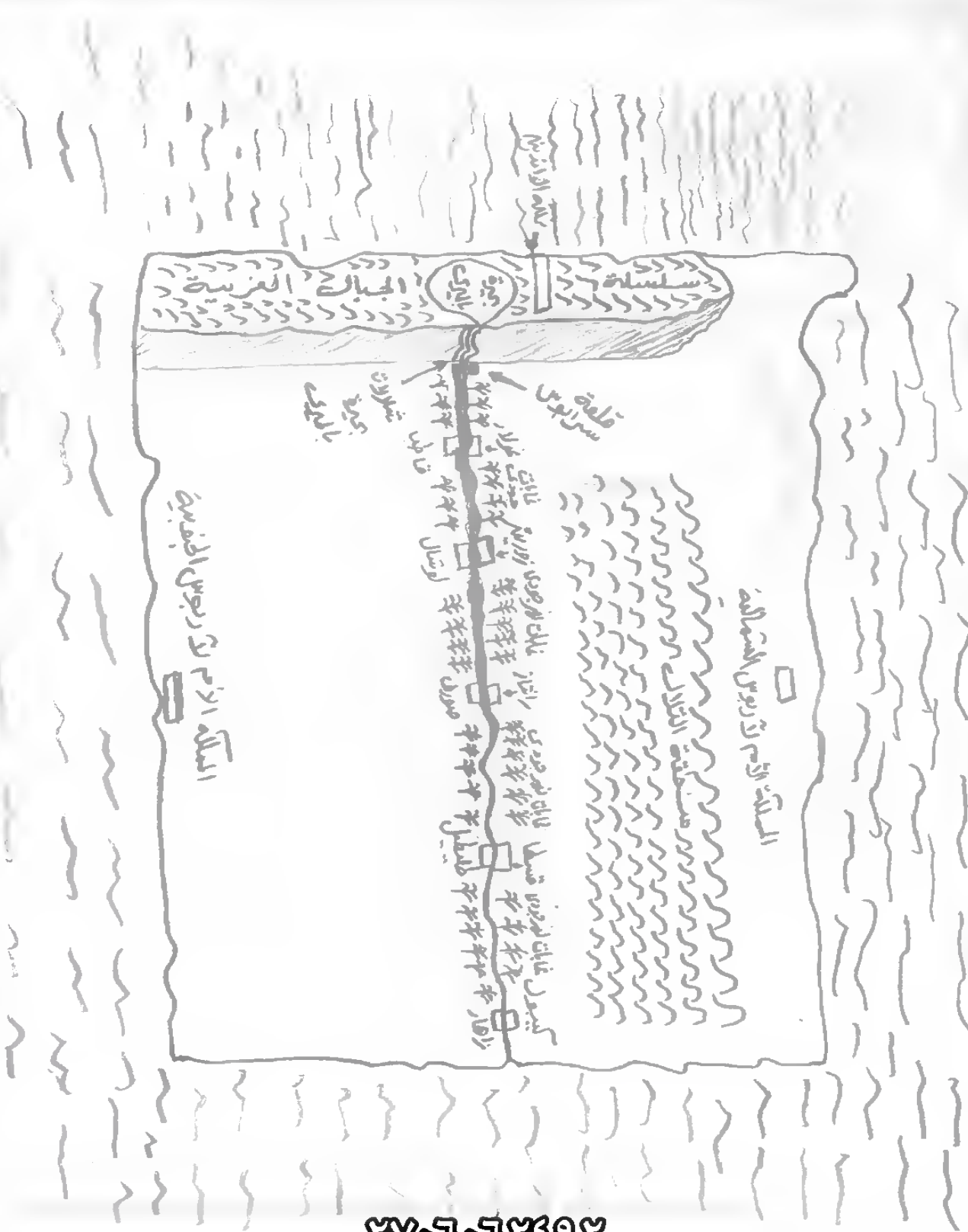
مراسلته من وقتها، بينما كان ملتحقًا بالقوات المحاصرة. كانت تعلم في قرارة نفسها أنها تحب يوسف حتى وإن كانت لا تتذكر ماضيها قبل هذه الجزيرة، بل لم تكن تتقبل هوى مالك لها، لكنها كانت تحاول الارتكان إلى ركنٍ شديد، وهو ابن حاكم رانتاز أكبر إمارات آربوس الشمالية.

بتلك الأثناء قطعت مارينا شوّطًا كبيرًا في بسط نفوذها على مقاليد الحكم بمملكة آربوس الشمالية، وزادت سطوتها بعدما جاءها الأمير مالك للتداوي بالمملكة الأم، حيث قامت بعزل الوزير الكهل حكيم بن زيادة، وعينت الأمير مالك وزيرًا للمملكة بدلًا عنه، ثم استمالت قادة حرس المملكة الأم، ليبقى قائد الجند حارث المعتاض كعقبة أخيرة، لكنها انتوت أن تنظر في أمره بعد رجوعه من الحصار، إما أن يُذعن هو الآخر أو يُعزل مثل الوزير الكهل.

إلى أن فاجأها عودة قواتهم مدحورة أمام قوات يوسف، فحاولت التماسك آملة في التشبث بقوتها حفاظًا على حياة ابنها وملكه، كذلك كي تحاول إتمام اتفاق حقيقي مع يوسف بعدما تستأثر بمقاليد الحكم بشكلٍ كامل، منتوية أن تبعث له ميرا التي أودعوها بسجن قصرها، كبادرة على نيتها في الصلح، لذا ما إن اكتمل انسحاب قواتهم وعاد الجند نحو المملكة دعت قادة قواتها إلى اجتماعٍ لديها، حضره



الوزير مالك، قائد الجند حارث المعتاض، قائد دار السلاح، قائد الساحة، قائد البوابة الشمالية، وقائد البوابة الجنوبية، وبدأت في إملائهم تدبيرها الذي كانت قد اتفقت عليه مع مالك. أخبرتهم أنها ستبعث ميرا إلى يوسف وتطلب سلمًا معه، لا سيِّما وأن قواتهم منهكة ولا تقدر على خوض حربٍ جديدة. لم يعارضها في ذلك سوى قائد الجند حارث الذي ظل وقتها يُمثل العقبة الأخيرة أمام بسط سيطرتها الكاملة، مبررًا اعتراضه بأن ميرا تعرف أسرار البارود الذي ظل سر تفوق يوسف عليهم، إلا أنه بالأخير رضخ لتدبير مارينا بعدما أقنعته بأن ميرا لن تمنحهم أسرار البارود حتى ولو قتلوها لأجل ذلك، لتشعر بشيءٍ من الطمأنينة بعد فض اجتماعها، وبأن قائد الجند قد ارتضى الوضع الجديد، متجاهلة تحذير مالك من كيده، لكن في اليوم التالي تبين أن قائد الجند من قبل عودته من الحصار كان يكيّد للملكة ولا يرضيه سيطرتها وبسط نفوذها، حتى استطاع أن ينظم انقلابًا عليها في اليوم اللاحق على اجتماعهم، بيد أنها استطاعت الهرب من أسوار المملكة الأم متجهين نحو رانتاز، برفقة مالك وميرا قبل أن تصل أيدي الجند إليها.



٢٧٠٦٢٤٩٢

# طريق رانتاز

مارينا

في الصباح اتضح خطأ وجهة نظري في قائد الجند الذي ظننت أنه رضخ لسطوتي، حيث هالني أنني وجدت مالك يوقظني من مرقدي مرتجفًا وهو مرتدي زي الجنود ومن خلفه زهرة، ليعاجلني ما إن فتحت عيني.

- حدث ما كنت أخشاه، علينا الهرب الآن بلا تأخير نحو رانتاز لثبقي على ملك ابنك الملك جاد، بل لثبقي على حياتكما.

اعتدلتُ شاخصة العينين أقلب نظري فيهما على ضوء الصباح المتسلل من النوافذ المغلقة، ليقاطع شرودي مضيئًا:

- إن قائد الجند لم يرسم الإذعان إلا لتدبير أمره، فبعدما انسحب جيشنا من حصار مملكة الوافدين بالجبال قام بصرف قوات رانتاز وقوات قسطا إلى قراهم قبل أن يصل إلينا، موحياً لهم أنه سيصرف سائر جند إمارات القرى، بينما استبقى جند زورين وجند كيبول متوارين بين ممرات التلال بالاتفاق مع حاكميهما لمعرفته بنقمتها عليك واتفاقهما مع زينة البحر وابنها ضياء، كما أنه أعد كثيرًا من جند المملكة الأم العائدين أمس لهذا الانقلاب، ثم أتانا راسمًا الإذعان ليرى

أمرنا في حين تجهز للغدر. إن هذه القوات على مشارف المملكة، سيبدأ الغدر من داخل المملكة وخارجها خلال ساعة لعزلك وعزل ابنك الملك جاد وتعيين أخيه الأكبر ضياء بن زينة البحر، مبررين ذلك بضعف حكمك وتسببك في ضياع نصر المملكة إثر هروب يوسف بيوم الساحة، وقد يزيدون على هذا رغبتك في تحرير الأسيرة التي سيقنعون الخلق أنها طوق النجاة، وأغلب ظني أن قادة الحرس والبوابات هنا سينقلبون علينا ما إن يكثر المنقلبون من حولهم ولا يستطيعون صدهم.

انتفضت ساعتها أردي ملابسي. نصحني مالك بارتداء ملابس عادية وتغطية رأسي. لبست عباءة سوداء فوق رداء نومي، غطيت رأسي بوشاح أزرق فيما لم ألتفت إلى تبديل ملابس جاد، بينما واصل مالك قائلاً:

- لقد جاءني النبأ عبر أحد جنود القوات الرابضة خارج المملكة، تسلل نحوي ليخبرني بالأمر مستبقاً تحركهم، لكني لا أعلم هل اتفقوا مع قادة أفرع الجند بالمملكة هنا غير حارث أم لم يتفقوا بعد، إلا أنني أعتقد أن حرس القصر هنا لا زالوا جاهلين بالأمر، ولم أجد قائدهم حين جئتك، لكنهم استغربوا من اصطحابي عشرين فارساً إلى فناء القصر من جند رانتاز المخلصين، الذين كانوا يخدمون هنا بالمملكة. أخبرتهم

أنها أوامر الملكة لشأنٍ خاص بالمراسلات، مضيئًا بأن الأمر عاجل. سنهرب مع فرساني عبر البوابة الشرقية متجنبين المرور بالبوابتين الكبيرتين.

أنهيتُ إعداد حالي مسرعة، احتضنتُ جاد إلى صدري بقوة، ثم قلت لمالك بينما ينتفض جسدي:

- لا بُدَّ أن نأخذ ميرا معنا، إنها ورقتنا الرابعة.

تردد للحظاتٍ إلا أنه دلف إلى الشرفة مخاطبًا أحد حرس القصر بالأسفل، أمره باستقدام ميرا نحو الفناء بعد تكبيلاها وفقًا لأمر الملكة، ثم نزلنا بعدها مسرعين. أخذنا من خيل القصر لي ولميرا وزهرة دون عربات، قبل أن ننطلق قاصدين البوابة الشرقية من حولنا مالك وفرسانه، بينما أمسكتُ لجام فرسي بإحدى يديّ، وأمسكتُ جاد أمامي على صهوته بالأخرى، حين بدا مذعورًا يرتجف جسده مثلي، إلى أن بلغنا البوابة، أمرت بفتحها لنا لنعبر خلالها مسرعين، إلا أنني ما إن نظرت خلفي نحو المملكة وجدت عددًا كبيرًا من الفرسان ظهرُوا قادمين من بعيد في نفس الطريق الذي سلكناه، أدركت أنهم جاؤوا لتعقبنا، لذا أعطيت أمرًا لحرس البوابة بعدم فتحها لمن يأتي من بعدنا، ثم سارعنا إلى الفرار دون أن أعرف هل سينفذون أمري أم لا، لكن بدا عليهم أنهم سيطيعون لأن الأخبار لم تكن قد بلغتهم بعد، ليصبح ذلك



آخر أمرٍ أصدره بين أسوار المملكة.

ابتعدنا عن البوابة نحث في ركضنا تحت شمسٍ بدت حارقة في شروقها، تاركين من خلفنا غبارًا يرتفع إلى السماء، حتى إذا ما تضاءل أثر المملكة دون ظهور متعقبين، أخذنا نتجه جنوبًا قاصدين منطقة التلال التي تفصل المملكة الأم عن إمارات القرى الخمس، بينما تقدمنا الركب أنا ومالك ووصيفتي زهرة، في حين تبعنا بقية العشرين فارس تتوسطهم ميرا التي قيدوا فرسها لفرس أحد الجنود. بقيت ألتفت خلفي بين الفينة والأخرى يدبذب قلبي هلعًا، إلى أن اختفى طيف المملكة كاملاً، قبل أن أجد ميرا تقترب على فرسها بصحبة الجندي المكلف بحراستها، توسطت فرسينا أنا ومالك ثم هتفت قائلة:

- لم لا نهرب نحو سلسلة الجبال الغربية يا مولاتي؟ نحو يوسف، أقسم لكما بروح آربوس أنه سيؤمنكم جميعًا، أنا أضمن لكم ذلك.

حينها صرخ مالك في الجندي المكلف بحراستها:

- لم جئت بها إلى هنا؟ عد بها لتتوسط الركب، على أن يسبقها نصف الجند ويلحقها النصف الآخر.

انتظرت حتى تراجع الجندي برفقة ميرا نحو الموقع الذي

حدده مالك، ثم سألته:

- لم لا تستمع لها؟

اقترب بفرسه مني قبل أن يرفع صوته فوق صوت الراكب  
قائلًا:

- سأخبرك عند أول توقف لركبنا.

قالها ثم التفت أمامه حين ظهرت أمامنا طلّاع التلال،  
عندها هتف مالك في جنده:

- سنسلك ممر قسطا، ومن هناك سنواصل نحو أرضنا  
برانتاز.

ما إن بلغنا ممرًا ضيقًا يغمره الظل بقلب التلال، توقفنا  
لتلتقط الخيل أنفاسها، نزل الجند عن الصهوات وأنزلوا ميرا،  
أما أنا بقيت في مكاني أحتضن جاد كأني أخشى النزول من  
فوق فرسي، فيما بقيت زهرة على فرسها إلى جواربي، إلى أن  
اقترب مالك مترجلًا نحوي. انتظر حتى نزلت زهرة مبتعدة،  
ثم أمسك معصمي برفقٍ قائلًا:

- لا تخشي شيئًا يا مولاتي؛ منذ سمعت بأمر الانقلاب  
أرسلت الحمايم بمراسيل إلى والدي، طلبت منه أن يبعث  
إحدى سرايا رانتاز إلى هذا الطريق، ما هي إلا بضع ساعة

ويلتقون بنا، حينها سنصبح في حماية جند إمارتي، ثم إن جنود الإمارات الأخرى لا زالوا مبعثرين بعد ما حدث من انسحابِ أمام الوافدين، بل بالأحرى كل جند المملكة لا زالوا مشرذمين، ومن ينتظم منهم بالمملكة الأم ينشغل بأمر الانقلاب، لن يلحقوا بنا وإن لحقوا سترين أن جند رانتاز هم أصلب جنود هذه الأرض.

سحبت معصمي برفقٍ ووضعت يدي فوق كتف جاد مستفسرة:

- لم تخبرني عن وجهة نظرك في قول ميراب.

ابتسم باقتضابٍ قبل أن تكسو ملامح وجهه بالجدية، وكأن ما فعلت من سحب يدي أوجله قبل أن ينظر نحو جاد مجيبًا:

- إن مولاي جاد لا زال هو ملك آربوس الشمالية، ومولاتي هي الملكة والوصية على العرش. إن ما يفعلونه من انقلاب على ملككما لن يمر إلا إذا وافقتهم سائر إمارات القرى، وها هي رانتاز معنا، وقسطا مثلها، إذ يقدم حاكمها رأي أبي على سائر الخلق، أما غولار لا زالت مهدمة؛ لم تسلم من الحرب والكر والفر، فعلى الرغم من كوننا استرددناها في بداية هذه الحرب إلا أن حاكمها لا زال بالمملكة الأم تحت قدمي زينة البحر دون جيشٍ يعينه، ينتظر أمرًا بالعودة مع عونٍ من المال والسلاح لإعادة إعمارها، لذا هو خارج الحسابان، إذن

تبقى المملكة الأم وإمارة زورين وإمارة كيبول وحدهن مع هذا الانقلاب، فيما تعارضهن رانتاز وقسطا، أي أن الكفتين قريبتين من التعادل.

أشرت برأسي مستفهمة:

- وما الذي يمنعنا من أن نطلب عون يوسف ونلجأ إليه؟

- إن لجأنا إليه سنجمع سائر الخلق بكل آربوس الشمالية علينا، أولهم أبي حاكم رانتاز، فهو لا يطيق ذكر اسمه، من ثمّ سيُسقطون اسم ابنك كملك، ويسقطونك كوصية، وأصبح أنا خارجًا عن طوع أبي. لا تنسي أن يوسف هو عدو هذه المملكة اللدود، من بيت النية لغزونا إمارة تلو أخرى حتى يتم أمره بإسقاط المملكة الأم، ضعي أيضًا في الاعتبار أن استقدامه للحوريات كما يُروى في المأثورات القديمة يعني أنه لم يعد يملك كامل أمره، هن لا يأتين تابعات بل يقدّمن العون وفقًا لشروطهن، عندما ينزلن إلى البر لا يعدن إلا بعد تمام أمرهن، وأغلب الظن أنهن يبغين تغيير قواعد هذه الأرض التي دامت لمئات السنين. يقيئًا لم يعد هو يوسف الذي سيستمع إلى مطلبك، لا سيّما وقد صارت له قرينة من الحوريات كما يشاع.

لم أقدر حينها على أن أوارى صدمتي بشأن تلك القرينة، انعقد لساني ولم أقدر على رد، خاصة مع ما فنده من حديث.

أشرت برأسي موافقة وضممت جاد إلى صدري، فواصل مالك حديثه بعدما نظر أمامه نحو الدرب:

- أما إن بلغنا رانتاز سيصير للحديث بقية، ولن تخضع إمارتنا.

جاهدت لأرسم طيف ابتسامة على وجهي لكني لم أفجح، لا سيّما أن جاد قطع حديثنا قائلاً:

- ألن نعود إلى قصرنا يا أمي؟

ابتسم له مالك مقترّبًا وقال:

- ستعود يا سيدي جاد، لكننا سنذهب في جولة صغيرة نحو أرضي التي ترعرعت فيها، سأريك قصري هناك، ثم ترى حقول الفاكهة ومراعي الأغنام، وتلهو قليلاً على ضفة نهر جودي، بعدها نعود سويًا نحو قصرك لتكمل فيه باقي أيام عمرك ملكًا على كل هذه الأرض.

عاد جاد بوجهه نحوي، ابتسمت له مطمئنة، لذا طأطأ رأسه صامتًا، بدا أنه أخذ يدرك ما يدور من حوله، لكننا لم ننتظر بعدها كثيرًا، ما هي إلا دقائق وركب الجند لنواصل طريقنا داخل هذا الممر، صرنا نركض عندما يتسع وتلين تربته قبل أن نعاود السير الحثيث كلما ضاق ووعرت أرضه، إلى أن التقينا فرقة كبيرة من جنود رانتاز قبيل الغروب،



كانوا يرتدون ملابس جنود بنية اللون من الصوف الخشن،  
ومدرعين بدروع خفيفة، عرفهم مالك من بعيد، فهتف في  
مرافقينا بالتوقف، لتقبل تلك الفرقة علينا معظمين من شأن  
أميرهم مالك. نزلوا أمام خيلهم جميعًا لما بلغونا ثم انحنوا  
هاتفين:

- جئنا لأمر أميرنا مالك.

أشار لهم مالك فعادوا واقفين، لينزل ركبنا هم الآخرون  
ويسلموا على رفقاتهم قبل أن يعاجلونا بقرب الماء وبعض  
الزاد. استرحنا لبرهة قصيرة، ثم عاودنا الانطلاق على أضواء  
مشاعل أشعلوها، لكن بهذه المرة أخذت السكينة تتسلل  
إلى قلبي، حيث صرنا نسير وسط ما شابه جيشًا صغيرًا،  
فيما لازمني مالك وأخذ يشد من أزري بعبارات الطمأنة  
والتحفيز، حتى انتهينا من ممرات التلال وبلغنا منطقة رملية  
مستوية تلاها تخوم رانتاز من الأراضي الزراعية الواقعة  
خارج أسوارها، ذلك عند منتصف الليل تقريبًا، عندها بدا  
وكان الإمارة تتجهز للحرب من حركة الجند الكثيفة، مشاعل  
تتحرك هنا وهناك، تجمعات ومباريس ودفاعات، صاروا  
ينحنون مَحيين ركبنا كلما قابلنا فرقة منهم.

استفسرتُ من مالك عن هذا، فأخبرني أن رانتاز لم تشارك  
بقدر كبير من جيشها في الحصار الذي كان مضروبًا على

مملكة الوافدين، ذلك لأنه على الرغم من الاتفاق الذي أبرم مع مملكة آربوس الجنوبية قبل غزو الوافدين، إلا أن قادة الجند لدينا قرروا ترك حامية رانتاز بقدر كبير من القوة لأنها تمثل منتصف القرى وأقواهن في مواجهة الجنوب، كذلك تركوا حاميات أخرى بكل إمارات القرى لكن بقدر أقل من حامية رانتاز، تحسبًا لأي انقلابٍ من قائد الجنوب علينا ما إن ينتهي الحصار بإسقاط مملكة الوافدين وحدث صراع على اقتسامها، كما أن والده اعتاد أن يحتفظ دومًا بقدرٍ من بأسه مخافة أن يجدّ جديد، فلما انتهى الحصار بالهزيمة والتراجع وانتقلت الأخبار عن معاودة الاتفاق بين يوسف وملك الجنوب، أخذ والده يزيد من الإعداد لأي غدرٍ محتمل يأتي من ناحية الجنوب، بالأخير أضاف أنه على الرغم من كل تلك القلاقل إلا أنه يعتقد بأن الاستنفار الأكبر لم يحدثه أبوه إلا بعد بلوغ رسائله إليه، وأن هذه الاستعدادات ستكون لمواجهة مملكة آربوس الشمالية وليس الجنوبية.

من بعدها واصلنا في طريقٍ تخلل حقول رانتاز الزراعية الواقعة خارج أسوارها إلى أن بلغنا بوابة سورها الشمالي، ما إن عبرناها نسير متمهلين، إلا ووجدت الخلق يصطفون عن يمينٍ وشمال خلف صفين من الجنود في الدرب الرئيسي المتسع الذي امتد من لدى البوابة رأسًا إلى منتصف البلدة؛ انطلق صياحهم للأمير مالك بالنصر والتأييد، فيما أخذ يشير

لهم مبتسمًا، قبل أن يقترب بفرسه إلى فرسي ويأخذ يدي فيرفعها، عندها بدأوا يصيحون باسمي واسم جاد. بدا أن أهل رانتاز يكونون الحب لأميرهم، فما إن انتشر خبر وصوله حتى تراصوا لتحيطه، لنواصل عبر دربنا وسط هتافهم، ويتضح لي أن رانتاز لا تقل بهاءً عن المملكة الأم في انتظام شوارعها الرئيسية والأزقة المتفرعة عنها، كذلك في شكل مبانيها الحجرية ذات الطابق والطابقين، إلى جانب المشاعل التي تُضيء جنباتها، إلا أنها لم تتوسطها ساحة ضخمة مثل ساحة زهير الأول، بل أكملنا المسير حتى بلغنا بمنتصف طريقنا عن اليمين سور قصرٍ كبيرٍ مفتوح الأبواب.

ولجنا عبر بوابته أنا ومالك وزهرة، وانصرف بقية الجند بعدما أخبرهم مالك بإيداع ميرا لدى سجن دار السلاح برانتاز. بدت حديقة القصر شاسعة، تضيئها المشاعل الزيتية في أكثر من موضع، ويتوسطها طريقنا الذي وجدت لدى آخره الحاكم شهد والي رانتاز، وعن يمينه زوجته خولة واقفين أمام درجات القصر الأمامية، وراءهما من بدوا وزراء الإمارة ومستشاريها، فيما وقف عن جانبي الدرجات بعض الجند من حرس القصر. هرع الجنود يساعدونني أنا وزهرة في الترجل، بينما نزل مالك عن فرسه وحده، لتهرع خولة إلى احتضان ابنها، في حين اقترب مني شهد، مد يده يسلم عليّ أنا وجاد بكثيرٍ من التقدير، مع انحناءة خفيفة من رأسه،

زامنها انحناءة أكبر من مستشاريه وأمرائه، لكنني أحسست أن التقدير بعيني شهد ليس بنفس القدر الذي كان يوليني إياه بالمناسبات التي التقينا فيها سابقًا، قبل أن تأتيني زوجته وتسلم عليّ بشيءٍ من الود فاق التقدير، ثم رافقانا إلى داخل القصر، وانصرف البقية من جنود وغيرهم.

ما إن صرنا بالداخل اتضح مدى فخامة قصرهم التي تقترب من رونق القصر الملكي بالمملكة الأم من حيث اتساع بهوه، وارتفاع سقفه الشاهق، وإضاءته الزيتية الموزعة بعناية، وغيرها من الأثاث وقطع الزينة التي تغطي أركانه. لم أدقق كثيرًا في تفاصيله؛ حيث اصطحبانا بمجرد ولوجنا نحو سفرةٍ عامرة عن يمين البهو، أجلسوني على رأسها وإلى جوارى جاد، وجلس شهد على الناحية المقابلة، فيما جلس مالك وأمه متقابلين بالمنتصف، بينما أحاطتنا من بعيد بعض مدبرات القصر اللائي انضمت لهن زهرة دون أمرٍ مني أو منهم.

لم أملك شهية للطعام، لكنني حاولت أن أطعم جاد لبيتدر شهد الحديث قائلاً:

- لقد بلغنا ما حدث في المملكة الأم، لكن رانتاز لم توافقهم على ما خططوا له ولن ترتضي ما أحدثوه. إن لرانتاز قدرها الذي تخطوه، ثم إن شرعية الحكم الآن معنا.

قالها مشيرًا نحوي قبل أن يستأنف:

- لكننا سنحتاج لترتيبٍ أكثر لأمر هذه الشرعية.

أنهى جملته ثم نظر لمالك مبتسمًا، لتأخذ خولة طرف الحديث قائلة:

- إنهم في غنى عن هذا الحديث يا صهد، طريقهم كان طويلًا وكابدوا فيه الشقاء أصنافًا. دع الحديث عن الحرب والملك إلى الصباح.

ابتسمت لها وواصلت إطعام جاد وسط حديث صهد مع ابنه مالك، إلى أن وضعت ملعقتي وسكنت كعلامة على انتهائنا. قامت خولة واصطحبتني برفقٍ نحو السلم الذي يرتقي للطابق الأعلى، فيما قام مالك ووالده من مقعديهما إجلالًا، في حين لحقت بنا اثنتان من المدبرات برفقة زهرة. سعدنا نحو غرفةٍ كبيرة أضاءتها مصابيح زيتية علقت لدى جوانبها، كما غلقت مصابيح أخرى لدى شرفتها الواسعة المطلة على حديقة القصر. أخبرتني خولة أنها كانت غرفة ابنتها الكبرى قبل أن تتزوج من ابن حاكم قسطا، ثم فتحت لي خزانة ملابسها الكبيرة المستندة إلى حائطٍ كامل من حوائط الغرفة، وابتسمت قائلة أنها طلبت حائكي الملك ليأتوا في الصباح لصنع ما يليق بي، على أن أبيت هذه الليلة في أيٍّ من ملابس ابنتها إن ارتضيت ذلك؛ وافقتها ببشاشة



وردت بأنني لست في عجلة بشأن الملابس، بل يسعدني اقتناء ملابس ابنتها، لكنني طلبت استبقاء زهرة إلى جوارتي، ردت بأنها ستقطن غرفة أخرى بنفس الطابق على أن تأتيني حينما أطلبها.

قطع حديثنا من استأذنت قادمة من باب الغرفة بيدها ما بدا رداءً من الصوف الأبيض لجاد، أخذته منها زهرة وسارعت إلى تبديل ملابسه، ثم استأذنتني جميعًا في المغادرة بعدما جاءت وصيفة رابعة بصحيفة كبيرة مُلئت بالفاكهة ووعاء من الماء البارد، وضعتهما فوق منضدة صغيرة إلى جوار باب الشرفة.

ما إن خرجت تهالكت بجسدي على أحد مقاعد المنضدة، انحنيت بوجهي بين كفيّ يديّ وأخذت أبكي في صمت، كأن كل الصمود الذي تماسكت به طوال رحلة فراري انهار ما إن خلوت بنفسي. صرّث أرى ومضات حياتي القصيرة، أتذكر مقادير تقاذفتني لم أستطع أن أغير فيها ولو لبنة صغيرة، منذ أفقت بقصر زايد وأخبروني أنني معمرة من نسل زهير الأول، وأنتي كنت أسيرة لدى وافدي الجبال قبل أن يحرروني من قبضتهم، من ثمّ زوجوني زايد كهلاً، بينما لا أدري من أنا، لأنجب له جاد وليًا للعرش، ويصير أول أمني وسندي، لكن ما لبث أن رحل أبوه وتركه طفلًا لاهيًا، لتشتعل

نار الفتن من حوله وحولي دون قوة لنا ولا نصرة. لو امتلكت كامل أمري لهرعت نحو يوسف منذ طلبه العهد معي، لا أذكر لي تاريخًا معه مما حاول أن يخبرني، لا أتذكر من إسراء ولا الأرض الغربية التي حكى عنها، إلا أنني لم أتمن أن أستسلم إلا له، ألقى جبالًا عن كتفي أمامه، وأقول احملني أنا وابني، لكن ها هو اتخذ قرينة من الحوريات، ليُغلق آخر الأبواب بوجهي ويتركني لصهد يُلْمَح عما أراده ابنه مالك، إذن فليحكم القدر بما يشاء ولتواصل المقادير لعبتها، فقد سئمت أن أحاول التغيير بلا طائل.

لم أفق إلا على يدي جاد الصغيرتين فوق رأسي وكأنه أحس بما تكابده أمه، رفعت وجهي نحوه مكفكفة دموعي وحاولت التبسم كيلا أثير جزعه، إلا أنه ابتسم لي على نحو جاوز أعوامه التي لم تتم الخمسة بعد، حمل وجهه كثيرًا من الطمأنينة والبراءة. احتضنته إلى صدري قائلة:

- لا تخش شيئًا يا صغيري طالما يسعك حضني.

ما أدهشني أنه رد بثبات:

- بل لا تخشي أنتِ يا أمي ما دمتُ أنا معكِ.

حملته بين يدي وقمتُ نحو مرقدنا فيما أردفت مبتهجة:

- هذا ما أنتظره من ابني القوي الشجاع، هذا ما أنتظره من

الملك جاد سليل الملوك.

صرتُ أردد ذلك وأقبّله من وجهه إلى أن أرقدته إلى جوارِي، أخذنا نتجاذب أطراف الحديث حتى استسلم للنعاس، بينما بقيت أتقلب في مرقدِي إلى أن حل الصباح، وسمعت صوت طرقات لدى الباب حين جاء صوت زهرة:

- أسمح لي مولاتي في الدخول؟

اعتدلتُ جالسةً وأذنت لها فدخلت، وقفت جوار مرقدِي ترسم ابتسامة لم تفلح في طمس معالم أساها على حالنا قبل أن تقول:

- كيف حال مولاتي؟ وكيف حال ملكنا جاد؟

- حالنا لا يخفى عليكِ يا زهرة.

- أرى أنه لم يكن بالمقدور أكثر مما جرى، ومن حُسن طالعنا أن مالك لم يخذلنا.

- لكن أباه لن ينتصر لنا بلا مقابل، لم يصبر حتى نلتقط أنفاسنا من طريق هروبنا الطويل قبل أن يُلْمَح برغبته في المصاهرة.

- يبدو يا مولاتي أنه بالكاد اصطبر طوال الليل، فقد أمرني أن أخبرك بأنه يطلب لقاءك لدى مجلسه بالطابق السفلي إذا

لم يكن لديك ما يمنع.

- وما ظنك يا زهرة؟

- ظني أنه قد أحيط بنا ولم يعد هناك سبيل للمماطلة أو المهادنة.

أطرقت للحظات ثم أخبرتها بأن ترد عليه بأني قادمة إليه ما أن أهين حالي.

لم أتأخر كثيرًا في إعداد نفسي، ارتديت أحد فساتين ابنة صهد السوداء وكأني أرسم الحداد قبلما أخرج من باب غرفتي، لأجد زهرة بانتظاري، سارت خلفي أثناء نزولنا لتوجهني إلى مجلس صهد على يسار البهو، فتحت لي بابه ثم انصرفت بعدما أغلقتة من خلفي، لم أجده جالسًا على كرسي رأس المجلس، بل جلس على أول المقاعد في صفي المقاعد المتقابلين. أحسست أن كل هذا الإجلال قد يذهب سدى إذا ما انتهت هذه الجلسة دون رضائه، بل قد يزيد على ذلك بتسليمي أنا ونجلي لحارث المعتاض، ليُجنب إمارته كل ما قد تُكابده لأجل هذا الخلاف مع المملكة الأم. انتويث أن أستمع إلى حديثه، ثم أطلب أن يُمهني لبرهة لا أقطع فيها أمرًا إلا بعدما يتضح حال المملكة، كذلك حال يوسف ومملكته وما قد يجد من نزاعٍ متعدد الأطراف، لذا جلست على المقعد المقابل لمقعده، أخذت أتفرس وجهه في نظرة

خاطفة قبلما أنطق. بدا مثل مالك ذا وجه مستدير أبيض،  
لكن غزته التجاعيد كما غزا الشيب شعره، انحنى جسده  
الطويل قليلاً، إلا أنه بدا سمحاً مثل ابنه، بيد أنها سماحة  
خالطها طول الحكم وكثرة الصراعات.

بادرتُ قائلة:

- هل نفذوا انقلابهم بالمملكة؟

قطب حاجبيه مجيباً:

- بل ولم ينتظروا كثيراً لبيعثوا الرسل بمراسيلهم. جاءتنا  
رسالتهم مع شروق الشمس، كما عرفت أنهم أرسلوا أيضاً  
لسائر القرى.

- هل يريدون منك تسليمي أنا وابني؟

- أرسلوا للقرى يخبرون حكامها أن الملك جاد قد عُزل عن  
الملك، ليتولى أخوه الأكبر ضياء، أما نحن فأرسل لي حارث  
خطاباً طويلاً على لسان ضياء، سأتلوه عليك.

أشرت برأسي موافقة، فأخرج من بين طيات ملابسه ورقة  
فردها ثم أخذ يقرأ:

«من الملك ضياء بن زايد سليل زهير الأول إلى السيد صهد

حاكم رانتاز:

نُحيطك علمًا أنه وفقًا لرغبة أهل المملكة من المعمرين، كذا مشورة أهل الحل والعقد، إلى جانب اجتماع رأي كبار قادة الجند وغالبية حكام إمارات القرى، قمنا بعزل شقيقي الأصغر جاد بن زايد عن الملك، لأنصب نفسي ملكًا على مملكة آربوس الشمالية، ونحن إن كنا خابرنك فيما سبق بشأن هذا الأمر ولم تسمع لمشورتنا، فإن الحال الآن اختلف، لا سيَّما بعد عودة جيوشنا على أدبارها، واستدعاء يوسف للحوريات، لذا توجب علينا التحرك مسرعين بلا تأخير أو تسويق مع يقيننا بأنك ستُقدِّر هذا.

إن المملكة بوقتنا العصيب لا بُدَّ أن تصير على كلمةٍ سواء تحت قيادةٍ موحدة قوية، فعلى الرغم مما حدث بالحرب الأخيرة من خسارة، وعلى الرغم من ذاك الانسحاب، إلا أننا لو اجتمعنا من جديد سنصد يوسف وحورياته، بل ونعاود غزوه. ها هو جيشنا بالمملكة الأم بدأنا تهيئته من جديد منذ أمس، لنضيف له الآلاف من شباب المملكة الذين لم يكونوا تحت أمر الجنديّة، سنزودهم بالعتاد ونهيئهم للقتال، وما هي إلا أيام قلائل ويعود جيش المملكة كما كان بل وأكبر. بذات الوقت أرسلنا حاكم غولار إلى إمارته ليبدأ استعداداته هو الآخر، كما أن حاكم زورين يُعيد إعداد جنده ويضيف إليهم، مثله في ذلك حاكم كيبول.



نحن هنا نثق في رشاد عقلك وحسن تدبيرك، نعلم أنك لم تكن من قبل طامعًا في مُلك أو طامعًا في منصب أشرف من حكم رانتاز، بل على النقيض لبثت دومًا مُضحياً لأجل صالح هذه المملكة، وخير دليل على ذلك هو وقوفك سداً منيعاً على مدار عقود أمام محاولات حاكم آربوس الجنوبية لغزونا، الذي إن تفرقنا ستكون إمارتك أول مطامعه، لا سيّما أن أكبر الجسور بيننا وبينه يقع أمام أرضك، لذا أطلب منك أن تنظر من حولك، لتجد يوسف وحورياته في ناحية، وآربوس الجنوبية في الأخرى، هل تريد أن تستعدي أيضاً أبناء مملكتك وهم عونك وسندك؟ لا أظن أن ذلك قد يرضي حاكم رانتاز الحكيم أو أهلها المخلصين، ولا يغرنك وقوف حاكم قسطا إلى جوارك؛ إن صار في الأمر نزاع بيننا وهو ما أحاول تجنبه بشتى السبل، لن يكمل معك دربًا ضد سائر جند المملكة قبل أن ينقلب عليك فتصير وحدك، عندها سثدرك أننا جميعًا قطعنا شوّطًا طويلًا في اتجاهٍ خاطئ، ضيّع علينا فرصة السير في الدرب الصحيح من البداية، وقد لا نستطيع وقتها أن نغتفر ذلّاتنا.

ما نطلبه منك ليس بالأمر العسر، أن توافقنا على نهجنا الذي أيده الكافة، ثم تسلّمنا جاد وأمه وتلك الأسيرة التي تُدعى ميرا لنهي القلاقل بالمملكة ونبدأ العمل سويًا. لن يضيرك ذلك في شيء، بل سثمنح في المقابل عشر آلاف من

القطع الذهبية، وألف فرس من خير خيول المملكة كهدية على ولائك وإخلاصك، وإن أردت عودة مالك لمنصب الوزارة فلن نجد خيرًا منه وهو البطل المقداد، ولو أردت استبقاءه إلى جوارك فلا غضاضة.

بالأخير إن عز عليك تسليم جاد وأمه إلينا بعدما لجأ إليك واحتميا بك، يكفيننا بوقتنا الراهن أن تسلمنا من تُدعى ميرا وترتضي الملك الجديد، مع الاحتفاظ بشقيقي وأمه لكن بعد خلع الألقاب عنهما، ذلك لحين استتباب الأمر بالمملكة، لننظر عندها سويًا في أمرهما.

هذا هو خطابنا إليك، ليس بشأن الملك وحده بل بشأن سائر الخطوب من حولنا التي تحتم علينا أن نحاول لم الشمل ورأب الصدع. مددنا يدنا نحوك راغبين في الوحدة والمصلحة لسائر أهل آربوس الشمالية، ومنتظر منك ردًا حكيمًا مثل سائر مواقفك السابقة.

والسلام ختام».

أنهى قراءة الرسالة، ثم وضع الورقة إلى جانبه ناظرًا نحوي ليقول:

- ما رأي مولاتي فيما سمعت؟

- الرأي رأي حاكم رانتاز الحكيم، وإن كنت أرى منذ قدومي

نحو تخوم رانتاز أن سيدها قد اتخذ قراره من قبل وصولنا.

ابتسم متفرسًا وجهي قبل أن يجيب:

- يظنون أنك لا تملكين الفطنة وحسن التدبير، لكني أرى ملكة بالفطرة، اتخذت قرارًا صائبًا بتقريب مالك بن صهد إليها في وقتٍ تموج به الفتن، كي يصبح حائظًا أمانها الأخير، وحين آن الموعد لم يخذلها.

- لن يخذلني أبوه أيضًا، سواء في ذلك ارتضى خلع الملك عن ولدي جاد أو لم يرتض.

اتسعت ابتسامته:

- ما ادّعوه عنك وقت زيجتك من الملك زايد أنك من نسل زهير الصافي الذي لم يختلط بنسلٍ غريب، لأن المملكة هنا لا تزوج الملوك إلا من ذاك النسل، ولا يولد الملوك إلا من تلك الأرحام. هم يلبسون هذا الشرف لمن يبتغون ويخلعونه عن لا يرغبون، لكن حاكم رانتاز يعرف جيدًا ما واروه، وهو أنك من سلالة المعمرين النقية الموجودة بأرضٍ أخرى غير هذه الأرض، أي أنك أعلى مقامًا من نسل زهير، لأنك مثل زهير نفسه، إلا أننا لا يعيننا إلا ما أذاعوه، لذا أنت ستكونين طريقي ليصبح الملك يومًا من ذريتي، وهذا هو المقابل الذي أرتضيه لأقف أمام كل ما سمعت.

قطبت حاجبي:

- وكيف يصير ذلك؟

- بأن تتزوجي مالك، وتنجبين أخًا لجاد ندعوه شهد، يصير وليًا للعهد بعدما تنتهي من ضياء وأمه وحات واتباعه، أو ننقل مقر الملك إلى هنا إن طال الصراع، حتى نُثبت ولاية العهد على حفيدي.

- وبعدها؟

- سيكون الملك تحت قبضتنا بالقوة والشرعية، فيتنازل جاد راضيًا عن الملك لأخيه الأصغر شهد. سيكون شهد الصغير ابنك مثل أخيه جاد، لكنه من ذريتك أنتِ ومالك، وإن احتجنا في طريق ذلك التغيير أن نُبرز للخلق حقيقتك الأولى، وأنتِ من سلالة المعمرين النقية، وكل أبنائك يجوز لهم أن يكونوا ملوكًا لن نتوان في ذلك.

- إذن أنت لا ترغب في الزيجة وحدها، بل ترغب أن يتنازل جاد عن الملك لأخيه أيضًا! لكن ألم تضع في حسابك ألا نرزق أنا ومالك؟

- أمن أنجبت من كهلٍ عجوز على شفا الموت، لن تنجب من شابٍ يافع مثل مالك؟! ثم ألا ترين أنني أقف أمام تلك العقبات كلها لأجل هذه الأمنية؟

- إن افترضنا أنني وافقتك على ذلك، هل تظن أننا سننتصر  
يومًا في هذه الحرب؟

- خذوها من مُسن مثلي عجنته الأيام والخطوب، القادم  
ليس حربًا، القادم حروب كبيرة تشمل كل هذه الأرض، تغير  
القواعد والخارطة والتحالفات. لا تظني أنني استبقيتك  
لأجل الملك وحده، بل لأجل يوسف أيضًا، الذي سيعز عليه  
خذلانك أو قهرك إن طلبت.

لم أفهم ماذا يعني، لكنه صمت لبرهة قبل أن يواصل:

- لا نعلم ما تُخبئ الأيام لنا، ولا ندرك أي الجوانب هي  
الرابحة، لكن ما أعرفه أن أسوار رانتاز لم تُحترق من قبل  
ولن تُحترق، طالما بقيت رانتاز ستصير المملكة لها بالأخير،  
حتى وإن صارت وحدها مملكة مستقلة بذاتها، لذا اعقدي  
أمرك سريعًا، لك مني ثلاثة أيام أنتظر فيهم رأيك، وأعلم  
جيدًا أنك لن تخالفيني الرأي.

- ألا تمهلني لأسبوعٍ واحد؟

قَطَب حاجبيه:

- بل هم ثلاثة أيام، إما البقاء هنا أو العودة نحو أسوار  
المملكة الأم. لا تظني أنني قد أبعثك ليوسف كي أخسر كل ما

أملك بوجودك من قوةٍ وشرعية، بل وأقلب سائر المملكة عليّ لأجل ذلك، مولاتي إما هنا ملكة أو بالمملكة الأم أسيرة.

رسمتُ ابتسامة واسعة على وجهي، على الرغم من كل الأعاصير التي كانت تضرب أعماقي ثم رددت:

- إن ارتضيت ما تقول، هل أظل وصية على ملك ابني حتى يحدث مرادك؟

- ستصير وصاية مشتركة بينك وبين مالك، وتظل معاملتك قائمة مثل الملكات.

- وماذا عن ميرا إن طلبت أن نبعثها إلى يوسف كبادرة لحسن نوايا رانتاز تجاهه؟

عبس وجهه قبل أن يجيب:

- أنتِ ملكة آربوس وليس رانتاز وحدها، كل ما قد تطالبينه يكون أمرًا ملكيًا واجب النفاذ، عدا أي أمرٍ يخص يوسف، قد نبعثها له يومًا لكن ثمنها سيكون غاليًا وليس مجرد بادرة على حسن النوايا.

قمت من مقعدي وأجبت:

- إذن موعدنا بعد ثلاثة أيام.

قام من مكانه ثم انحنى للأمام تبجيلًا، كأنه لم يهددني منذ



دقائق بتسليمي للمملكة الأم، لكني ابتسمت له وانصرفت نحو الباب، ما إن فتحتة وجدت مالك جالسًا بالخارج على أحد المقاعد المهيأة للانتظار خارج مجلس أبيه، أقبل ناحيتي مستفسرًا عما دار حوله حوارنا، حيث أخبروه أن والده أمر بالآ يقاطعنا أحد حتى مالك وأمه، فأجبتته بأنه كان حوارًا وديًا طمأنني فيه والده على استبقائي وحمائتي، قبلما أتركه وأنصرف إلى غرفتي ليلج هو إلى المجلس.

قابلتني زهرة لدى الغرفة حيث انتظرتني لتراقب جاد أثناء نومه، لم أبدأ حديثًا معها، إلا أنها قرأت في عيني ما جرى، لتبادر إلى كلمات التسلية والصبر، لكني رددت عليها بجمودٍ أنني قد اتخذت قراري أو بالأحرى ليس لدي خيار آخر كي أتخذه، وإن كنت أصطبر قبل أن أبلغ به صهد، فما هو إلا صبرٌ يُعزز قراري ولا يجعله هيئًا. لم تُكمل حديثنا، بل كنت لا زلت أقف بمنتصف الغرفة وأمامي زهرة حين طرق الباب مالك، أذنت له بالدخول فغادرت زهرة مع قدومه. وقف أمامي وعاجلني قائلًا بأنه لم يكن لديه علم بأن والده سيطلب زواجه مني بهذا التعجل، وأنتني في حلٍ من أمري، لأنه لا يرتضي أن يكون نصرهم لي في مقابل إتمام تلك الزيجة.

بدا لي أن والده لم يشرح له حديثنا بتفصيله، أخبره بطلب الزيجة وحسب، بدا أيضًا طيب نفسه واختلافه عن

أبيه، فعلى الرغم مما يكنه لي من هوى، إلا أنه لم يلمح أبدًا عن مقايضةٍ أو استغلالٍ موقوف، بل أظنه على استعدادٍ للانتظار حتى ألين له بكامل رضائي، وهو ما دفعني لرسم البشاشة على وجهي رغم أنف قلبي، وأقطع مهلة قراري لأرد عليه بأنني لن أجد من هو خير منه كي أسلم له نفسي وحماية ابني، حينها وضع يديه على كتفي، تغير رسم عينيه ونظرتها، ثم رد بصوتٍ خافت:

- أصدقًا توافقين دون أي إجبار؟ أحقًا تقبلينني زوجًا؟

سرت قشعريرة هائلة بكامل جسدي، فرت دمعتان من عيني، إلا أنني نظرت لأسفل ورددت:

- صدقًا أقبل ذلك.

احتضنني إلى صدره وأخذ يُردد أنه ما أحب بهذا العالم سواي، أنه لبث مستعدًا أن يظل إلى جوارِي طيلة عمري على هذا الأمل الذي تحقق لتوه، بينما انهمرت دموعي بلا توقف، ثم تركني راکضًا نحو الباب ليبلغ أهله.

# نهضة الوافدين

يوسف

ما إن بلغ ملك الجنوب أنباء انتصارنا الساحق على قوات آربوس الشمالية، وقبل أن نبدأ استكشاف جانبه لنضع تدبيرًا مغايرًا له ولجيشه، استبق ذلك وبعث طالبًا السلام معنا بعد يومين من انسحاب قوات الشمال، بأن عرض الانسحاب الكامل بقواته عن حصارنا دون شرطٍ أو قيد، على ألا تتم ملاحقتهم أثناء تراجعهم، وأن نعود لاتفاق السلام القديم. تشاورت في الأمر مع أفرودينا ويزن وسائر القادة، ثم بعثت ردي بالموافقة على طلب سلامه، مع عدم الاعتداء بيننا لمدة عامٍ قابل للتجديد كلما انتهى، إلا أنني رفضت إمداده بقنابل البارود مثلما كان يجري بالمعاهدة القديمة، كما طلبت ألفين فرس لإتمام الاتفاق. أتى رده باستغناؤه عن البارود، كما وافق على أن يبعث خمسمائة فرس كل عام مع تجديد العهد بيننا؛ ارتضيت عرضه وتممنا اتفاقنا على ذلك عن طريق الرُّسل، لتنسحب قواته عن قمم الجبال بعد خمسة أيام من انسحاب قوات الشمال، وتعم الاحتفالات كافة أركان المملكة بالنصر الذي تحقق.

بليلة الاحتفال وما إن عدت برفقة أفرودينا إلى منزلي اتجهنا نحو الشرفة، جلسنا متجاورين على ذات المقعدين

الذين اعتدنا أنا وميرا الجلوس عليهما، لتنظر نحوي وتقول:  
"ما دمت قد اتفقت على السلام مع الجنوب، إذن ما عاد لدينا  
سوى الشمال لنملكه وفقًا لعهدنا معك».

ابتسمت موليًا وجهي إلى البحر الذي تلاً ضوء القمر فوق  
صفحته:

- هل أنت في عجلة من أمرك؟

- بل أريد إلقاء هم العهد عن كاهلك، حتى تعود  
الزورجولات إلى البحر، وتستقر حياة الحوريات فيه.

- وحياتك؟

اقتربت بشفتيها من أذني وهمست كأنها تنفت سحرًا إلى  
عقلي:

- سيتحدد مصير حياتي وفقًا لما يرتضيه زوجي سيد  
الوافدين.

أدرت وجهي نحوها مدققًا في تفاصيلها كأنها سحرتني  
بهمسها، بينما أحسست أنها تواصل السحر بنظرات عينيها  
الزرقاوين اللتين لم يفصلهما عن عيني سوى قدر أنامل، إلا  
أنني استفقت ناظرًا نحو البحر من جديد قبل أن أقوم لأتكئ  
على سور الشرفة بمرفقي، من ثم أخذت شهيقًا طويلًا

وردت:

- لقد غيّرت مصائر بهذه الأرض، أزحتُ جبالاً عن مواضعها  
كي نقف سوياً هنا بهذا المكان، وما كان أصعب من إزاحة  
الجبال هو تغيير النفوس الخائعة إلى نفوسٍ تواقّة للحرية!  
ليس هذا وحسب، بل إنني شارفت الموت بساحة آربوس،  
كدتُ أغرق في البحر وأنا أبحث عنكن، نجوت من ألف  
مصرع، إلا أنني رغم كل ذلك لم أقدر على أن أحتفظ بمن  
أحببت يوماً. جئتُ برفيقة من أرضي ظللت أناجيتها لسنواتٍ  
وما أفلحت في وصالها، ثم دارت الأيام والخطوب وتغيّرت  
دفة قلبي لحب غيرها، من ضحت لأجلي مراراً حتى أكملت  
تلك المسيرة، لكنني أقف الآن معكِ دونها، حتى فارس قدّم  
روحه لأجلي ولأجل هذه المملكة، مثله مثل أكمل أول من  
وقف إلى جانبي هنا بهذه الجبال، وكلاهما رحل. لم أنعم  
يوماً برفقة من أحببت، أتظنين أنني قد أغزل حبلاً جديداً  
للود؟ بالأحرى سأقاتل أولاً لأجل ميرا؛ هي آخر قطعة من  
نفسي وروحي، كما أنني وإن تغيّرت دفة قلبي فإنني لا  
زلت مديناً لإسراء أو مارينا، وسأبذل قصارى جهدي لأرد لها  
دينًا تعلق بـرقبتي، سأقاتل أيضاً لأكمل ما بدأت، لأجل أولئك  
المستضعفين الذين رأوا في أملاً. أما عنكِ فإنني أعلم أنني  
لن أجمع بغيرك طالما بقيت معي هنا، لذا لنجعل الأمر على  
قدر العهد بيني وبينكن إلى أن أنفذ لكن ما طلبتن، من بعدها

أعود لأرضي مع من يقدر لي العودة برفقته، فقد اشتقت لموطني، أتوق لأن أعود ذاك الشخص الذي لم يكن مسؤولاً سوى عن نفسه!

قامت من مقعدها لتقف نفس وقفتي مستندة إلى سور الشرفة، ثم ردت بكلماتٍ باهتة خلت من أية تعبيرات أو مشاعر:

- لكني أظل زوجتك في وقتنا الراهن، لي حقوق قد أطلبها، وهذا وفقاً لعهدك.

قالتها ثم انصرفت نحو غرفتي التي صارت غرفتها منذ أن عدنا إلى المملكة. انتظرتُ لدقائق في موضعي قبل أن أقصد أريكتي بقاعة ضيافة المنزل، أطفأتُ المصباح الزيتي المعلق إلى جوارها، ثم استسلمت للنعاس حتى الصباح.

استيقظتُ كالعادة على زيارةٍ من يزن، لبث ينتظرني بمجلسي إلى أن أيقظتني أفرودينا، بقيت جوارى حتى أفقت، ثم رافقتني إليه لنجلس عن جانبه بالصف الأيسر من صفي المجلس المتقابلين وسط إضاءة النهار المتدفقة من نافذتي مجلسي المفتوحتين على مصراعيهما. أبلغنا أن الوضع بمملكتنا صار خارجاً عن السيطرة؛ زحام بعد انسحاب قوات الجنوب، ذلك بسبب تدفق بقايا قبائل الوافدين التي كانت لا تظل قاطنة بكهوف الجبال، لأنهم بعد حربنا الأخيرة



وثباتنا في وجه الغزاة، تيقنوا بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه المملكة باقية، وليست مجرد بناءٍ على شفا جرفٍ هار، لذا لم يعد هناك من أحد يريد البقاء في جحور الجبال وكهوفها، وجاؤوا جميعًا يطلبون الحياة التي توفرها المملكة.

تناقشنا سويًا في الأمر، وعقدنا العزم على بناء مزيد من البيوت بالأماكن الفارغة والمتخللات داخل أسوار المملكة، مع توسعة السور الشمالي إن استلزم الأمر، بينما أوعزت إليه بأن يبدأ من وقته في تسجيل الفتيان والفتيات من القادمين الذين يصلحون للقتال، كي يضمهم لجنودنا ما إن تستقر أوضاعهم بمساكن مؤقتة أو خيام، كذلك فرز الصيادين والحدادين ومن يستطيعون البناء، ليعرف الجميع أن الانضمام للمملكة يعني العمل لأجلها وليس الاستفادة من بأسها وحسب. انتهينا من هذا الأمر، فانتقل إلى الحديث عن أخبار جديدة جاءت عن مملكة آربوس الشمالية، قال أنه حدث انقلاب على مارينا وولدها جاد، لذا هربت بصحبة الأمير مالك نحو إمارته رانتاز، في حين نصب ضياء بن زايد نفسه ملكًا وخلع أخاه الصغير جاد. ما لم يتيقن بشأنه هو هروب ميرا برفقة مارينا، لكنه أكد على أنه بعث من المتلصصين الكثير نحو المملكة الأم ونحو رانتاز أيضًا ليأتوا بمزيدٍ من الأخبار. استمعثُ إليه حتى بلغ هذا الموضوع، فقاطعته مؤكدًا حتمية التيقن من موضع ميرا، ليس هذا

وحسب، بل وإبلاغها رسالة منا مفادها أن تقاوم وألا تستسلم  
لأننا قادمون في إثرها بكل جيوش مملكة الوافدين، ذلك  
قبلما أتركه ليستأذن في الانصراف كي يحاول تنظيم أمر  
أولئك القادمين وتنفيذ ما استقر رأينا عليه.

انصرف يزن بعدما أركى نارًا استعرت داخل رأسي، حيث  
ازدادت الخطوب اشتباكًا وتعقيدًا؛ مارينا لم تعد تلك الملكة  
الآمنة بقلب مملكتها، بل أصبحت هاربة إلى أمان أكبر  
الإمارات. قد يُشعل هذا الأمر حربًا بينهما، وقد يتجنبنا ذلك  
بالتراضي والاتفاق، أما ميرا صارا يتقاذفانها أو يعتبرانها  
ورقة للتفاوض أو حتى ضمانة ما، إذن ماذا علينا الآن أن  
نفعل؟ إن هاجمناهما سنوحدهما بعد خلافٍ نشب، بل وقد  
يساوماني بميرا ومارينا، أو بالأحرى إن عقدنا راية الحرب،  
من علينا أن نهاجم أولًا، رانتاز أم المملكة الأم؟

دار بذهني أنني منذ انسحابهم عن حصارنا وأنا أفكر في  
طريقة لغزو المملكة الأم مباشرةً بعيدًا عن أدغال القرى  
وتراصها، فأسقط قلب المملكة وأصل إلى ميرا ومارينا، من  
بعدها يحين دور القرى واحدة تلو الأخرى أو يخضعوا لي  
بسقوط قلب مملكتهم.

لم أكن قد بلغت طريقة لاخترق المملكة الأم شاهقة  
الأسوار حتى وإن ملكنا البارود، وكنت أضع باعتباري أن

جيوشهم لا زالت أدرى بالحرب، أكثر تدريبًا وتجهيزًا، وإن عزمت غزوهم، سيجمعون كل فردٍ بالمملكة وقراها قادرًا على حمل السلاح ليدافع عن قلب المملكة، بل ليقطعوا طريقنا بالصحراء قبل وصولنا، لكن رغم كل ذلك كنت أعرف طريقي وأحاول التخطيط له وهو طريق المملكة الأم مباشرةً.

الآن كي نغزو رانتاز، علينا أولًا أن نُسقط غولار من جديد، ثم نجهز بعدها على زورين، حتى نبلغ رانتاز بالأخير، التي لا تقل أسوارها صلابةً عن أسوار المملكة الأم، إلى جانب أننا لم نجرب غزوهم يومًا إلا في غولار أصغر قراهم، بل ودخلناها بالتخطيط والحيلة وليس بمعركة مباشرة، كما أن معركتنا الأخيرة معهم هنا بالجبال لا تصلح مقياسًا لصلابتهم، لولا استخدام الحيلة أيضًا ما انتصرنا، بل كدنا ننهزم حتى مع استخدام الحيلة لولا تدخل الحوريات.

شعرت أفرودينا بحيرتي، لذا اقتربت وجلست على ذات الكرسي الذي تركه يزن، قبل أن تقول:

- دعهما يتقاتلان، فيما نُجهز جنودنا ونعددهم. إن هاجمناهما قبلما تستعر الحرب بينهما سيجدان طريقًا للتوحد ضدنا، وهو ما لا نبتغيه، نحن نريد استعادة قلعة سرايوس؛ سنعاود بناء أسوارها أثناء انشغالهما بالتفاوض، ثم نجهز على غولار

فستردها وقت اشتعال الفتن بينهما. لن يستفيقا لنا ولن ينشغلا بغولار، ونكون اقتربنا، ثم إن ملك الجنوب حليفنا قد يساعدنا بعدها في غزو زورين على أن يُمنح بعض الجرار من بارودك، فنصير أكثر اقترابًا، هنا نقرر من نغزو أولًا رانتاز أم المملكة الأم، لكن الأرجح أن نغزو الأكثر إنهاكًا من الحرب التي ستشتعل بينهما.

التفتُ نحوها باهتمام:

- ماذا لو تدخل ملك الجنوب في هذه الحرب من قبل طلبنا؟ فله في آربوس الشمالية كثير من المطامع.

- سثخبره بالأ يتدخل في غولار أو زورين أو رانتاز، لديه كيبول وقسطا بالشرق، إن أسقط كيبول وقسطا وأسقطنا نحن غولار وزورين تكون أحشاء مملكة الشمال تمزقت.

- وبعدها؟

- ستكون هناك أربع قوى على أرض آربوس الشمالية، نحن والجنوب ورائتاز والمملكة الأم، سيشتعل صراع التحالفات، هكذا تدار الحروب بين الممالك المتصارعات، عهد ثبرم وأخرى تُنقض، والأكثر حنكة يُسيطر بالأخير، ونحن الأكثر حنكة.

- هل تفسرين كلامك؟

- اترك الأمر إلى حينه، أنا لست في عجلة من أمري،  
وستضح معالم طريقنا مع كل خطوة جديدة، لكن الآن عليك  
أن تستعد لهذه الملاحم.

أنهت كلامها ووقفت، مدت يدها إلي مبتسمة قبل أن  
تصطحبني نحو قاعة ضيافة منزلي، من ثمّ ذهبت إلى  
غرفتي، استبدلت ملابس المنزل بردائها الذي صار رسميًا،  
قميصي الكتاني الأزرق الطويل فوق لباسها المعدني الفوقي،  
قطعة قماش كتانية بيضاء لفتت كتنورة غطت خصرها إلى  
ركبتها فوق زيلها الأخضر المربوط، وتلك العصاة الصغيرة  
فوق لؤلؤة جبهتها تحت شعرها الأصهب، ذاك قبلما تعود  
وبيدها قميص أزرق، وسروال أبيض من الكتان، أخبرتني أنها  
هيأت لي هذا اللباس قبل استيقاظي، كما أعدت ماءً أصبح  
فاترًا بحمامي.

تحممت، وشذبت لحيتي، وبدلت ملابسني، ثم خرجنا سويًا  
لأجد الحرس خارج المنزل قد أعدوا لنا فرسين، امتطيناهما  
وتبعنا الحرس على أفراسهم، اتجهنا نحو الطريق المحاذي  
للسور الجنوبي كي نمر على فرقة، رأيث سائر الحوريات  
فوق السور وإلى جواره قد ارتدين قمصانًا زرقاء، وربطن  
عصابات فوق لآهن، صرن كلهن مثل أفرودينا، حيثهن  
وحييت جنودنا المرابطين أثناء تحركنا، إلا أن الطريق بدا

صاحبًا بالوافدين الجدد، بدوا تائهين يحملون أمتعتهم ويجرجرون أبناءهم فيما لا يعرفون لهم وجهة، لذا اتجهت نحو الساحة بقلب المملكة عبر الطريق الممتد من عند بوابة السور الجنوبي كي أكمل رؤيتي للمشهد.

وجدتُ الزحام لدى الساحة أشد، خيام تنصب، أمتعة تتقاذف، هرج وتشاجر، أطفال تجري هنا وهناك، بينما الجنود يحيطون الساحة وهم في حيرةٍ من أمرهم، ولما اتجهنا نحو الطريق المحاذي للسور الشمالي، لم يختلف الحال عن وضع الساحة، بدا أن المملكة كما لو أن تعدادها زاد إلى الضعف بين عشيةٍ وضحاها، لذا اتجهت برفقة أفرودينا نحو معسكر المشاة بالشرق، عبرنا البوابة وساحته قبل أن ندلف إلى غرفة قائدهم الذي لم يكن موجودًا، ثم بعثت الحرس يستدعون قادة الجند جميعهم، كذلك أرسلت في طلب يزن وكبير البنائين، جاؤوني جميعًا مسرعين لنجلس سويًا لدى مائدة مستديرة هُيئت للاجتماع بمنتصف غرفة القائد. بدأت الحديث بسؤال يزن عمًا أتمه، أخبرني أنه لا زال يحاول تنظيم أمر المأوى لكل من حضر إلى المملكة مستعينًا بفكرة الخيام داخل الساحة ومحل السوق المجاور لها، لا سيَّما وقد وجد أن كل ما كان يفيض من مأوى داخل المملكة أثناء الحرب سكنته الحوريات. زامت أفرودينا وكأنها لم يعجبها قوله إلا أنني تجاوزت اعتراضها وواصلت الاستماع لحديثه،

أضاف أنه فوق هذا الهرج فإن المملكة بحالة جفاف من المؤونة بسبب الحصار الذي كان مضروبًا عليها، كما أن تجار آربوس الجنوبية الذين اعتادوا التردد علينا قبل الحرب لم يبتدروا العودة بعد، وما زاد الأمر سوءًا هو هذا التدفق الذي حدث.

أخبرته أن يُتمم عمله بالتسكين في الخيام مستعينًا بالجند ليُجعل الأمر إلزاميًا، بأن تنصب الخيام بواسطة فرقنا وفقًا لنظام معين سواء في ذلك كانت خيامًا مملوكة لأصحابها أو بحوزتنا، قبل أن يجري التسكين فيها وفقًا لأوامر الجند وليس بتلك الفوضى، على أن يحبس من يخالف تلك القواعد التنظيمية، ثم أمرت كبير البنائين بأن يبتدروا عمله من اليوم في سائر المتخللات والفراغات داخل المناطق السكنية بالمملكة.

لزمّت الصمت للحظاتٍ ثم أوعزت للجميع أنني منذ الآن سأبدأ في إرساء بعض القواعد الجديدة التي تخص المعاملات والتعايش داخل المملكة، أخبرتهم أننا سنصك عملة لنا تجري عليها المعاملات كما يجري بالمملكتين الأخريتين، من بعدها سنبدأ في إحلال العمل الخاص للأفراد محل العمل الجماعي باسم المملكة، بأن يوزع القدر الأكبر من الماشية على الرعاة، بمعنى ألا يكونوا عاملين لدي المملكة،



بل يعملون لحسابهم الخاص مع تسديد أثمانها عبر أقساط شهرية يتحصلون عليها من نتاج ماشيتهم، وبعد تمام السداد تُفرض عليهم ضريبة سنوية، كذلك الحال بالنسبة للفلاحين في الأراضي التي كنا زرعناها خارج الأسوار، توزع عليهم أغلبية تلك الأراضي، ويسددون أقساطًا موسمية، ثم ضريبة بعد تمام الأقساط، كما أن الصيادين سيعمل كل منهم لحسابه بديلاً عن توريد ما يصيد وحسب، يأتي برزقه نحو سوق المملكة فيبيع ويشترى، كذلك الحال بالنسبة للحدادين والبنائين والحائكين وصناع شباك الصيد والمراكب وغيرها، على أن تحتفظ المملكة بقدرٍ من العمال من كل الفئات لزراعة الأراضي التي ستظل في الملكية العامة، ورعاية الماشية التي ستبقى تحت نفس الملكية، ولصناعة ملابس الجنود وأسلحتهم أو لبناء الأسوار والثكنات وغيرها من سائر الشؤون العامة، فيصيرون موظفين بالدولة يأخذون أجورهم منها، كما شددت على ضرورة عودة الصغار إلى دار التعليم مع توسعتها لتواكب التدفق الذي حدث من سائر القبائل.

شرحت لهم أنه حان وقت التحول من طريقة الأسرة إلى نهج المجتمع الذي ينتوي الاستمرار والتمدد والانصهار في الممالك من حولنا، كما لا بُدَّ وأن ينشط لدينا تجار يأخذون ما يفيض عن حاجة المملكة نحو أسواق آربوس الجنوبية ليبيعوا ويشترىوا، وأن يكون اجتهاد كل فردٍ معيارًا لتحصيله؛

ألا يتساوى الخامل المتكاسل مع الجاد الدؤوب، ولأجل ذلك أوكلت إلى يزن أن يؤسس دارًا لتصير كبيت لمال المملكة، يُعين فيها بعضًا ممن يتوسم فيهم الكفاءة لإدارة ما سنستبقيه من أملاك، إلى جانب تنظيم أمر تحصيل الضريبة، وتسعير السلع الأساسية، وتوزيع العملة، فضلًا عن رعاية المعوزين من كبار السن والأرامل والأيتام ممن فقدوا عائلتهم، كذا إصدار صكوكًا للهوية نسميها صك مواطن مملكة الوافدين.

أخبرتهم أن ذلك سيصير ملائمًا للمرحلة الجديدة، كما أنه سيبعث برسالةٍ إلى كافة بر آربوس أن هناك مملكة حقيقية وليست جماعة تحتمي بالأسوار، كما سيزيد تدفق سائر الوافدين الموجودين بالمملكتين الأخريتين إلينا، هذا قبلما أنتقل إلى الحديث عن قلعة سرايوس. طلبتُ إرسال متلصحين لتقصي أخبار غولار، مؤكدًا على أن هذه القرية ستظل لأمد منشغلة بإعادة بناء أسوارها التي تهدمت وقتما استردوها منا، لذا علينا المسارعة من الآن إلى إعادة بناء وترميم أسوار قلعة سرايوس، لأنهم سيخشون الهجوم علينا قبل اكتمال أسوارهم مخافةً أن نرد لهم الصاع صاعين، وبذات التوقيت أمرتُ بعودة نصب الراجمات على حواف سلسلة الجبال سواء الشمالية أو الجنوبية كي نصبح على أهبة استعداداتنا السابقة قبل ما حدث من خيانة وحصار،

مع عودة جامعي مواد البارود إلى عملهم كي نزيد مرة أخرى من مخزوننا. رتبت الأمر مع قادة الجند على كافة جوانبه ثم انصرفنا جميعًا كلاً إلى شأنه.

مر من بعد اجتماعنا بضعة عشر يومًا، استقر فيهم الأمر داخل المملكة بقدرٍ كبير: تم تسكين سائر المتدققين لدى الخيام، كما قطعنا شوطًا في بناء المساكن الجديدة، وجرى إشغال بعضها، كذلك انتهى يزن من إنشاء بيت المال، لكن الإنجاز الأكبر كان استرداد قلعة سرايوس وتقوية أسوارها وانتظام خدمة فرق الجند فيها، لذلك بليلة تمام الاسترداد احتفلنا في المملكة بهذا الحدث وكأنا أنشأنا القلعة من جديد، لتمر ثلاثة ليال بعد هذا الاحتفال، ثم تأتينا الأنباء الجديدة مع عودة متلصصينا.

عرفنا أن ميرا بسجن دار السلاح برانتاز مع حراسةٍ مشددة لا تبارحها مما يجعل أمر الرسالة عسيرًا للغاية، كما علمنا أخبار الزواج المزمع بين إسراء ومالك بليلة اكتمال القمر القادمة. أبلغونا أيضًا أن رانتاز بعثت بردها إلى المملكة الأم وهو الرفض القاطع للانقلاب الذي حدث على شرعية حكم الملك جاد، ووصاية الملكة مارينا على الملك، أيَّدتها في ذلك إمارة قسطا، مشددين في ردهم على حتمية رجوع جاد إلى مقر حكمه بالمملكة الأم عقب معاقبة المنقلبين

عليه بتسليمهم إلى مقر الحكم الحالي برانتاز، على رأسهم قائد الجند حارث المعتاض، ووزير المملكة السابق حكيم بن زيادة، وإلا سثعلن الإماراتان استقلالهما عن مملكة آربوس الشمالية، لتكوين ما يُدعى مملكة آربوس الوسطى، وملكها الملك الشرعي جاد بن زايد، ثم أضافوا أنهم لا يريدون اقتتالاً على الأرض في ظل القلاقل المشتعلة ببر آربوس، فإما رجوع الملك وتسليم قادة الانقلاب أو يصبح كلُّ في شأنه.

بليتها عدتُ إلى شرفتي وبقلبي غصة انقسمت عليهما، ميرا وإسراء، الأولى من سجنٍ إلى سجنٍ تنتقل، ومن ظلامٍ إلى ظلامٍ تساق، تنتظر قبس النور مئًا، تأمل أن تأتي الساعة التي نفعز إليها ونحررها، فيما تمر الليالي ونحن ها هنا عاجزون، أما الثانية فكما السابق، وافقت مرغمة على تلك الزيجة بعدما دارت الخطوب من حولها، ليصبح تحريرها من هذه الأرض كلها أكثر تعقيدًا، ويصير التزامي نحوها دربًا من المستحيل.

قاطع أفكارى قدوم أفرودينا، جلست إلى جوارى ناظرة نحو البحر ثم ابتدرت حديثها قائلة:

- هب أنها ولدت بهذه الأرض، فقدومها إلى هنا كان ميلادًا جديدًا، لا سيِّما بعدما أفقدوها ذاكرتها، ثم أنجبت وصار

ابنها هو أولى ما تهتم لشأنه. إن كل ما تتعلق به بشأن عالمها الحقيقي هو أنت وحدك، لو أعدموك بيوم الساحة كانت سأكمل حياتها دونك، مثلما ستكملها إن رحلت.

- لكني كنت سببًا في قدومها إلى هنا.

- ومن كان سببًا في قدومك؟

- أم إسماعيل.

- ومن كان سببًا في قدوم أم إسماعيل؟

- غرق ولدها.

- وما سبب غرق ولدها؟

- طلبه للرزق.

- هي أسباب عديدة فوق بعضها. لم لا تقول أن سبب قدوم إسرائ إلى هنا هو أنها جاءت إلى فنار البزلس القديم؟ طلبها للرزق جلبها إلى ذاك المكان، من ثمّ جيء بها إلى آربوس. لم لا تفترض أنك لو لم تكن موجودًا لربما قابلت إسرائ أم إسماعيل وتعاطفت معها وأدارت لها الفنار ليأتيان وحدهما؟ أنت حلقة صغيرة للغاية وسط سلسلة كبيرة للحلقات يدور فيها القدر، أنت نفسك لا تملك تغيير ما حدث وما يحدث وما سيحدث، فقط تحاول. أنت لم تنج بيوم الساحة بفضل فعلك

أو قتالك، بل هبّ لنجدتك من أحبوك كما حكيت، تضافرت حلقات صغيرة من حلقات القدر لتنجو وتواصل، مثل سائر حياتك هنا أو بأرضك الأصلية.

نظرت نحوها مستغربًا من حكمتها، فالتفتت نحوي مبتسمة:

- إن عمري مثل عمرك عدة مرات، لنا بالبحر حياة، وللقدر فيها أحكامه.

عدت بوجهي نحو البحر مستأنفًا:

- لكني سأواصل المحاولة.

- فيم ستحاول؟

- تحريرها، ثم أعرض عليها أن أعيدها إلى أرضها.

- هذه الآن أرضها، لها ابن ترعرع فيها وسيصير لها زوج قد تنجب منه المزيد. دع عنك أمر مارينا، هي لن تغادر هذه الأرض، فقد التفتت من حولها آلاف الخيوط، حتى وإن رغبت، من حولها سيمنعون ذلك ليتمسكوا بما قد يكتسبون من وجودها، مثل حاكم رانتاز الذي يزوجها ابنه ويقينًا ينتظر مولودًا جديدًا منها.

صمتت لحظات ثم استأنفت:

- أما ميرا فهي الأخرى لن تغادر هذه الأرض، جُل ما يمكنك أن تصنع من أجلها هو أن تجعلها ملكة على مملكة الوافدين قبل مغادرتنا لآربوس، وتكون قد رددت لها دينك أضعافًا. التفت الآن إلى نفسك، أنت ملك هذه الأرض وكل من فيها صار يخشاك، ملك بعقلك وتقدمك عليهم بفكرك، ملك بأنك استطعت أن تبلغنا وتستدعينا، ملك نهض من تحت التراب فصنع مملكة حقيقية تناهض الممالك، ملك سيُخلد اسمه مثل زهير، لكني أعلم أنك لا يعنيك كل هذا الملك، وما تبتغيه هو أن تعود إلى أرضك لتعيش فيها دون مسؤولية، دون تبعات، وتتناسى كل تلك الحقبة التي عشتها هنا.

التفتت نحوِي فالتفتُ لها قبل أن تخفض صوتها هامسةً فيما نظرت نحو عينيّ بامعان:

- لكن اعلم أنني يمكنني المواصلة معك بأرضك الحقيقية مثلما أعيش معك ها هنا، لذا أعد حساباتك.

قامت مبتسمة بشيءٍ من الدلال، قبل أن تخرج نحو غرفتها وتتركني أتابع تقليب الأفكار برأسي حتى همدت ولجأت إلى فراشي بعد ساعة.

توالت من بعدها الأيام تترًا، اعتادت فيهن أفرودينا أن تظل إلى جوارِي نهارًا لتساعد في تنظيم شؤون المملكة، ما خص منها القواعد التنظيمية والحياتية التي قررت العمل



عليها، وما خص أيضًا أمر الجند مثل تجميع من يصلح للقتال وتنظيمهم وإحاقهم بالأفرع المختلفة بين رماة وفرسان ومشاة، بينما أبعدها عن معرفة أسرار خلط البارود ونسبِهِ، تركت الأمر مقصورًا عليّ ويزن وخمسة آخرين ممن وثق فيهم ولم يتغيروا أثناء فتنة الحصار، فيما لاحظت أنها لبثت لا تأمر أو تمارس مهام سلطة في حضرتي، بل تعطي المشورة بأسلوب تابع وليس شريكًا في القيادة، وما إن ينتهي النهار تعود إلى المنزل لتقوم بشؤونه على أكمل وجه، قبل أن نجلس سويًا بالشرفة ليلاً، نتناقش فيما أتمناه وفي سائر شؤون المملكة، قبل أن تبتدر في قص حكاياتٍ عن عالمها، ورويدًا رويدًا تجتذني للحديث عن حياتي السابقة إلى أن أشعر بالنعاس، حيث لم تعد تغادر إلى مبيتها وتتركني مثلما اعتادت بأيامها الأولى معي. استمر الحال على ذلك حتى صرنا باليوم العاشر من الشهر القمري أي قبل موعد الزيجة بأربعة أيام، عرفنا أن رانتاز وقسطا أعلننا الاستقلال عن آربوس الشمالية مؤسسين ما أسمياه "آربوس الوسطى" بعدما فشلت سائر محاولات التراضي بينهما، بينما أعلننا أن الزيجة في موعدها، وأن الاحتفال بها سيبدأ من الليلة التالية، ولمدة ثلاث ليالٍ حتى تتم الزيجة بليلة اكتمال القمر، لتمر تلك الليالي متباطئات، ونعرف خلالهن أن آربوس الشمالية وأهلها أنكروا ذلك الاستقلال وتلك الزيجة، في حين

بدأت الاحتفالات بقسطا ورائتان، أما عندنا بالمملكة فبدأ الخلق منقسمين، بعضهم يرى أن هذه الأخبار ستُعجل استتار الحرب بين آربوس الوسطى وآربوس الشمالية، والبعض الآخر يرون أن ما حدث وإن أدى إلى تفتت قوة آربوس الشمالية إلا أنهما لن يتحاربا، لا سيَّما مع خوفهما من مملكتنا الفتية، بل ذهب البعض إلى أنهما قد يتوحدا في حربٍ واحدة ضدنا حتى وإن أصبحا مملكتين مختلفتين.

أما أنا فبقيت أترقب القمر بكل ليلة من خلال شرفتي، لا أعرف لمَ تمنيت ألا يكتمل، وكلما مرت ليلة من الليالي الثلاث ازداد شرودي أثناء جلوسنا أنا وأفرودينا؛ لم أعد أحكي كعادتي أو بالأحرى لم أستمع أيضًا وإن بدوث منصتًا، حتى جاءت تلك الليلة، بقيت طوالها صامتًا، في حين أخذت عواصف ذكرياتي مع إسراء تضربني، ويلوح وسط الأحداث وجه ميرا.

ليلتها قامت أفرودينا وتركتني وحدي على غير عاداتها، فبقيت على حالي أرى سنينَ قطعتها هنا في وجه القمر، أتمنى أن أتمم مهمتي، أن أجد ميرا وأن أحرر إسراء ثم أذهب، لم أعد أتخيل أن أكمل عمري في هذه البقعة، لم أعد أرغب في كل تلك المسؤوليات فوق كتفي، أشعر كأنني أحلم وأتمنى أن أفيق لأعود لقريتي الصغيرة، أعود طفلًا صغيرًا

لاهياً، حتى قطع تأملاتي صوت خطواتٍ هادئة، التفثُ فإذ  
بأفرودينا تقترب حتى جلست على قدمي، هالتي فعلتها إلا  
أنني لم أستطع الحركة. بدت فاتنة أكثر من أي وقتٍ سبق،  
مرتدية قميصًا من الكتان الأبيض وحده، بعدما خلعت ثيابها  
المعدنية الفوقية، فيما ظل زيلها المعقود في محله. مدت  
يدها تداعب خصلات شعري ثم قالت:

- أنا زوجتك وفقًا لعهدك، دعني أروح عنك في هذه الليلة.  
- لكني...

وضعت سبابتها على شفتي ثم همست بأذني:

- سيكون طفلاً مميّزًا وأنا أريده، حتى وإن تركتنا فيما بعد.

# آربوس الوسطى

مالك

احترق قلبي شوقًا بينما مرت الليالي زاحفات إلى أن حلت ليلة الزفاف، أتممنا طقوس الزواج بمعبد روح آربوس العظيم أكبر معابد الأرض، فيما أحاطت فرق الجند كل المنطقة خارج سور رانتاز الجنوبي، من عند المعبد الواقع لدى ضفة نهر جودي خلف أسوار إمارتنا حتى بوابة سورنا الجنوبي المقابلة له، كما انتشروا أيضًا عند سدة الجسر الذي يمر إلى آربوس الجنوبية بالقرب من المعبد. بدت المشاعل تضيء المحيط برمته كأننا صرنا نهارًا، وتجمهر الخلق على جانبي الطريق من المعبد إلى بوابة السور تاركين ممرًا ضيقًا لمرورنا على عربة زفافنا التي جرتها ست مهرات بيضاء، في حين تبعتها عدة عربات حملت أبي وأمي وأخواتي، حاكم قسطا وأبناؤه، وكبار مستشاري رانتاز وقسطا، ليقطع موكب الزفاف هذا الدرب خارج إمارتنا قبل أن يكمل داخلها عبر طريقها الرئيسي وسط حشودٍ أكبر تناوبت على إلقاء الورد علينا.

لم أشعر بكل تلك الطقوس، بل مرت أمام عيني كمن يحلم ويخشى أن يفيق، في حين لبثت مركزًا نظري على وجه مارينا طوال الوقت، ممسكًا يدها بقوة كأنما أتحرز أن تضيع

مني، إلى أن اجتمعنا بالأخير وحدنا لدى غرفتنا الملكية بقصر أبي الذي صار مقرًا لحكم مملكة آربوس الوسطى. لم يعنني بتلك اللحظة كل هذه المسميات ولا تغير الحدود والإمارات، لم تشغل تفكيري حربٌ أوشكت، ولا أعداء متربصين، بل وقفتُ أمامها ممسكًا كتفيها برفقٍ متأملًا وجهها بامعان، لأتملى في عينين اتسعتا يغرق فيهما الرائي، وشامة على خدها الأيمن أسرتني مذ أبصرتها أول مرة، وسط وجهٍ استدار كأنها حورية أتت من السماء وليس من البحر.

اقتربتُ بشفتي مقبلًا جبهتها قبلما أضمها إلى صدري، لكن ما استوقفني أنني أحسست نحيبها، توقفت عن فعلي متلجلجًا، أخذتها برفقٍ إلى طرف مخدعنا، أجلستها إلى جوارِي سائلًا عما أبكاها، فأجابت بأنها أول ليلة تبيتها دون صغيرها جاد؛ ابتسمت مهوّنًا من الأمر مؤكدًا أن غرفته هي نفس غرفتها القديمة إلى جوار غرفتنا، كما أن زهرة تبيت إلى جانبه لتروح عنه، وبالأخير أخبرتها أنها إن أرادت أن تذهب لتطمئن عليه في أي وقتٍ من الليل فلا غضاضة، وإن ابتغت ألا تأتي غرفتنا إلا بعد استغراقه بالنوم كل ليلة فلن أبتئس جراء ذلك. أشارت برأسها موافقة، وابتسمت لأشعر أن قلبي انخلع من مكانه أمام ابتسامتها الخجولة.

عندها أمسكت ذقنها ولففتُ وجهها ناحيتي قائلاً:

- أنتِ ملكة قلبي قبل أن تكوني ملكة هذه المملكة، أنتِ نصف روحي ووجهة عشقي ودبيب صدري، أعدك ألا أخذك يوماً، أن أظل لك درعًا وسيقًا، سندًا وأمانًا، حبيبًا مخلصًا لا تُغيّره الخطوب ولا الأيام المتقلبات.

لانت لي من بعدها، إلا أنني أحسسته ليثًا لم يخلُ من غصة، اعتبرت أن هذا لأجل ولدها وقضيت معها أول ليالي عمري الجديد محاولاً تجاوز الأمر، لأقوم صباحًا ولا أجدها إلى جوارِي. أدركت أنها ذهبت نحو جاد، قدّرت ذلك مبتسمًا، ثم ارتديت ملابسِي ونزلت إلى أبي بمجلسه، أحسن استقبالي وهنأني على زفافي قبل أن يأمر بانصراف من كانوا معه من مستشارين، الذين ما إن غادروا حتى أخذني وجلسنا على كرسيين متجاورين من مقاعد الصف الأيمن للمجلس.

بش وجهه أثناء حديثنا الودي، لكنه لمّح بشيءٍ من العتاب إلى كوني انشغلت طوال الأيام السابقات بشؤون زفافي وانقطعت عن كل ما هو جديد من خطوب، بينما ضمّن حديثه بعض نصيحة غير مباشرة بألا أجعل أمر الزواج -مهما عظم أمره- أن يشغلني عن شؤون الحكم والإمارة، من ثمّ انتقل سريعًا إلى أنباء القلاقل من حولنا، أبلغني أن الأخبار جاءت عن مشاورات تجري بين قادة مملكة آربوس

الشمالية وحكام إمارات زورين وغولار وكيبول ليعقدوا أمرهم بخصوص شن الحرب علينا وحصارنا، وأنهم انتووا ألا يظل كل طرف في جانبه وحسب، لذا استبق تحركهم وبعث خطابًا باسم ملكنا جاد ملك آربوس الوسطى إلى ملك آربوس الجنوبية، طلب فيه عقد معاهدة سلام معه حتى يُحيّده ويأمن جانبه، متأملًا أن يأتي رده بالموافقة حتى وإن اشترط أن يأخذ هدية سنوية في المقابل.

من بعد هذا اللقاء المُثقل بالعتاب مرت عدة ليالٍ لبثت أجاهد فيها كي أستطيع الاهتمام ولو قليلًا بشأن الحكم، فقد كنت مفتونًا برفقة مارينا طوال الوقت، سواء مكثنا في القصر سويًا أو خرجنا للتنزه بعيدًا عنه، إلا أنني فضّلت كثيرًا هروبنا من القصر بهذه الأيام، لنبتعد عما يعج به من اجتماعات ونقاشات وقلقل. لم أكن أنا الأمير مالك من لا يُفوّت كبيرة أو صغيرة بشأن رانتاز إلا ويتصدر لها، بل المحب مالك الذي يهفو إلى الابتعاد بأميرته ليتغزل فيها. صرث أخذها إلى ضفة نهر جودي لنجلس على شاطئه بساعة الغروب، أو أصطحبها نحو الغابة المحاذية للنهر نركض خلف الأيل بمنتصف النهار، أمر بها على حقول الفاكهة وتفرعات النهر الصغيرة التي تروبيها، أو نخرج على حقول الكتان والقمح في موسم حصادها، وبين كل ذلك نمازح أهل الإمارة من المزارعين والصيادين وسائر السكان بكافة أطيافهم أثناء



مرورنا بداخل رانتاز أو خارج أسوارها، بينما بدأت أشعر أن الحياة أخذت تطيب إلى مارينا في جوارى وبصحبتى. يقيئًا لم يكتمل رضاها بالحال كله في خلال هذه الأيام المعدودات، لكنى بقيت مؤقتًا أنها مع مرور الوقت ستنسى كل ما كان من سالف أمرها وتذوب تلك الغصة الصغيرة التي لبثت تعلق بحلقها، لا سيَّما أننى أحسست أنها أوكلت لي شأن الحُكم باسم جاد، ألقته على عاتقى وتحررت منه، وكلما حاولت أن أخبرها بشأن التغيرات والأخبار ترد بأنها تركت شأن هذه الأمور لي ولوالدي، مع التأكيد على أن يكون الحكم والمراسلات دومًا باسم الملك الصغير جاد بن زايد.

في حين حاول أبي مرارًا أن يجتذبنى من فتنتي وابتعادي عن أعمال القصر، إلا أننى لبثت على حالي طوال تلك الأيام، أختلق له الحجج تارة، وأهرب من الالتقاء به تارة أخرى، أو أراضيه بالرضوخ والاستماع قليلًا قبلما أعاود نحو مارينا مشتاقًا لقربها، فيما تحاول أُمى تطيب خاطره والدفاع عني بأننى لا بُدَّ وأن أقضي أول أيام زواجي في حبور.

ذلك قبلما يصلنا رد ملك الجنوب على خطابنا، يومها أصر أبي على عدم خروجي من القصر، وأن أحضر نقاشات هذا اليوم. عرفت أن ملك الجنوب قد وافق على عهدنا في مقابل أن ندفع له هدية سنوية قدرها ألف قطعة ذهبية، وإن ابتغينا

عون جنده في حربنا ضد آربوس الشمالية فلن يعارض، لكن مقابل هدية مثلها عن كل حربٍ يشارك فيها بخمسة آلاف من جنده، بالأخير ذئب رده بأمرٍ مبهم، حيث قال إن بين أيدينا ما هو أشد بأسًا من جنوده، وهو أننا نملك من بقدرتها استدعاء ما أسماهم الذكران، إلا أن استدعاءهم لن يمر إلا من خلاله، من ثمّ ختم خطابه بالديباجة المعتادة.

ابتهج أبي لموافقته على المعاهدة، بيد أنه لم تعتره الغبطة لأمر الجند، أول ما دار بخلده أن هؤلاء الجنود إن بُعثوا لنا ذات حرب فلن تكون مهمتهم الأساسية عوننا، بل متلصصون يأتون لمعرفة ثغراتنا ونقاط ضعفنا، إلا أنه لم يرفض الأمر رفضًا قاطعًا، لا سيّما أن أمر المساعدة بالجنود مقرونًا بطلبنا ذلك، لذا ترك الأمر إلى حينه، في حين لم يشغل رأسه بهذا اللغز الذي تذيّل به الرد، بل ركز على الجلي وحسب، أما عني فقد شغلني ذاك اللغز أكثر من خطابه كله، أحسست أنه يُلمح إلى مارينا، لم يجدّ علينا ها هنا سواها، لكنني لم أتحدث في الأمر، ولم أفاتح فيه أبي حتى يظل أمرًا مبهمًا، متمنيًا ألا نحتاج إلى تأويله فيما بعد.

تسارعت الأحداث من بعدها مع تسارع الأيام إلى حدٍ أخذني من أيامي المشرقات برفقة مارينا، إلى أن بلغنا الحدث الأكبر، وهو خروج قوات من زورين ومن كيبول

إلى المملكة الأم لآربوس الشمالية. تيقنا أنهم سيتجمعون هناك ليبدأوا التحرك نحونا عبر ممرات التلال التي تفصل تلك المملكة الأم عن رانتاز وسائر خط القرى. تشاورنا في الأمر لدينا ما بين التحرك خارج أسوار إمارتنا نحو منافذ التلال في جانبنا، أو التحصن داخل الأسوار، لكن استبعد الأغلبية فكرة التحصن لأن هذه القوات المهاجمة ما إن تعبر التلال ثم تفيض إلى المنطقة الرملية المستوية بناحيتنا، سيجدون ساحةً مهيأة لتجمعهم وتنظيمهم بعدما مروا عبر دروب ضيقات، إلى جانب أنه بعد تلك المنطقة تقع حقول رانتاز الشمالية وأراضيها الخصبة خارج أسوارنا، إن بلغوها سيستولون عليها أو يخربونها، كما سيصير بإمكانهم التوغل للحقول الشرقية والغربية، فيما تبقى محصورين داخل الأسوار، وإن كان موسم الحصاد انتهى أو أوشك على النهاية فإن تجريف الأرض وإهلاكها سيعود بالضرر علينا.

لذا استقر الأمر لدينا على وجوب خروجنا نحو المنطقة الرملية المستوية أمام منافذ التلال بجانبنا، ذلك لنهيئ فرقنا وننظمها، بحيث نحصل على أفضلية الموقع والتنظيم، ونواجه القوات المهاجمة أثناء اندفاعهم من الممرات متفرقين مشتتين، إلا أننا وضعنا بالحسبان ألا نخرج بجندنا إلا بعدما نتيقن من تحرك قوات الشمال إلى داخل الممرات، كي نعطي لهم إيحاءً إن أرسلوا مستكشفين قبل تحركهم،

بأننا سندافع من خلف الأسوار، ثم نفاجئهم بوجودنا في المنطقة المستوية أثناء تحركهم داخل الممرات، الذي سيستغرق ساعات نكون خلالها نظمنا صفوفنا.

أوعزنا لقادة فرقنا بخطة القتال، حيث قمنا أولاً بنصب بعض راجمة صخور بالحقول الزراعية متواريات وسط الأشجار، أعدنا قذائفها على أن تسقط عند منافذ الممرات، بينما اتفقنا على أن يكون الفرسان المدرعون بدروع كاملة بأول المنطقة المستوية في مقدمة الجيش أمام المنافذ، يليهم الفرسان المدرعين بدروع خفيفة محمولة باليد، من بعدهم يتراص المشاة، في حين يبقى الرماة على اليمين والميسرة، حتى إذا ما بلغت القوات المهاجمة، نبدأ برمي السهام وضرب الراجمات، إلى جانب أننا عهدنا لبعض رماتنا بالانتشار أعلى مقدمة التلال في مواجهتنا مباشرة، لنمنع رماتهم من اعتلائها وكشف قواتنا. أتمنا كل ذلك فيما لم نستدع أية قوات من قسطا تحسباً لأن يكون هناك شرك نصب لها، لا سيّما أن قواتها ليست مثل قوات رانتاز، حتى وإن كانت أسوارها كأسوارنا، كما عهدنا لحرس بواباتنا بإغلاقها ما إن تخرج فرق جنودنا للحرب مع انتظام رماة الأسوار في مواقعهم.

أخذنا من بعدها نترقب نغير قوات المملكة الشمالية، إلى

أن تحركوا عند منتصف نهار اليوم التاسع من الشهر القمري التالي لزفافي، عندها سارعت قواتنا لتتخذ مواضعها. ارتفع غبار جلبتنا حتى اكتمل استواء صفوفنا في المنطقة الرملية المستوية قبل الغروب بقدر ساعة، تلمع دروع فرساننا المدرعين بالكامل، وينتظم بقية الجيش في لباسنا البني المميز لجنود رانتاز، ثم بقينا متأهبين في انتظار وصولهم، يصرخ القادة في الجند بين الحين والآخر بالثبات، ليتردد زئير الجند بالإخلاص لرائتاز يهز صخور التلال، إلى أن تسلل علينا الليل فقمنا بإيقاد المشاعل في مواضع محددة سلفًا، حتى صارت المنطقة المستوية كلها مضاءة بأنوار حمراء.

ما لم نحسب حسابه أنه قبلما تصل قواتهم من الفرسان أو المشاة، وعند منتصف الليل تحديدًا باغتونا بأن وجدنا رماتهم قد تسللوا خفية وبكثافة كبيرة فوق قمم التلال، لم يكونوا مرتدين زي جنود آربوس الشمالية الأبيض، بل أدركنا أنهم تخفوا في ملابس سوداء، ودون مشاعل، حتى استطاعوا إسقاط رماتنا القلائل الذين كانوا رابضين فوق مقدمة التلال، واستقروا مكانهم قبل أن يبدأوا في استهداف قواتنا بوابلٍ كثيف من سهامهم على أضواء مشاعلنا، كأنه تمهيد وتوطئة لوصول سائر جندهم. صمدنا في مواجعتهم بفضل دروع فرسان المقدمة، وبادلناهم الرمي بواسطة رماتنا الرابضين على الميمنة والميسرة، في حين أمرنا بتسلل بعض

المشاة إلى تلك المواقع كي يشتبكوا معهم، بيد أنه قبلما يصلهم مشاتنا وجدنا رماتهم انسحبوا حين بلغتنا قوات فرسانهم المدرعين بدروع كاملة.

بدوا متفرقين في تشكيلاتٍ صغيرة تضيئها بضعة مشاعل داخل منافذ ممرات التلال المتباعدة، إلا أنهم توقفوا عند آخر الممرات ولم يندفعوا لملاقاتنا داخل المنطقة المستوية. أمرنا بإطلاق الراجمات عبر بوق نفيورها، فدارت أذرعها وانطلقت قذائفها تصيب الممرات، لكن تمركزهم بهذه البقع إلى جانب دروعهم الصلبة حماهم من صخور الرجم بقدرٍ كبير، لذا أطلقنا بوق تقدم قواتنا، ليندفع فرساننا المدرعون بالكامل ويواجهونهم عند سائر المنافذ.

قابلونا بشراسةٍ وتنظيم كأنهم وضعوا بصفوفهم الأولى أشد فرسانهم، وما إن تجاوزوا صدمة الالتحام وتمسكوا بثباتهم خلالها، أخذوا من بعدها يحاولون اختراق تنظيم صفوفنا، بدا أن تفرقهم في تشكيلاتٍ صغيرة عند سائر المنافذ كأنه ميزة لهم، حيث اتضح أنه من المستحيل أن نستطيع اختراقهم، فيما حاولوا هم ذلك، إلا أننا صمدنا حتى مر قدر أربع ساعات من الاقتتال العنيف والضغط والتراخي وضربات الحراب والسيوف، حتى أوشكت الشمس على البزوغ. لم يسقط خلال تلك المدة العديد من القتلى

لدى أيٍّ من الطرفين، لكنهم لمَّا لم يفلحوا في اختراقنا أخذوا يتراجعون منسحبين؛ علت صيحات جنودنا بالتهليل والنصر، واتخذ قائد الجند لدينا قراره بتعقبهم عبر ممرات التلال أثناء انسحابهم، من ثمَّ أطلق بوق تقدم فرق الفرسان المدرعين بدروعٍ كاملة.

كنتُ أقف وقتها إلى جواره أمام خيمة القيادة بمؤخرة الجيش، بدا مزهواً بنصرنا مؤكداً أن جنود آربوس الشمالية جاؤونا ظانين أننا سنتنظرهم داخل الأسوار، أنهم أرادوا حصارنا وإطالة أمد الحصار حتى نستسلم لهم، لكن وجدونا بنياناً مرصوفاً يسد عنان السماء. أكد لي أيضاً على رغبته في أسر أي من هذه القوات ولو عدد محدود من الفرسان حتى يصير ذلك علامة على تفوقنا وورقة للتفاوض فيما بعد، بيد أنني لبثت أشعر أن بالأمر خطأ ما، فأنا أعرف حارث المعتاض، لن ينسحب بتلك السرعة ويكشف ظهر جيشه، إلا إن كان بجعبته أمر يخطط له، لكني لم أعترض على قرار التعقب، فملاحقة المنسحبين والأسر منهم هو الانتصار الأكبر في هذه الحالة، وإلا فلن تُقيّد تلك الملاقاة في سجل انتصاراتنا، إلا أنني تكلمت مع قائد الجند بأن يقتصر التعقب على فرساننا المدرعين بدروعٍ كاملة وخدمهم، وألا يطول الأمر حتى يصلوا منافذ التلال في ناحية المملكة الأم.



في ذلك الوقت كان فرساننا المدرعون بدروعٍ كاملةٍ قد تحركوا جميعًا داخل ممرات التلال، فيما لبث أصحاب الدروع الخفيفة -الذين لم يكونوا قد اشتركوا في أي قتال طوال الليل- يقفون متأهبين، في انتظار أمر قائد الجند عبر بوق تحركهم، فإذا به يحاول استئذاني ليأمر بإطلاق نفيِر هجومهم مرتئيًا أن نستبقي المشاة والرماة وحدهم، ذاك مع أول بزوغ لتباشير الشمس الصفراء قبل ظهورها بالأفق عند المشرق، عندها أحسست بانقباضٍ في صدري وحيرة في أمري، لكن غلب على تفكيري عدم المجازفة بكل الجيش في التعقب بين أحراش التلال ولا حتى المجازفة بالفرسان الخفاف، لذا واجهت إلحاحه برفضٍ قاطع، وبديلًا عن إطلاق بوق تحركهم أمرت بإطلاق بوق الربوض والانتظار، ليمر قدر ساعة واحدة وينجلي سر قلقي وسلامة فراستي، فما إن بزغت الشمس في الأفق جاء من يصرخ من خلفنا عبر حقول رانتاز الشمالية، مخبرًا بأن هناك قوات ضخمة تحركت من زورين بكثافة كبيرة أثناء الليل متوارين بين أشجار الغابات وممراتها، حتى وصلوا أسوار رانتاز من الناحية الغربية، وأنهم يلتفون حول سائر الأسوار، فيما تقدم قدر كبير منهم نحونا ها هنا بالمنطقة المستوية ليطوقوا مؤخرة جيشنا.

صرنا وقتها في حيرةٍ من أمرنا، فرساننا المدرعون بدروع كاملة دخلوا إلى ممرات التلال يطاردون أعقاب آربوس

الشمالية، الذين من المؤكد كانوا مجرد أداة إلهاء لنا لنأتيها هنا نلاقبهم، ثم ينسحبوا أمامنا لتتعبهم بكل جيشنا، قبل أن يبزغ الجيش الحقيقي الذي يغزونا قادمًا من أحراش زورين. لولا معرفتي بحارث وانجلاء فراستي لاندفع الفرسان الخفاف والمشاة والرماة أيضًا ليطاردوا السراب، من ثمّ تحاصرنا قوات الشمال من الجانبين داخل التلال، وبنفس الوقت يطوقون سائر أسوار رانتاز، لكني تداركت الأمر على شفا الهاوية، إلا أن قواتنا الباقية بدوا في وضع معكوس بالنسبة لمن يهاجمونا من ناحية أسوارنا، لذا أمرت بتقدم الفرسان الخفاف إلى مقدمة الجيش في ناحية الحقول، ليبقى خلفهم المشاة ناحية منافذ التلال، كما استدار الرماة في مواضعهم ليصير وجه جيشنا باتجاه رانتاز، في حين بعثنا من يلحق بفرساننا المدرعين ليأمرهم بتوقف الملاحقة والرجوع لساحة المنطقة المستوية.

مر قدر دقائق معدودات ووجدنا جيشًا من الفرسان المدرعين بدروع كاملة يحملون أعلام آربوس الشمالية ويخترقون الحقول على خيلهم التي درّعوا قوائمها الأمامية وصدورها ورؤوسها، جاؤوا يقصدون تمرکزنا بشراسةٍ ونهم. من أول وهلة أدركت أنها معركة خاسرة لنا؛ لن يصمد فرساننا الخفاف طويلاً أمام هذا الجند الكثيف المدجج، ولن يلحق بنا فرساننا المدرعون قبل قدر ساعتين؛ ارتأيت حتمية

انسحاب الرماة والمشاة أثناء المعركة بطريقة غير ملحوظة نحو المملكة كي تُبقي على عزمها ونقاوم من يحاصروها، بينما يبقى الفرسان الخفاف ليحاولوا الصمود في وجه هذا الجيش من المدرعين لأطول أمد، إلى أن ينسحب سائر المشاة والرماة ويعود فرساننا المدرعون بدروع كاملة، من ثمّ يحاول صنف فرساننا التراجع إلى داخل الأسوار سويًا، كي ننتقل جبرًا إلى الخطة الأولى، وهي خطة الدفاع من داخل الأسوار.

اتفقنا على ذلك في القيادة قبل أن ننسحب بمقر القيادة مسرعين نحو مؤخرة الجيش الجديدة، في حين أخذ قادة الفرق يُحفزون الجند على الثبات، وما إن التحم الجيشان وحمى وطيس المعركة وارتفع غبارها، أعطيت أمري بانسحاب نصف الرماة والمشاة نحو رانتاز. حاول قائد الجند أن يقنعني بالرحيل مع المنسحبين، إلا أنني رفضت بشدة وبقيت أتابع سير القتال. ما أخلف ظنوني هو ثبات جنودنا من الفرسان الخفاف، بدا أن فرسان الشمال المدرعين بدروع فولاذية كاملة تغطي أجسادهم، قد أرهقهم الترحل من زورين إلى رانتاز أثناء الليل ثم قدومهم لهذه المواجهة بمجرد وصولهم، فيما لم يكن فرساننا المدرعون بدروع خفيفة محمولة باليد قد بذلوا أي عناء طوال الليل، لذا بدت حركتهم أقوى وأكثر فاعلية، وصمدوا في وجه

اندفاع جيش آربوس الشمالية بقدرٍ يزيد عن الساعة دون أن تتخلخل صفوفنا، بل بقيت صفوف المواجهة عندنا على ثباتها وتراصها وتلاحمها، لكن ما بدا يغلب كفة عدونا أن الإمدادات عندهم لم تتوقف، كل بضعة دقائق أشعر بفرقة جديدة من الجند قد جاءت لتنضم إلى مؤخرة جيشهم، ما فسرتهم بأنهم كلما طوقوا منطقة من أسوار رانتاز من الخارج، يضعون عليها حمايتها، ثم يبعثون البقية إلى جيشهم هنا، لذا ما إن ظهرت بوادر عودة فرساننا المدرعين بالدرع الكاملة أعطيت أمري بانسحاب بقية الرماة والمشاة، أوعزت لهم أن ينسحبوا إلى بوابة السور الشرقي لرانتاز على أن يحافظوا على ممرها نحونا آمنًا، ويصدوا أي هجوم على هذه المنطقة من السور حتى وإن استخدموا لأجل ذلك كل جند المشاة والرماة العائدين.

بهذا التوقيت ومع رجوع فرساننا المدرعين وتغلغلهم وسط صفوف فرساننا الخفاف حتى صار معظمهم بالمقدمة، بدأت تبزغ بوادر غلبة لنا، إلا أنني لبثت أخشى أمرين، الأول أن جند آربوس الشمالية الذين فروا بممرات التلال تمويهاً، سيعودون ليطوقوا جيشنا من الخلف ما إن يكتمل رجوع وانتظام مدرعيننا، كما أن توافد الإمداد لهذا الجيش القادم من ناحية حقولنا لم يتوقف، وفوق ذلك فإن مدرعيننا بالدرع الكاملة استنزفت طاقتهم طوال الليل وأثناء

التعقب، لذا بالأخير ستكون النتيجة واحدة وهي انحصار جيشنا بين جيشين من آربوس الشمالية، وضعت بالحسبان أيضًا أنه لو كان هناك من يطوق أسوار رانتاز قطعة تلو أخرى، فمن المؤكد أن السور الشرقي لم يبلغوه بعد، كذلك فإن مشاتنا ورماتنا سيحاولون تأمينه من الخارج لأطول قدر كما أمرت، لذا من الممكن أن نتراجع إلى بوابة هذا السور الآن، وإلا سنضطر أن نحارب أثناء رجوعنا لرانتاز أولئك الذين سنجدهم يطوقون سائر أسوارنا.

لذا أمرت أن يتقدم سائر المدرعين بدرع كاملة إلى الصفوف الأولى كلها، وما إن استقر بهم الحال على ذلك، أصدرنا أمرًا بتراجع الفرسان الخفاف نحو بوابة رانتاز الشرقية، على أن ينسحبوا فرقة تلو أخرى كيلا تشعر بانسحابهم قوات الشمال فتزيد عزيمتهم وغلبتهم، فيما انسحبت معهم نحو ذلك الطريق الشرقي لأضمن استمرار تأمينه وأعد الرماة تاهبًا لعودة سائر الجيش، كي نصد بسهامهم وراجماتهم أولئك الذين سيحاولون تعقب آخر المنسحبين من جيشنا، بالأخير وما إن انسحب الفرسان الخفاف بالكامل، أصدر قائد الجند أمرًا بانسحاب أصحاب الدروع الكاملة كلهم؛ بدأ انسحابًا عشوائيًا كاملاً غير مغطى، إلا أننا وضعنا بالاعتبار أن هؤلاء سيمنون بأقل الخسائر حين يتراجعون مثل هذا التراجع.

أمالوا أعنة جيادهم نحو أسوارنا وانطلقوا، ليلحق بأثرهم ذلك الجيش المهاجم، إلا أنه ما إن اقترب فرساننا المدرعون من السور الشرقي أمرت بضرب راجمات السور عندما أحسست أن مداها سيبلغ متعقبي جندنا، لذا توقفوا عن تتبع قواتنا وانسحب سائر جيشنا إلى داخل رانتان، لنغلق البوابة الشرقية بعدما فقدنا زهاء ربع الجيش بهذا اليوم، لكنني تغافلت عن ذلك وانطلقت داخل المملكة فوق فرسي أدور على أسوارها، لأكتشف أن السور الغربي والشمالي وإن ظلا صامدين لم تزعزعهما أية ضربات إلا أن راجماتهما العلوية قد دُمرت بالكامل، وانسحبت فرق الجند من فوقهما لتربض قوات الشمال أمامهما خارج أسوارنا مباشرةً خلف متاريسهم ودفاعاتهم، فيما لبث يدور اشتباك شديد عند السور الجنوبي، بيد أن راجماته وفرقته بدوا يبلون بلاءً حسناً في صد أية محاولة اقتراب، مثلهم في ذلك مثل جند السور الشرقي الذين دعمناهم بالرماة ما إن انسحبنا.

لتمر ساعات النهار تواليًا، وينتهي ذاك اليوم الأسود على ذلك، قوات آربوس الشمالية تُعسكر أمام سورنا الشمالي والغربي بكثافة كبيرة ناصبين لراجماتهم ومتأهبين برماتهم لقنص من يحاول اعتلاءهما من جندنا، بعدما وضعوا حواجز ومتاريس لحماية رماتهم وسائر فرقهم، بينما لم يستطيعوا

فرض الحصار على السور الشرقي أو الجنوبي، لكنهم لبثوا يطوقونها من بعيد خارج مدى راجماتنا، بالأخير جاءتنا رسالة حارث المعتاض، بأن علينا تسليم الملكة مارينا وابنها جاد والأسيرة ميرا، ثم التراجع عما يُدعى آربوس الوسطى، وعودة رانتاز وقسطا إلى مملكة آربوس الشمالية تحت قيادة المملكة الأم.

بتلك الليلة اجتمع مع قادة الجند بمجلس أبي، وضعنا خطة جديدة للدفاع من داخل رانتاز، اتفقنا فيها على إجراء محاولات لنصب أية راجمات على الأرض داخل إمارتنا أمام السور الشمالي والغربي، على أن تقع قذائفها فوق تشكيلات آربوس الشمالية خارج الأسوار، طالما لم يعد بالإمكان نصب أية راجمات أعلى هذين السورين، مع تسلل رماة مدرعين بدروع كاملة لاعتلائهما والتمركز فوقهما.

كما اتفقنا على مواصلة دعم السور الشرقي والجنوبي كي يستمر صمود فرقهما، ثم تشاورنا في أمر إرسال رسالة بطلب الدعم من ملك آربوس الجنوبية على أن يزامن ذلك رسالة أخرى إلى حاكم قسطا الذي يتبعنا، إن جئنا بعشرة آلاف مقاتل من كل منهما ثم خرجت قواتنا برفقتهم، سيرجح ذلك كفتنا وقد نفض بهم هذا الحصار، إلا أننا فضلنا تأجيل ذلك، حيث ارتأينا جميعًا أن أسوارنا حصينة لن يخرقها جند



الشمال مهما حاولوا، كما أن زادنا وعتادنا داخل رانتاز يكفي البلدة كلها لعدة أشهر قادمة، إذن فليمكثوا إلى أن يحل عليهم الفتور والقنوط.

مرت عدة أيام من بعدها لم يتوقف فيها ديبب المعارك، تقدم وتراجع وإعادة تمركز خارج الأسوار، ضربات متبادلة عبر الراجمات أو الرماة من الخارج إلى الداخل والعكس، كرفر محدود، وتدعيمات فوق أسوارنا لم نوقفها، إلا أنه لم يحدث أي جديد بشأن الأوضاع على الأرض، حصار شديد لأسوارنا من كل الاتجاهات كأنه لن ينتهي ذات نهار، وصمود بالداخل لا ينفك، ذلك إلى أن جاءتنا الأخبار عن تحرك يوسف بجيش كبير من قلعتة التي تُدعى سرايوس نحو أسوار غولار، عرفنا أنه ضرب الحصار عليها وأعطاهم مهلة لعشرة أيام كي يسلموا الإمارة له دون قتال، واعدًا بتأمين أهلها جميعًا، وعدم الاعتداء على الأرواح والممتلكات، على النقيض مما فعلت قوات آربوس الشمالية حينما دخلتها آخر مرة وحررتها من سيطرة مملكة الوافدين. أشد ما أثار اندهاشنا بل أثار استغراب كافة أهل آربوس شمالًا وجنوبًا، أنه عرض على حاكم غولار أن يظل على رأس الحكم فيها، لكن وفقًا لشروط، أهمها إعلان انشقاقه عن مملكة آربوس الشمالية وإذعانه لمملكة الوافدين والتسليم بتبعيته لها، ثم تسليم قيادة جيش غولار لقادة جند يوسف وتحركه لأمر

جيش مملكته، ودفع قيمة الضريبة السنوية التي كانت تساق نحو المملكة الأم إلى بيت مال مملكة الوافدين، هذا مع بقاء سلطات الحكم الأخرى في يد حاكم غولار كما هي، أما في حالة الرفض ودخولها عنوة، فتوعدهم يوسف بالألا يترك في غولار أخضر ولا يابس إلا وسيستحله لجنده ومملكته، مع ترحيل كافة معمريةا إن بقي فيها معمررون، وتوطين وافدين من مملكته مكانهم، إضافةً إلى أسر سائر من يقع تحت يده من جنود، ولن يطلق سراحهم إلا مقابل فداء كبير عن كل رأس.

إلا أن ما حدث بغولار لم يُغير من الأمر شيئاً خارج أسوارنا، لم تتحرك أي من القوات المحاصرة لنجدتها، وهذا ما لم يخالف ظنوني، فغولار من الداخل مهدمة إثر كثرة الحروب التي لحقت بها، كما أن أراضيها لم يصلح بها زرع لهذا الموسم، ومعظم معمريةا انتقلوا هارين إلى القرى الأخرى أو إلى المملكة الأم، ولم يعد يقطنها سوى الجند الذي اتخذها حاكمها أثناء رجوعه من المملكة الأم نحوها. سيتركونهم يقاومون على أقصى ما يستطيعون، ويدعون يوسف مشغولاً بأمر غولار التي لم تعد تشغل ذهن حارث، فدخول رانتاز أهم لهم من وقوع غولار في يد يوسف.

لكن تحرك يوسف نحو غولار وإن لم يغير من أمر قوات

الشمال في شيء إلا أنه غير من رأي ملك الجنوب، فما إن بلغت أخبار تحرك يوسف بجيش مملكة الوافدين الذي تحاكى الخلق عن الضخامة التي صار عليها، إلى جانب انتشار أخبار الشروط التي وضعها لحاكم غولار كي يصير تابعًا له، التي إن دلت فإنما تدل على فكرٍ خبيث في طريقة النزاعات، وكيفية بسط النفوذ والسيطرة، كل ذلك أدى إلى تلقينا رسالة عاجلة من ملك الجنوب، قال في معرضها:

“من الملك لاسيد ملك آربوس الجنوبية وكل ما وقع جنوب ضفة نهر جودي، إلى الحاكم شهد وصي ملك جاد بن زايد ملك آربوس الشمالية والوسطى وكل ما وقع شمال ضفة نهر جودي:

تحتم علي ونحن متعاهدان على النصر والسلام أن أرسل إليكم خطابي هذا ناصحًا ومعينًا، ومؤكدًا بذات الحال على أنه الأولى من النزاع ببر آربوس الشمالية، هو صد الوافد المدعو يوسف الذي لن يتوقف حتى يُخضع كل أرض آربوس شمالًا وجنوبًا، كما أُوكد لكم علمي التام بصدق نواياكم وبانتفاء رغبتكم في النزاع، مثلما أدرك أن المدعو حارث المعتاض لن يتوقف عن معاداتكم حتى وإن انفض هذا الحصار وهذه الحرب دون بلوغه مقصده. هو مريض بالغرور والكبر، وأعماه مرضه عن رؤية ما يحيط بنا جميعًا،

لذا لن يرضخ أبدًا لإعلان رانتاز مناطحتها له ولنفوذه، ولهذا لن يرتضي سلامًا ووفقًا معكم ذات يوم، وإن خسر في سبيل ذلك غولار، فيما يظن أن أسوار مملكته الأم لن تثتم، ويعتقد أن آخر تمدد ليوسف سيكون عند غولار، وأنه لن يستطيع دخول زورين، إلا أن الحقيقة التي لا يراها حارث هي أن يوسف صار أقوى من على هذه الأرض بحورياته وباروده، وما من سبيل لإيقافه بل ولردعه وإنهاء حلمه ومملكته إلا اتحادنا، وليس باتحادنا وحسب، بل باتحادنا وباستدعاء الذكران.

لذا فإن كان حارث يسوقه كبره ولن يرضخ لنا، فدعونا نتعاهد عهدًا كاملًا أنا وأنتم، دعوني أرسل لكم جيشًا يفض هذا الحصار، ثم نتعاهد ونتفاوض على طريقة استدعاء الملكة مارينا لمن يدعون الذكران.

أعلم أنكم لا تعرفون من الذكران، بيد أن العلم والتاريخ أيضًا انقسما بانقسام بر آربوس، وما تظنونه عندكم من قبيل الأساطير، لدينا من المخطوطات القديمة ما يثبت واقعيته، وكما استدعى يوسف الحوريات نستطيع استدعاء من يبغضون وجودهم على بر آربوس، ومن هم أشد منهن قوة وبأسًا. إن تم لنا ذلك ومع اتحاد آربوس الوسطى مع آربوس الجنوبية، سنصير أكبر قوة على هذه الأرض، فنهزم حارث،

ونعيد الملك جاد إلى قصر حكمه، من بعدها نوحده سائر جند الشمال والجنوب، وبرفقة الذكران ننهي حلم يوسف ومملكته.

هذا خطابي لكم، مددت فيه يد العون دون غرض مني سوى حماية الملك في جانبي بر آربوس، فالوقت الحالي ليس أوان مطامع بين الشمال والجنوب، لكنه وقت وحدة ونضال من أجل البقاء، وإن كان ردكم بالقبول أو الرفض أو تأجيل البت في الأمر، فاقصروا الحديث والقرار بشأن الخطابات بيننا وبينكم على الحاكم شهد وابنه الأمير مالك والملكة مارينا، وابعدوه عن أعين المستشارين والوزراء وأصحاب الرأي كيلا يتسرب ما نتناقش بشأنه حتى يبلغ يوسف فيتحرز من أمر توحدنا.

والسلام ختام».

# قلب أسير

ميرا

اتشحت الأيام بالسواد حتى صارت كالليالي متشابهات، سواء ما قاسيته منها بسجن قصر المملكة الأم أو ما كابدته هنا بسجن دار السلاح برانتاز، بثُّ أفتقد أية حياة عايشتها بعيدًا عن هذه الجدران الأربع، من أول حياة القبائل والرعاة حتى أيام أسري لدى خيمات قوات الشمال، بيد أن الحال برانتاز بدا خيرًا من تركي بين يدي حارث وزبانيته. ما أخلف ظنوني أنني اعتقدت أن مارينا لن تنساني، حسبتها ستحررني وتبعثني إلى يوسف، أو على الأدنى ظننتها ستعودني بين الفينة والأخرى لثُبت فؤادي أو تمنحني شيئًا من الأمل أصبر به طول أيامي، لكنها نست أو تناست أو أهملت، أو إن أمري لم يعد يشغلها بالكلية بعدما فقدت سطوتها وسلطتها وصارت هاربة إلى قومٍ تبتغي أمانهم، فلم أعد مثارًا للتفاوض ولا سبيلاً لاسترضاء يوسف، بل صرت مخزونًا للغد لن يحركوه إلا حين اقتراب يوسف من أبوابهم أو عند حاجتهم الماسة إليه وإلى جيشه.

يوسف.. هل يا ترى لا زال يضع ميرا ضمن حسابات تحركاته، أم أن تلك القائدة من الحوريات قد أخذت مكاني في قلبه وجيشه؟ لا يعنيني الجيش ولا الأسوار ولا الممالك،

بل إنني قضيت أهنأ ما مر من عمري حينما كنا ننتقل سويًا عبر الأنفاق وبين الكهوف بعدما أخبرني ببوح قلبه. لم أتمنّ وقتها أي بلوغ أو رجوع أو هروب، فقط تمنيت بقاءً إلى جواره وإن أكملنا العمر على تلك الحالة، لكن افترقنا لننجو وتنجو المملكة وسائر الخلق فيها.

هل يذكرني الخلق هناك، أم كما قال عنهم حارث حين قابلني بخيمته قبل فض حصاره، سيحتفلون بزوال الحصار وقد يتذكرون أسماء بعض الذين ضحوا لبرهة، ثم يتسلل النسيان إلى قلوبهم، ليتناسوا الحصار والخوف والألم، وفي خضم التناسي سينسون أولئك الذين ضحوا، فالناس لا يحبون تذكر ما يؤلمهم؟

هل ذهب كل تضحيات ميرا سدى وثركت هنا تقاسي الوحدة والوحشة والإهمال والنكران؟ هل هذا جزاؤها ومصيرها؟ أخذ صوت هذه الأفكار يرتفع داخل رأسي بتلك الليلة ليزاحم وقع الطبول والهتاف الذي ظل يتردد بين كافة أنحاء رانتاز، فقد كانت ليلة زفاف أميرهم على ملكتهم، يا لها من حاذقة هذه الماريننا! لا يحركها إلا طلبها للأمان والملك، لم تُلِق نفسها ذات مرة بالتهلكة لأجل حبيبٍ أو هوى، بل دومًا تضع عقلها قبل قلبها، وهذا ما أبقاها دومًا ملكة، وأبقاني هنا سجينًا، لكني وإن عاد بي الزمن ألف مرة لأكرر ما أقدمت

عليه في كل مرة أعود فيها، لأجل ميرا التي أحببت، لأجل قلبي وروحي، لأجل هوى تملك من أنفاسي ونبضي. هذه أنا وهي تبقى هي، كلانا مختلفتان عن بعضنا، لا أنا أشبهها ولا هي تشبهني، لذا فزت أنا بالأخير بما أستحق، وهو قلب من أحببت، لكني بعد كل ما جرى أقسم بروح آربوس أنني لن أسامحك يا يوسف إن أفسحت مكاني في قلبك لتلك الحورية، فلتجعلها تحكم مملكة الوافدين، بل دعها تحكم سائر آربوس، لكن دع لي قلبك وحده، فقد استنزفت بالكامل حتى فزت بموضعي فيه.

مرت ليلتي كما مرت كثير من ليالي هنا، بعد طول صراع بين أفكاري -القائمة منها والآملة- لجأت إلى فراشي لأستريح من هذا العناء، وفي الصباح استيقظت على صوت قدمي الحارس النهاري السمين وهو يذرع في ممر السجن الضيق ليضرب على أبواب الغرف يمينًا ويسارًا بقبضة يده الغليظة، ما هي إلا دقائق وفتحوا الأبواب لنخرج إلى صالة الطعام، فقد كان هذا السجن وصالة طعامه وحمامه منفصلين عن سائر مباني دار السلاح لدى الجانب الخلفي من فناء الدار الكبير، ويحيط هذه البناية وباحتها سور صغير مستقل عن ذاك السور الكبير الذي يحيط بدار السلاح كلها.

انتهيت أنا وسائر السجينات من فطورنا، ثم أخرجونا



إلى باحة السجن. وقفت مع وافدات رانتاز نتسامر ونحكي كعادتنا، بينما لم يقل تعاطفي معهن أبدًا، فقد كانت تسري عليهن ذات القواعد القديمة، لكل واحدةٍ منهن عمر بآربوس ما بين سنة وسبع سنوات، ينتظرن قاعدة السنوات السبع أو يأملن الامتداد بيوم الساحة لو أقامت رانتاز ساحة لها، ويوم لآربوس الوسطى تجري فيه منازلات، فيما لم أقدر على التفرقة بينهن لأميّز من منهن من وافدات الجبال وأفقدوهن ذاكرتهن، ومن منهن قادمات من البحر، بيد أن الغالب أنهن من وافدات البحر، ذلك لأنه منذ نهضتنا فوق الجبال قبل أربع سنوات أو يزيد، لم تأسر قوات آربوس أيًا منا إلا عندما دخلوا غولار منذ بضعة أشهر، كذلك عندما حاصروا أسوار مملكتنا من الخارج، فبذاك الوقت أخذوا من تلك القبائل التي لبثت قاطنة بكهوف سلاسل الجبال، أما ما دون ذلك فكنا نمنعهم من مجرد صعود الجبال.

لكني لم أكن أتسامر معهن في حديثٍ سخيف عن حياتهن وحسب، بل دومًا أحاول استقاء المعلومات منهن دون أن يشعرن، أسألهن وسط الحديث عن أسوار رانتاز، عن حقولها وجندها، عما يؤرق معمرها، ما يحبونه في حاكميهم وما يبغضونه فيهم، كنت أحاول ممارسة إخلاصي لمملكة الوافدين ولسيدي يوسف حتى وأنا أسيرة بسجون رانتاز. لم يقتصر الأمر على ذلك وحسب، بل وطدت علاقتي

بالحارس المسائي الذي بات يتسامر قليلاً معي كلما جاءني بعشائي إلى غرفتي، فصرتُ أعرف منه أخبار القلاقل الدائرة بين آربوس الوسطى وآربوس الشمالية وتحركات مملكة الوافدين، حتى أخبرني بعد الزفاف بيومين أن مملكتنا أعادت بناء قلعة سرابوس، وانتظمت فرق الجند فيها، وذلك من قبل الزفاف بعدة أيام.

كاد قلبي يقفز نابضاً خارج صدري لهذا النبأ، فقد أحسست أنهم اقتربوا مني، كما أنها سرابوس، قلعتي التي كنت أقودها وأحكمها ويتحرك جندها لأمرى، لذا تحفزت أكثر وزدت ديدني في جمع المعلومات من هنا وهناك موقنة أنه سيأتي اليوم الذي أعظم فيه استفادتي من تلك الأخبار التي أجمعها، إلى أن تسارعت الأيام والأحداث ووقعت رانتاز تحت الحصار. هالني ما حدث من تخطيطٍ أوقعهم بهذا الشرك الذي نصبه لهم حارث؛ خُيِّل لهم أنه سيهجم بقواته الأساسية من المملكة الأم ليجتذبهم نحو منافذ التلال، فيما أخفى الجيش الحقيقي بزورين، ولولا حنكة مالك في القتال لانحصر كل جيشه بين شعاب التلال وممراتها لتغلق عليهم جيوش الشمال من الناحيتين، أو لفني كل جيشهم بالمنطقة المستوية خارج أسوار رانتاز، بيد أن مالك استطاع أن يخرج بأقل الخسائر ويعود بجنده.

ما أسعدني بعدها هو تلك الأخبار التي عرفتھا عن تحرك يوسف بجيش كبير من سرايوس إلى غولار، وفرضه الحصار عليها بعد أسبوع واحد من حصار رانتاز، لأشعر باقترابهم أكثر، ويحيي ذلك آمالي في صفقة أكون جزءًا منها، مع عودة جيشنا إلى الواجهة وسط هذه الأحداث الجسام.

لكن ما فاجأني هو تلك الزيارة التي جاءتني بعد تحرك جيشنا بعدة أيام، يومها أحسست باضطراب كبير منذ الصباح الباكر قبل ميعاد خروجنا من الغرف، أتبع ذلك أن حل موعد الفطور ولم يأت من يفتح الأبواب لنا. مر بعض الوقت وجاء ثلاثة حراس ليس بينهم ذلك النهاري السمين، يرتدون زيًا مغايرًا عن زي جند دار السلاح، فتحوا باب غرفتي وحدي، كبلوا يدي ثم اصطحبوني نحو غرفة قائد دار السلاح.

وجدت مارينا هناك بانتظاري، تجلس على مقعد إلى جوار نافذة الغرفة، فيما تنظر عبرها، بينما هيأوا لي مقعدًا أمامها على بُعد قدر مترين، أجلسوني ثم كبلوا قدمي إلى المقعد قبل أن ينصرفوا جميعًا ويتركونا وحدنا.

ابتسمت بنفس ثقتي قائلة:

- هل تظنين أن الأمر يستلزم كل هذا التكبير؟ إلى أين من الممكن أن أهرب؟ إن خارج أسواركم ينتظرنني ما هو أسوأ

من الأسر لديكم.

بدا عليها الشرود والتهيه، كأنها لا تعرف لم أتت نحوي، أو لا تُدرك ما هي خطواتها القادمة، بدا أن هناك ما يورقها أكثر من أمر ذاك الحصار المضروب حولنا. أحسستُ بانعقاد لسانها وانقباض قلبها، ظننتها ستبدو على نحو أفضل لا سيّما بعد استقرار أمرها كزوجة وملكة، وتوطيد مكانتها هنا برانتاز القوية التي أظنها لن تسقط، لكن لم تصدق توقعاتي، بل رأيتها أكثر هشاشة وخوفًا من أي وقتٍ مضى. مرت قدر دقيقة قبل أن تلتفت نحوي وترد:

- هل من الممكن أن تمنحيني أسرار البارود؟

- أنت تعرفين ردي من قبل أن تأتي.

أشارت برأسها بمعنى التفهم، ونظرت تحت قدميها فيما ازداد شرودها. عاجلتها سائلة بنبرة هادئة:

- هل طلبوا منك سؤالي؟

أشارت برأسها موافقة ولم ترد، لم تقم من مكانها لتنصرف، ولم تحاول سؤالي مجددًا أو الاستطراد في الحديث، بدت الحيرة تنهش روحها، أحسست أنها تتمنى أن تجد من تبوح معه بمكنون صدرها، فإذ بي تخالجني الشفقة عليها وهي الملكة وأنا الأسيرة، لذا سألت:

- ما بك يا سيدة أربوس؟

رفعت عينيها نحوي، بدتا خاويتين، ثم ردت:

- أود الهرب من هذا العالم، أن أذهب للأرض الغربية التي جئت منها كما حكى يوسف قديمًا وصار يتردد كثيرًا في الآونة الأخيرة. لا تظني أنني أريد أن أخذه منك، إنما أبتغي الرحيل عن هنا حتى لو دون يوسف، إلى عالم جديد لا يعرفني ولا أعرفه، أو بالأحرى إن بدا ذلك مستحيلًا، فأتمنى أن أختفي هنا بداخل هذا العالم، أصير عاملة تقطن كوخًا إلى جوار أرض مزروعة مع ابنها الصغير، لا تمت للحكم أو للملك بصلة، لا تدور النزاعات من حولها ولا بسببها، لا يرغب أحد في استغلال ما تملك من صبغة ملكية، أود اعتزال هذا العالم كله.

ترقرقت دمعة من عينيها أثناء حديثها. وددت لو أقوم لأربت على كتفها لكنها كفكت دمعتها سريعًا وقالت:

- منذ زواجي من زايد وأنا تحيطني الفتن، لكن بأيامي الحالية زادت إلى الحد الذي صار يحاصر أنفاسي، لا يقتصر الأمر على هروبي إلى هنا وزواجي من مالك مرغمة، وما أدى إليه ذلك من انقسام وحرب وحصار، بل فوق كل هذا جاء ملك الجنوب ليُقدم عرضًا جديدًا بشأني، كي يزيد التكالب

والقيود على روعي.

عقدت حاجبي:

- ماذا تعنين؟

ابتسمت بمرارة خالطت انفراج شفيتها ثم ردت:

- يقول أن بمقدوري استدعاء من يدعون الذكران من نهر جودي، مثلما استدعى يوسف الحوريات. يريد أن يبعث جيشًا يفض الحصار المضروب من حولنا في مقابل أن يُعقد حلقةً كاملاً بين آربوس الوسطى وآربوس الجنوبية، من ثمَّ يجبرونني على استدعاء من قال عنهم، ليستخدموهم في هزيمة حارث والمملكة الأم، ومن بعده يوسف وحورياته.

اتسعت حدقتا عيني وعاجلتها:

- ومن هؤلاء الذكران؟

- إنهم ذكور الحوريات. يقول لاسيد أنهم أشد بأسًا منهن، وأنهم يبغضون نزول إناثهم إلى بر آربوس. بدا واثقًا في خطابه من قدرة أولئك الذكور على ترجيح الطرف الذي ينضمون إليه عمًا سواه.

صمتُ لبرهةً أدقق في وجهها وأحاول قراءة ما يجول بداخلها، هل كل حيرتها ونفورها ممن يحيطون بها بسبب

أنهم لا يتوقفون عن محاولة استخدامها؟ من شهد الذي زوجها ابنه، إلى ملك الجنوب الذي يريد استدعاء أولئك الذكور بواسطتها، أم أنها تخشى أن تكون سببًا في الغدر بيوسف مرة أخرى، أم أنها تريد التفاوض معي حول صنعة البارود؟ إلى أن أكملت حديثها قائلة:

- أينما رحلت سأجد في أثري من يتفانون في أسري. ليس كل الأسر أربعة جدران، لكنه قد يُصبح إحاطة وتوجيه واستغلال. ليتهم يأسروني ليستخدموا مقدراتي فيما بينهم وحسب! بل لا بُدَّ وأن تدور الدائرة ليصبح مقصدهم بالأخير يوسف وأهل مملكته، أولئك الذين صرت أتعاطف معهم ولا أراهم سوى أصحاب حق في الحياة مثلهم مثل سائر الخلق بآربوس، والأكثر خزيًا من ذلك أن كل الخلق هنا عوام وحكام صاروا يعرفون أن يوسف لا يقدر على إلحاق الأذى بي أينما ارتحلت، بينما يرون أنني مثل دمية يتلاعب بها أهل الحكم للإيقاع بيوسف مرة بعد مرة، أما أنا فلم أعد أعرف ماذا علي أن أفعل.

- وما رأي الحاكم شهد فيما طلبه ملك الجنوب؟

تنهدت بزفير طويل:

- لا زال يجيل الأمر برأسه، وينتظر ما ستسفر عنه هذه الأيام الثقيلات، لا سيّما وأنهم يراهنون على قنوط تلك

القوات المحاصرة، لكنه بدا سعيدًا بتلك الميزة الجديدة التي وجدها عندي؛ كان يظن في البداية أنني مجرد طريق لأن يصير أحد ذريته ملكًا على آربوس، بذات الوقت كان يرى أن يوسف لن يخذلني إن طلبت، والآن وجد عندي أمرًا جديدًا يُقربه من ملك الجنوب أو يفاوضه عليه.

أجلت الأمر برأسي للحظاتٍ ثم رددت:

- لا بُدَّ أن تحذري من مكر ملك الجنوب هذا، وتُحذرين منه زوجك وأباه؛ إنه لا يريد سوى أن تصير رانتاز مجرد إمارة تابعة لمملكته قبل أن يُكمل طريقه بالاستيلاء على سائر آربوس. هو لو أراد فض الحصار عنكم دون أن يبعث جيشًا نحو أسواركم سيقوم بذلك وبطريقة يسيرة، بأن يحاول غزو زورين مثلًا، عندها سينفض هذا الحصار، ويرحل جيش الشمال متلهفًا للدفاع عنها، فهي الآن أهم نقاط تحصن مملكة الشمال بعد المملكة الأم، فغولار كما تعرفين حطمتها الحروب ويحاصرها يوسف، وكيبول إمارة صغيرة وقسطا معكم، أما زورين مثلها مثل رانتاز إحدى محاور القوة والمنعة، لكن ملك الجنوب يريد أن يُدخل جيشه داخل أسوار رانتاز بحجة فض الحصار ثم لا يخرج منها، بعدها يقيم هذا الاتفاق مثل عهد بين غالب ومغلوب، وليس كطرفين لهما نفس القدر والحق، قبل أن يجبرك على ما تحكين من استدعاء أولئك



الذكور الذين حتمًا سيكونون تحت إمرته.

ابتسمت بذات المرارة قائلة:

- أنتِ لم تعرفي كل الحقيقة بعد، أنا أحكي معكِ لأنني أعلم قدر إخلاصك ومروءتك، لكني لم أحكِ الأكبر من ذلك.

- هاتي ما عندك يا سيدة آربوس، أنا أعلم أنكِ لن تتمني الأذى لي ولمملكتي ولسيدي يوسف، وأنا مثلكِ لن أسبب لكِ الأذى يومًا أو أفشي سرًّا بيننا.

صمتت لبرهةٍ تنظر نحوي وكأنها تخشى أن تواصل حكايتها إلا أنها بالأخير أشاحت بنظرها نحو النافذة واستأنفت:

- اكتشفتُ أن لملك الجنوب متلصصين هنا بقلب رانتاز، فبعدهما أرسل رسالته الرسمية الأولى إلى صهد، نقل أحد متلصصيه -من صرّح بأنه تاجر جنوبي حُبس برانتاز بعد الحصار- رسالة شفوية لوصيفتي زهرة قال فيها إن عليّ ألا أخشى من قوات الشمال؛ إن دارت الدائرة على رانتاز وسقطت في أيدي محاصريها فأعين الملك لاسيد كلها موجهة عليّ. بدا تلميحه كما نقلت لي زهرة أنهم يشيرون إلى تهريبي نحو مملكة الجنوب لو اقتحمت رانتاز، لأكمل مسيري هناك كملكة. ما فسّرتة زهرة أنهم يعنون زواجًا من لاسيد،

لكن بكلماتٍ كلها تحمل من المكر والتمويه ما تحمله حتى لا يؤخذ الكلام عليهم إن صرّحت به، بل قد ينكروه بالكلية وينكرون قائله.

عاودت النظر نحوي ثم ابتلعت ريقها وقالت:

- لا يملكون مروءةً ولا شرفًا في تلك العائلات الملكية، في العلن يعلنون المودة وفي الخفاء يطعنون الأظهر، لا يعرفون إلا المكر والخداع من أجل مكتسبات جديدة وإن كان ذلك على حساب نقض كل الأخلاق والأعراف والقيم، قد يقتل الأخ أخاه أو أباه لأجل الملك أو ما دون ذلك، قد يلقي أحدهم بشعبه إلى التهلكة من أجل توطيد كرسيه، أو قد تقوم حرب بسبب الغرور والكبر، بالأخير يظهرون أمام الخلق في المناسبات كأنهم أصحاب الفضيلة والتضحيات. عايشتهم كثيرًا حتى كرهت أنفاسهم الممزوجة بالكذب والتضليل.

قاطعت حديثها سائلة:

- لكني أظن أن مالك ليس على هذه الشاكلة، أليس كذلك؟

- مالك وُلد ذكرًا وحيدًا بعد أربع أخوات، حظي بكثيرٍ من العناية في تنشئته، كما أن حُكم أبيه مستقر منذ عشرات السنين، لكنه سيشرع في تعلّم حياة المكائد عن أبيه بظهور هذه القلائل من حولهم، سيأتي الوقت الذي يتحول فيه

مثلهم، إلا أنه حتى الآن ما زال نبيلًا مخلصًا لم يتلون،  
وأتمنى أن يدوم على ذلك!

- إذن فلتظلي دومًا في كفة زوجك وكنفه، لا تلتفتي لكل  
ما يحاك من حولك، وضعي بداخلك يقيئًا ثابتًا أن لك في  
هذه الأرض سندًا يدعى يوسف، لن يتركك إن دارت عليك  
الخطوب، من بعده تجدين ميرا. لا يغرنك أسري بينكم؛ لا  
زلت ميرا قائدة سرايوس، وأحد القلائل الذين يعرفون أسرار  
البارود في هذه الأرض. سيأتي وقتي وستعرفين أنك جئت  
تسكين همك لمن تستحق.

قطعت حديثي للحظات ثم استأنفت:

- ولا تتحدثي مرة أخرى عن اعتزال العالم، أنتِ ملكة  
تخبطتها أعاصير النزاعات والقلقل، أنتِ أقواهن جميعًا،  
لا تركني خلف الستار أبدًا، بل شاركهم الرأي والحكم، فقد  
يأتي أوان تصبحين فيه الأميرة الناهية هنا، مثلما حاولت أن  
تكوني بالملكة الأم وكدتِ تنجحين. ليس معنى إخفاقك  
في محاولتك الأولى أنك ستخفقين في المحاولات التالية،  
بل الأرجح هو بلوغك مقصدك ذات مرة، لأنك تتعلمين  
من دروس الماضي، وقد يكون حكمك من خلال واجهة  
تحركينها، فلن تطول حياة صهد، إذن دربي زوجك على  
طاعتك. إن استأثرتِ بحكم آربوس الوسطى وانتهى يوسف

من آربوس الشمالية، نكون قصرنا الطريق فيما بيننا كثيرًا،  
ضعي في الاعتبار أننا نريدك معنا وفي صفنا.

أشارت برأسها بمعنى الموافقة، وقامت من مقعدها وهي  
تقول:

- لقد أبلغتهم من قبل مجيئي بأنك لا تعرفين أسرار البارود،  
وأن معلوماتك عنه ضئيلة للغاية، إن حاولوا معك فلا تقولي  
لن أخبركم، بل قولي لا أعرف وحسب، هم هنا في رانتاز  
لا يتلهفون إليه تلهف حارث، وليس لديهم المعلومات التي  
كانت عند المملكة الأم بشأنك، إلى جانب أنهم لن يستطيعوا  
جمع أيٍّ من مواده في ظل هذا الحصار.

أشرت برأسي بمعنى التفهم ورددت:

- لا تتأخري في زيارتك القادمة، لقد صرت أحب الحديث  
معك.

ابتسمت ثم طرقت باب الغرفة ورحلت، ليمر بعد هذا اللقاء  
بعض يوم، وأثناء فطوري مر إلى جوارى أحد الوافدين  
العاملين بمطعم السجن، أوقع وعاءً من يده وانحنى ليلتقطه  
ثم قال:

- سيد الوافدين يُقرئك السلام، ويقول أن قلعة سرايوس  
في انتظار قائدها وكذلك سيدها في انتظارك.

لم أحاول أن ألتفت إليه أو أن يظهر التأثير على وجهي،  
إلا أنه ما إن تحرك فرت دمعتان من مقلتي لم أستطع أن  
أمنعهما، صاحبهما ابتسامة ارتسمت تلقائيًا فوق شفتي، ثم  
همست إلى نفسي:

- وميرا تنتظر حبيبها.

مرت بعدها عدة أيام حاولت خلالها ملاقة ذلك العامل،  
أردت إخباره رسالة كي يوصلها إلى يوسف، بأنّ عليه الحذر  
من ملك الجنوب لأنه يخونه للمرة الثانية. بقيت أتلهف  
عودته إلى أن ظهر بعد قدر عشرة أيام، لذا تحينت مروره  
إلى جوارى وارتطمت به قائلة:

- بلّغ سيد الوافدين أن ملك الجنوب يخونه.

# صراع الممالك

يوسف

بليلة زفاف مارينا صرث زوجًا حقيقيًا لأفرودينا، بدا الأمر حلماً سقطت فيه كمن غُيب عقله عن الواقع، لم أقدر على رفضها وفقاً لعهدي، لكني لا أستطيع إنكار سحر لقاءها، كأنها لبثت تنفت سحراً حقيقيًا إلى روعي طوال اللقاء، ليتأكد لي صدق حديث ملكتهن يوم بقعة الحوريات عن سحرهن، إلا أن الغريب أنها لم تحاول تكرار اللقاء في الليالي اللاحقات، كأنها أرادت ما قالت عنه وحسب، محاولة لأجل ولد مني، أما عني فلم أفكر في المبادرة ولو لمرة.

تعاظمت الأحداث من بعدها وتشابكت، لتتناسى ما حدث بيننا ونعود لحالنا السابق قبل تلك الليلة، سيد مملكة الوافدين ونائبته، فقد حاصرت مملكة الشمال رانتاز وصار لزامًا علينا أن نتحرك، لذا جمعنا الأخبار من متلصصينا، لينبئونا بأن كل جيش زورين هبَّ إلى الحصار، ولم يبقَ فيها سوى حامية تأمين أسوارها بقدر ثلاثة آلاف مقاتل، ولن يخرج منها جندي واحد للدفاع عن غولار، كما قالوا عن غولار بأن عدد الجند فيها لا يجاوز الألفي مقاتل.

لذلك ما إن مر بعض يوم على استحكام حصار رانتاز،

أعددنا بعض جنودنا وجمعناهم في قلعة سرايوس، زهاء سبعة آلاف مقاتل متنوعين ما بين الفرسان والمشاة والرماة، ما لم يجاوزوا نصف قوة جيشنا بعد إعادة بنائه، بينما وضعنا فيهم مزيجًا من أولئك المنضمين حديثًا لنا، وغيرهم من القدامى الذين شهدوا جل معاركنا. ارتدوا جميعًا زي جنودنا الموحد من الكتان الأسود، واعتمروا خوذاتنا المدببة، ودروعنا البيضاوية، في حين لم نصطحب من ضمنهم أيًا من الحوريات سوى سرية من مئة حورية قالت أفرودينا أنهن كحرسها، ثم تحركنا عند منتصف الليلة الثامنة على حصار رانتاز.

خرجنا من بوابة سرايوس في صفوفٍ متراسات تحمل المشاعل، فيما لم نتحرك على الطريق المحاذي لضفة نهر جودي حتى لا نشير حفيظة آربوس الجنوبية، واتخذنا طريقنا عبر الغابة، قطعناها متمهلين كيلا ينفك انتظام صفوفنا، بينما تقدمت المسير أنا وأفرودينا، إلى أن بلغنا مشارف غولار مع طلوع شمس اليوم التالي وضربنا الحصار عليها، طوقنا أسوارها دائريًا من كل الجهات، بيد أننا بقينا خارج مدى راجمات صخورها وسهام رماتها عند نهاية المنطقة الخالية المحيطة بالأسوار، أي على تخوم أشجار الغابة. نصبنا خيامنا، وأعددنا دفاعاتنا ومتاريسنا دون أية مقاومة تذكر، وما إن استقر بنا الحال مع انتصاف النهار

جمعت قادة الجند وأفرودينا لدى خيمة القيادة بالناحية الغربية، جلسنا على أرائك حُشيت بالقش والقماش، إلى جوارى أفرودينا وأمامي قادتنا الثلاثة. افتتحت الحديث بالأسف على تلك المنطقة الخالية حول أسوار غولار، التي أعدناها بأيدينا وقتما كانت هذه البلدة تحت سيطرتنا، بأن نزعنا أشجار الغابة لدى كافة الاتجاهات خارج الأسوار لتصبح الآن عقبة أمامنا وكاشفة لقواتنا، ونلجأ للتطويق من بعيد على تخوم الغابة، معقبًا بالأخير أننا إن دخلناها هذه المرة فلن نخرج منها أبدًا، من ثمّ انتقلت للتشاور معهم بشأن رسالتنا الواجب إرسالها إلى حاكم غولار، ليذكرني قائد فرق المشاة بأنّ هذا الحاكم كان قائد الجند الذين اقتحموا هذه البلدة وقتما كانت تحت أيدينا، بعدما غدرت بي مملكة الشمال وأسرتني، وأنه من أمر بإعمال القتل في أهلها من الوافدين حتى جعلها بلدة خاوية مهذّمة، ذلك قبل أن يعود نحو المملكة الأم لآربوس الشمالية ويبقى فيها طوال المدة السابقة تحت قدمي زينة البحر، منتظرًا إمداده بالمال والعتاد والجند كي يرجع مرة أخرى إلى هنا.

أنصتُ إليه باهتمامٍ ثم أضفت إلى حديثه بأن ذات القائد هو أحد الذين غدروا بالملكة مارينا وطردها، وأنني لا أتمنى له سلامًا أو سلامةً، لكن الأمر يحتاج تريبًا وحنكةً لأننا ننتوي التمدد في سائر الأرض، وما سنضعه من قواعد



ستسري على سائر معاركنا فيما بعد، من ثم أخذتُ أشرح لهم أمرًا بقيت أفكر فيه منذ أمد، وهو أن أعرض على هذا الحاكم فكرة الخضوع لسلطة مملكة الوافدين والانشقاق عن آربوس الشمالية، ذلك في مقابل مزايا يتمتع بها والتزامات تُفرض عليه إذا ما قبل عرضنا، بأن تصير غولار تحت حماية جيش مملكة الوافدين، ويصبح الدفاع عنها واجبًا علينا، مع إمدادها بالجنود والسلاح والبارود، كذا إمدادها بالزاد من لدينا إن شح قوتهم، أي أن تصير جزءًا منا علينا رعايته، هذا في مقابل فتح بواباتها لنا كلما أراد جيشنا العبور عبرها، وتسليم قيادة جيشها لقيادة جنودنا، فنعين نحن قاداتهم من طرفنا، وندعمهم بجنود كثيف من لدينا، كما تلتزم غولار بدفع الضريبة السنوية إلى مملكة الوافدين وليس إلى مملكة آربوس الشمالية، كذلك تلتزم بالمساواة الكاملة بين الوافدين والمعمرين، مع إصدار صكوك هوية مواطني مملكة الوافدين لكل من فيها من معمرين ووافدين.

استغرب القادة حديثي ببادئ الأمر، فلم يخطر بذهنهم فكرة التمدد وبسط نفوذ مملكتنا بإخضاع الحكام وليس طردهم، إلا أنهم بالأخير وافقوا باعتبار أنه على كل الأحوال إن صار لنا جنود كثيف في بلدة فكأنها صارت مملوكة بالكلية لنا، لكن أفرودينا قطعت حديث القادة الثلاثة قائلة:

- إذا كان كل ما قلته هو الترغيب بعينه لهذا الحاكم  
وجنوده فأين الترهيب إذن؟

عقدت حاجبي ورددت:

- ماذا تعنين؟

- أعني أنه لزامًا علينا إن عرضنا هذا الاتفاق بما يحمل من  
تسامح أن نرفقه ببعض الوعيد إن لم يوافقونا على تسامحنا.  
يتوجب علينا أن نضع لهم مهلة لإجابتنا على عرضنا، وليكن  
قدرها عشرة أيام، مع الإيعاز بأنهم لو رفضوا هذا العرض  
ودخلنا أسوارهم عنوةً أو سلموا لنا بعد المهلة بأميدٍ بعيد  
نتيجةً نفاذ زادهم، فإننا في تلك الحالة لا نُصبح ملزمين بأيِّ  
من وعودنا التي قطعناها على أنفسنا في حالة التسليم خلال  
المهلة، بل على النقيض إن دخلنا بالقتال أو بطول الحصار  
فإن حقنا وقتها أن نستبيح سائر ما تقع عليه أيدينا في  
غولار من مال وذخيرة ومتاع، بل ونتخذ سائر جندهم أسرى  
لمملكة الوافدين لا يفك رقابهم إلا بفداءٍ يُدفع عن كل أسير.

استحسنث قولها واستحسنه القادة، لننهي نقاشنا بالأخير  
على أن تملي أفرودينا ما اتفقنا عليه إلى كاتب المراسلات،  
ثم تعرضه عليّ قبل إرساله مع رسولنا، وهو ما أتمته قبل  
الزوال، لنبعث خطابنا مع غروب يوم وصولنا، إلا أن حاكم  
غولار لم ينتظر ولم يتشاور، بل بعث رده مباشرةً مع

الرسول، أمر بكتابته على ظهر رسالتنا، قائلاً:

- من مرضي حاكم غولار إلى يوسف سيد الوافدين، لتعلم  
أنا جميعًا بهذه البلدة تُعد جنودًا لآربوس الشمالية ولسنا  
مجرد رعايا، لذا لن نسلم إلا على رقبة آخر جندي بيننا، حتى  
وإن تقوتنا على العسل وحده من عشش النحل بأنحاء غولار،  
وبفرض أنك استطعت الدخول فوق جثة آخر جندي، فاعلم  
أنك لن تبقى هنا طويلًا، لأن جحافل جيوشنا التي تحاصر  
رانتاز ما إن تنهي مهمتها ستعود إليكم كي تطردكم إلى  
الجبال مرة أخرى، لذا لا تكبد جنك عناء الحصار والحرب  
لأن بكل الأحوال ستكون حربكم ها هنا خاسرة. والسلام  
على من أراد السلام.

بقدر بغاضة رده إلا أنني أحسست أنه أطلق يدي، فلم  
يعد صاحب عهدٍ بل اتخذ جانب العداوة، لذا انتويت فرض  
الحصار الخائق حولهم طوال الأيام العشرة حتى أوفي  
بمهلتي، من بعدها نبدأ في محاولة التسلل بالقرب من  
أسوارهم لحشو البارود فيها، إلا أنني وضعت خطط الحصار  
مع القادة الثلاثة قبل أن أعين قائد المشاة رشيد الوالي قائدًا  
عامًا على الجيش من بعدي، ولما طلعت شمس نهارنا التالي  
عدت أنا وأفرودينا وحرسها إلى مملكة الوافدين، كي نبدأ بلا  
راحة في مواصلة العمل الدؤوب فيها برفقة يزن،

معتمدين على كفاية قادة الجند في أمر حصار غولار، حيث أخذنا نُكمل المنهاج الذي وضعتَه من ناحية التعاملات داخل المملكة، بذات الوقت واصلنا تنظيم أمور الملتحقين الجدد بفرق جنودنا بالتعاون مع نواب قادة الأفرع -من فرسان ورماة ومشاة- الذين لبثوا موجودين بمعسكرات الجند في المملكة، إلى جانب تحفيز جامعي مواد البارود على مواصلة عملهم، مع استمرار طحن المواد في دور صناعة البارود كي نزيد من مخزوننا.

وقتها وفي خضم كل هذا العمل، لم أنسَ ميرا، ولم أنسَ أمر تلك الرسالة التي وددت إرسالها لها لنثبّت فؤادها، ما صار أمرًا مستحيلًا بعد حصار رانتاز وإغلاق أبوابها، بل والأكثر سوءًا من أمر الرسالة هو أنني صرت أخشى أن تدخل قوات الشمال إلى رانتاز، فوقع ميرا بين يدي حارث لن يحمل سوى مزيدٍ من السوء لها، إلا أنني صبرت نفسي في الأخير بأننا على كل الظروف والأحوال لن نتركها أبدًا، سواءً في ذلك بقيت برانتاز أو رحلت إلى المملكة الأم لآربوس الشمالية، لكنني مع التفكير في عجزنا عن إبلاغ مجرد رسالة، ارتأيت أنه من أولى الأمور في ظل هذه القلاقل والصراعات، هو تأسيس ما يُشبه شبكة قريبة من عمل الجواسيس، تكون أكثر تنظيمًا وتحاول التغلغل داخل قصور الحكم ومراكز اتخاذ القرارات لدى جيراننا، سواء بتجنيد رجال لنا يتغلغلون

داخل تلك الأماكن، أو بشراء أفراد ممن بالداخل، مع اعتمادنا على الوافدين الموجودين بالقرب من تلك المراكز لأنهم أكثر قربًا لنا، وأكثر قابلية للاستمالة نحونا، لا سيّما أنهم قديمًا ومع أول قدومي إلى أرض آربوس كانوا يقيمون تنظيمًا في المملكة الأم ينتظر بزوغ صاحب نبوءة الوافد المخلص، إذن قد نجد بقايا لهذا التنظيم بالمملكة الأم، ونجد غيرهم يساعدوننا برانتاز بعد فض الحصار عنها، كذلك بزورين.

ذلك كيلا يستمر الأمر على مجرد متلصصين يحاولون تسْمَع الأخبار من العامة، ولا يقدرّون على اتخاذ خطوة حقيقية ولو صغيرة كإبلاغ رسالة، لذا في ظل أيام المهلة العشرة، وبتنظيم الأمر مع يزن وضعنا نواة لهذه الفرقة، وخصصنا لها قدرًا من نقود آربوس الشمالية والجنوبية التي بحوزتنا، اعتمدنا فيهم على رجالنا السابقين في شأن التلصص، بينما زورنا لمن سينشط بالشمال صكوك هوية معمرين من قاطني آربوس الشمالية، بواسطة بعض أختام غولار التي بقيت لدينا من وقتما كانت تحت سيطرتنا، أما الذين وقع اختصاصهم بالجنوب فاتفقنا على أن يتقمصوا دور تجار من لدينا فلا يمنعون من الدخول والتنقل وفقًا لعهدنا مع آربوس الجنوبية، ثم قسمناهم جميعًا إلى خلايا صغيرة، لكل بلدة خلية، من ثمّ قمث بالاجتماع معهم أكثر من مرة لأشرح لهم فكرة التدرج في استمالة الأفراد

المرغوبين، وعدم كشف أعضاء الخلايا إذا ما كُشف أحد أفرادها، والولاء الكامل للمملكة بعدم البوح بسرّها.

لتمر أيام المهلة العشرة سريعًا، ما بين تنظيم شؤون المملكة الداخلية، ومحاولة تنظيم الأمور الخارجية، إلى أن فاجأني قدوم رسول من ملك الجنوب في اليوم الأخير من تلك المهلة، جاء به الحرس يومها إلى مجلسي عند انتصاف النهار، قرأ عليّ رسالة ملكه واقفًا أمامي بثبات، بينما استمعت إليه على كرسي رأس المجلس، فيما جلس يزن وأفرودينا لدى صف الكراسي الأيمن. بدا مفاد الرسالة أن لاسيد يعرض مساعدته في غزونا لغولار، وفي غزو زورين من بعدها إن عرّ لنا دخولها، على أن نترك حلفه قائمًا مع آربوس الوسطى رانتاز وقسطا، ولا نبادر إلى غزوهما إلا بعد استفتاء رأيه.

ما إن فرغ من قراءة رسالته أشرت له بالجلوس لدى صف المجلس الأيسر، فالتجأ إلى أول المقاعد من ناحيتي. حككت ذقني متفكرًا، من ثمّ ومضت في رأسي فكرة بمناسبة ذلك التحالف بينه وبين آربوس الوسطى، لذا أجبتّه:

- بخصوص طلب ملككم عدم تدخلنا في رانتاز إلا بعد استفتاء رأيه فلکم ذلك، إلا أن هذا لا يعني أننا ملزمين بمغزى ردكم إن عرّ لنا دخولها، سيصير لزامًا علينا أن نبلغكم

وليس أخذ إذنٍ منكم، أما بخصوص عونكم لنا فمن المؤكد أننا قد نعوزه، بيد أننا لسنا بحاجةٍ إليه الآن في غولار، لكن أخبرني يا رسول الملك، أفإن طلبت من لاسيد أن يتوسط لتحرير أسيرتي ميلا من سجون رانتاز بمجرد فض الحصار عنها هل سيجيبني إلى مطلبي؟

- لا أعرف يا سيدي الملك، إن الحاكم شهد صعب المراس، وما بيننا وبينه مجرد تحالف بالمناصرة وعدم الاعتداء، لم يرتق بعد لأن يصبح حلقًا كاملاً.

- أعرف أن الحاكم شهد لن يوافق على تحريرها حتى وإن توسط لاسيد لأجل ذلك، بل وإن عرضنا عشرات البارود أيضًا، بكل الأحوال فإن رانتاز تحت الحصار الآن، والحديث عن خروج ميلا منها دربًا من الخيال، لكنني أظن أن هناك مراسلات بينكم وبين رانتاز.

- هذا من المؤكد يا سيدي الملك.

صمت للحظات بينما بقيت أركز في وجه الرسول قبل أن أواصل:

- ومن المؤكد أيضًا أن هناك مراسلات رسمية مع قادة رانتاز، وأخرى تحملها حمائم غير رسمية لرجالٍ لكم هناك، أليس كذلك؟



تلجلج وتغير لون وجهه ما أكد لي ظني، لكنه أجاب:

- ما أعرفه أن كل المراسلات بيننا وبين رانتاز مراسلات رسمية وحسب يا سيدي الملك.

- لكني لن أطلب أن أوصل رسالة رسمية إلى أسيرتي هناك، بل أريد تمرير رسالة لها بعيدًا عن أعين أسريها كيلا يضيقون الخناق عليها أو يتعسفون في معاملتها، لذا سأرسل معك ردي كاملاً إلى ملك الجنوب، وأنتظر ردًا منكم بشأن هذه الرسالة التي أبتغي توصيلها.

- ما على الرسول إلا البلاغ يا مولاي الملك.

- أنا لا أنتظر ردًا بإمكانية الأمر من عدمه، أنا أنتظر ردكم بأن رسالتي إلى أسيرتي تم إبلاغها.

- أمر مولاي، ملك مملكة الوافدين.

أنهيت لقاءه على ذلك ليأتي الحرس ويصطحبوه إلى دار الضيافة كي يستريح من عناء سفره، ويانتظر كتابة رسالتي إلى ملكهم. ما إن غادر أحسست بنارٍ تستعر في عيني أفرودينا، لا أعلم هل غيرة منها لاهتمامي بشأن ميرا بهذا القدر أم لأنني لم أتشاور معها بشأن ردي على ملك الجنوب، لكني استبعدت السبب الثاني لأنها لم تعارض رأيي أبدًا من وقت قدومها معي إلى بر آربوس. تخطيت الحديث نهائيًا

عن رسالة لاسيد وعن ردي عليها والتحقث بها هي ويزن في صف المجلس الأيمن، أخذت أناقشهما بشأن انتهاء مهلة غولار وما يتوجب علينا فعله، لتتفق بالأخير على أن نرسل لقادتنا في يومنا بالشروع في محاولات الاقتحام ابتداءً من الغد.

بليتها جاءتني أفرودينا إلى شرفة منزلي كعادتها، جلست على المقعد المجاور لمقعدي، تأملت صفحة البحر مع السماء المقمرة للحظاتٍ ثم قالت:

- ليلة بعد ليلة أزداد عشقًا لهذا المشهد من هنا، كنا نراقبك قديمًا من البحر، منذ تمددت بمملكتك حتى بلغت هذه الحافة من الجبال، وكنا نعرف أن هذه شرفتك، رأيتك فيها كثيرًا، لكني لم أتخيل أن أجلس معك هنا ذات يوم، أو أن أهوى هذا المشهد.

- لن أفقد شيئًا هنا بقدر افتقادي لهذا المشهد وهذه الشرفة. أتعرفين لم اخترت منزلي مطلقًا على البحر من فوق الجبال؟

- لأنك تشعر بقربك إلى موطنك من هنا.

التفت نحوها:

- جوابك في محله، أصاب كبد الحقيقة، أنتِ تعرفين معنى

أن تُختطفي من موطنك إلى بلدٍ غريبة، بل بقعة أسطورية غير ما نعرفه في عالمناء، كأنني عدت بالزمن ألف عام، لذلك استطعت تفرس الإجابة بخلافهم هنا، هم لا يعرفون سوى هذا العالم.

- لكنني أشعر أن رغبتك في العودة أخذت في التزايد بالآونة الأخيرة.

أشرت برأسي موافقًا:

- لأنني وجدتكن، ومن وقتها أخذتُ أشعر أن لي مهمة أقضيها، من بعدها سأعرف طريقًا للعودة، لكن مهمتي كما تعرفين لا تقتصر على ما تبتغون مني، بل يظل هناك ميرا ومارينا، وكذلك تحقيق الأمان لأولئك الذين آمنوا بي ونصروني فانتصرت لهم.

- لكنني أظن أنك لم تعد معلقًا بمارينا مثل السابق، رغبتك في بلوغها صارت تتعلق بالتزام وليس هوى، تتعلق برفيقة وليست حبيبة.

- لا أعرف، قد يكون تفسيرك صحيحًا بالكلية، وقد يكون هناك شيء من المشاعر دون الهوى، مثل عشرة أو مسؤولية أو تعاطف أو غيره، لكن يظل لها قسم من قلبي. أصمت

صمت لبرهة ثم وضعت يدها فوق بطنها برفق، ابتسمت

لي وقالت:

- أشعر أن شيئًا منك بدأ ينبت بداخلي.

التفتُ نحوها وقد هالني حديثها، لدرجة أنني لم أستطع أن أوارى صدمتي التي ارتسمت على ملامح وجهي، إلا أنني لم أرد، لتستأنف قائلة:

- كما وعدتك، إن صار حدثي صحيحًا وصار لي طفل منك، لن أقيدك إلى جوارى، لن أحملك مسؤوليتنا، ارحل وحدك إلى أرضك إن أحببت، أو ابق هنا، لكن لا بُدَّ أن تعلم أنه سيكون ابنًا بشريًا، ليس من الحوريات أو ذكرانهم، لذا سأضطر للبقاء إلى جواره حتى وإن لم أعد مرة أخرى نحو موطني بالبحر.

عدت بوجهي نحو صفحة البحر أمامي، أخذت شهيقًا طويلًا ورددت:

- لا أظن حدثك صحيحًا، حدثي ينبئني بعكسه، وكما أخبرتك من قبل، أنا لا أتمنى أن أغزل حبلاً جديدًا للود حتى وإن كان ابن لي.

لم تستطرد الحديث من بعدها، كأن ردي صدمها فقطع استرسال الحديث بيننا، ظلت صامتة إلى جوارى، بل ولم تواصل معي ليلتي بالشرقة كعادتها. انتظرتُ لدقائق قبل أن

تقوم إلى مخدعها، كأنها تُعبّر عن ضجرها من حديثي الصلب عن ابنِ تتأمله مني، لأبقى أفكر مضطربًا في أمر هذا الابن الذي تحكي عنه، موقنًا بأنني لا أريد أن يصير هناك رابط جديد يربطني بهذه الأرض، أو يقيدني إلى أي جانب، لا أريد حملًا إضافيًا فوق ظهري أو التزامًا ناشئًا، بل لا أريد أي بقايا لما حدث بيننا تلك الليلة، متمنيًا ألا يتكرر. بقيت متوجسًا من هذه الأفكار حتى تملكني النعاس، فلجأت إلى أريكتي وأنا أمل ألا يتحقق حدثها.

لأتناسى الأمر من يومي التالي وأنشغل عن ذلك بمتابعة الأخبار التي تأتينا عن محاولات جندنا لاقتحام غولار. ظننت أنهم سيبلغوني بخبر دخولها خلال بعض يوم، لكن مرت الأيام متتاليات دون جديد. ما جاءني بعد قدر أسبوع هو رسالة من مملكة الجنوب بأن رسالتي بلغت ميرا، منوهين في رسالتهم لنا أن الأمر لم يكن رجال لهم في رانتاز، بل تجار من الجنوب حُبسوا لديها وقت الحصار، بينهم وبين تجارتهم في الجنوب تواصل دائم عن طريق الحمام، من ثمَّ أبلغوا أولئك التجار رسالتنا ليتولوا هم إيصالها بطريقتهم إليها، لكنني لم ألتفت لهذا التبرير، بل بقيت على يقين من وقت ما راودتني تلك الفكرة أن لـ «لاسيد» أعين بكل مكان، بل ومن الممكن أنه حاول زرع أعين له لدينا، لذا من وقت مجيء رسالته الأولى بشأن حلفه مع رانتاز، ومن وقت تفرسي بشأن

تغلغل أعينه لدى سائر جيرانه، قررت أن نضع مملكته الأم بأقصى الجنوب ضمن مواضع نشاط متلصصينا حتى وإن بقي حليفًا لنا، من ثم أرسلنا لها بعضًا من رجالنا.

ليمر قدر أسبوعٍ آخر بعدها دون إحراز أي تقدم لنا على الأرض في حصار غولار، فقررت أن أوافيهم إلى هناك برفقة أفرودينا في صباح اليوم السادس عشر على محاولات الاقتحام، ما وافق اليوم السادس والعشرين منذ بدء حصارنا، من ثمّ بقيت هناك ليومين أتابع ما يجري، ليتبين لي أن دخول غولار ليس هيئًا كما تأملت، فقد كان جندها يسقرون الجحيم في تلك المنطقة الخالية المحيطة بأسوارهم كلما حاولنا الاقتراب بجندنا من الأسوار، كانوا يلبثون على استكانتهم طالما بقينا نطوقهم من بعيد، أما إن اقتربنا تستعر الأرض من راجماتهم التي لا تُلقي صخورًا وحسب، بل تُلقي كريات نار مشتعلة إلى جانب الصخور، وإذا ما جاوزنا نطاق تلك الراجمات غير ملتفتين لخسائرننا خلالها، يظهر رماتهم المتخفين داخل فتحات صغيرة كما الخنادق أعلى أسوارهم ليملأوا السماء بوابل سهامهم، بالأخير إذا ما اقترب أي من جندنا أكثر من ذلك يصبون علينا زيتًا مشتعلًا ينزل عبر فتحاتٍ بمنتصف ارتفاع الأسوار.

ما أثار حنقي وأكد لي صعوبة الأمر، أن رشيد قائد الجند

نظم محاولة جديدة للاقتحام بمساء ليلتي الثانية، متأملًا أن يتشجع الجند لوجودي، فانطلقت بتلك الليلة من لدى تجمعنا بالغرب سرية من مائة مقاتل دون مشاعل يتسترون بدروعهم فوق رؤوسهم، ثم انقسموا إلى عشر جماعات تتحرك كل جماعة منهم بطريقة عشوائية داخل تلك المنطقة الخالية، إلا أنهم ما إن توغلوا فيها بقدر بضعة أمتار صارت تتساقط قذائف الراجمات فوقهم سواء من الصخور أو من الكرات المشتعلة، ليصاب البعض منهم ويفلت الآخر مكملًا طريقه بشجاعة وإقدام، بيد أن أولئك المفلتين لم يواصلوا أكثر من عدة أمتار قليلة قبلما يواجهوا سيلاً من السهام التي لم تسقط فوقهم عمودية فتحميهم دروعهم، بل بدت تنطلق بصورة مباشرة، فثسقت منهم من تصيبه، ولما أكمل من نجا من السهام حتى بلغ السور لم يقدرُوا على البقاء إلى جواره أكثر من بعض دقيقة قبل أن يُصب عليهم الزيت مرات بعد مرات، ورغم ذلك استطاع ثلاثة جنود أن يصنعوا ثقبًا في السور ظنوا عمقه كافيًا، من ثمّ وضعوا فيه البارود وأشعلوه قبل أن ينطلقوا عائدين، ليدوي انفجار لم يؤثر في صلابة صخور السور وسمكها، ذلك لأن البارود لم يكن محشواً على عمق كافٍ، أو أن تلك الأسوار صار سمكها من الأسفل يجاوز مترًا كاملًا.

بدا أنهم عندما أعادوا بناء تلك الأسوار وضعوا باعتبارهم

عدة نقاط، مثل زيادة سمك السور من أسفل بقدر كبيرٍ للغاية، كفاءة الرجمات، مخابئ الرماة، مخازن الزيت، وقطع الحجارة، فيما أغفلنا نحن أن بمقدورهم أن يصنعوا دفاعات بهذا القدر من القوة. اتضح لي أنه توجب علينا ألا ندعهم يعيدون بناء أسوار غولار، لأنها صارت عصية علينا، كما أن اقتصار التواجد بالداخل على الجنود وحدهم أدى لقدرتهم على الصمود لأطول مدى، فليس هناك عدد كبير من الخلق يحتاج للتزود، بل مجموعة من الجنود -كما قالوا سابقًا- قد يتقوتون على العسل من أعشاش النحل المعروف انتشارها داخل غولار.

بذات الوقت ظلت رائتاز على نفس صمودها لأكثر من شهر أمام قوات الشمال، لم يحدث أي تغيير على الأرض لدينا أو لديهم، لذا ما أن أتممت ثلاثة أيام بلياليهم أخذت قرارًا بإيقاف محاولات الاقتحام الغاشمة والمراهنة على طول الحصار حتى نفاذ المؤونة، فلو ظلوا يتغذون على العسل كما ادّعوا سينفذ النحل هو الآخر، واستكمالاً لهذا المنهج قررت تخفيض عدد الجند المحاصرين لغولار إلى النصف تقريبًا، حيث أمرت بتراجع ثلاثة آلاف من مقاتلينا نحو مملكتنا، بينما تركنا أربعة آلاف فقط حول غولار، لنقلل من عمل سلاسل الإمداد، ونقوم بتنظيم مداورة للجند المحاصرين، البعض يعود وغيرهم يبقى، ثم يأتي الدور على من بقوا



ليأخذوا راحتهم ويحل بديل لهم، ذلك كيلا يكل الجند أو يصيبهم اليأس مهما طال أمد حصار غولار، لا سيّما أن قربها من مملكتنا يجعل أمر المداورة يسيرًا.

من ثمّ عدت نحو المملكة لإدارة شؤونها، وكذلك لمتابعة ما يدور حولنا من صراعات، لتمر الأيام تترًا، وتبدأ مراسلات المتلصصين تتوارد إلينا، بدت بأول الأمر كعادة أخبارهم، أنباء يعرفها العوام من الناس، كأن كل ما قمنا به من إعادة تشكيل وتعليم وتزويد بالمال لم يأت بأي جديد، إلا أنهم بمرور الوقت وبتكرار تنبيههم وتوجيههم مرة بعد مرة، مع معاودة حثهم على التحرك بذكاء أكبر، سواء قمنا بذلك أثناء قدومهم للمملكة أو بمراسلتهم، أخذوا يتغلغلون شيئًا فشيئًا داخل قصور الحكم ودور السلاح وبيوت المستشارين والقادة ليحدث شيء من التغيير التدريجي في نوعية وقدر المعلومات التي صاروا يرسلونها، بيد أنه على الرغم من ذلك التطور إلا أنها لم ترقّ لكونها معلومات خطيرة أو حساسة أو لا يمكن توقعها، لكن هذا التقدم أعطاني شيئًا من الأمل في إمكانية أن يصبح لهم فاعلية أكبر مع مرور مزيدٍ من الوقت.

ليصدق حدثي بالأخير، وقبل مرور ثلاثة أشهر على حصارنا لغولار وحصار مملكة الشمال لرائتان، نجحت تلك الخلية المكلفة بالمملكة الأم لآربوس الجنوبية في اجتذاب

إحدى الوافدات التي تعمل وصيفة بقصر الملك، بعدما عرفوا أن بينها وبين كاتب مراسلات لاسيد شيئًا من الهوى، لتتغير المعلومات تغيرًا جذريًا، ويصبح ذلك الأمر مثل تفوقًا نوعيًا على ملك الجنوب ومملكته، حيث اكتشفت أن لاسيد يرسل الجميع من خلف رؤوس الجميع، يرسلني ويرسل حارث المعتاض بمملكة آربوس الشمالية ويرسل صهد برانتان، بنفس الوقت يقوم رجاله بمراسلة شبكة كبيرة من المتلصصين المنتشرين بكافة أنحاء آربوس شمالًا وجنوبًا ولدينا أيضًا، لكن مراسلات أولئك المتلصصين لم يأتنا علم بها لأن كُتابها مختلفون عن ذاك الكاتب الذي صرنا نعرف المعلومات من خلال حديثه مع عشيقته بعد ملاحظتها الهوى، لذا كلفنا رجالنا هناك بالعمل على محاولة الوصول لتفاصيل عن أولئك المتلصصين والتعليمات التي تُنقل لهم، ليبتدروا العمل الحثيث على ذلك، ويصلوا بمساعدة معلومات كاتب الملك إلى شيءٍ من التقدم بشأنهم.

استمر الأمر على ذلك، نتابع أخبار الجنوب وتحركاتهم، بل ونتابع أخبار رانتان أيضًا، من خلال رجالنا الذين يتجسسون على ملك آربوس الجنوبية ومراسليه ومتلصصيه، في حين استطاعت خليتنا بالمملكة الأم لآربوس الشمالية أن تصل هي الأخرى إلى قدرٍ من التوغل في قصر ضياء بن زايد، كما وصلوا أيضًا لأحد الوافدين الذي يعمل بسلاسل الإمداد التي

تمول القوات المحاصرة لرانناز بالزاد، لنبدأ في ربط ما يأتي من هنا وهناك، ونستنتج أن لاسيد يخطط لأمرٍ عظيم لم تضح معالمه بالكامل.

فقد لبث يراسل شهد دومًا، ويذكره بحلفهما، وأنه مستعد لأن يبعث من جنده من يفضوا الحصار المضروب عليه في مقابل تفعيل ما أسماه حلقةً كاملاً، واستخدام مارينا في استدعاء الذكران كي يصدوا تمدد مملكتنا، ويعادلوا قوة البارود والخوريات، فيما ينبهه مرة بعد مرة إلى أن المؤونة لديه لن تكفيهم لأكثر من عدة أشهر، في حين تعاندهم مملكة الشمال وتصر على الحصار.

بينما في ذات الوقت اعتاد أن يراسل حارث قائد جند الشمال موعزًا إليه بأنه لا يبتغي قتالهم، وأنه لا يريد أي شقاق بين الشمال والجنوب، مشيرًا إلى أنه يحاول إقناع شهد حاكم رانناز بأن يرضخ لحكم الملك ضياء ويتنازل عن فكرة آربوس الوسطى، ذلك لأن عدو آربوس كلها هو مملكة الوافدين، وهذا التشتت لا يجب أن يدوم، في حين ظل حارث المعتاض يلح عليه في معظم الرسائل من أجل أن يبعث له ولو خمس قنابل من البارود ينهي بها عصيان رانناز بدك أسوارها، ولبث لاسيد يرد قاسمًا بروح آربوس أنه ما عاد يملك أيًا من البارود، بيد أن حارث ظل على ثقة أن لاسيد ما

زال يملك قدرًا من البارود لم يستخدمه بحربهم ضدنا التي خسروها بالأخير.

بعد اكتمال الشهر الرابع من حصار رانتاز جاءتنا أنباء عن صهد أنه أخذ يتحير بين أمرين، أولهما أن يرسل الشمال لفض الحصار مقابل موافقته على الخضوع لآربوس الشمالية تحت حكم ملكها ضياء، وتسليم ميرا لهم، كذلك خلع الألقاب عن مارينا وجاد، لكن مع الاحتفاظ بهما لديه باعتبار أن مارينا صارت من عائلته، والأمر الثاني هو أن يطلب عون ملك الجنوب لفض الحصار على أن يأتي جنده خارج أسوار رانتاز الجنوبية بعد عبورهم نهر جودي، ليلتحق بهم سائر جند رانتاز من خلال بوابة السور الجنوبي، من ثم يفضوا الحصار دون دخول جند الجنوب داخل أسوار رانتاز، بينما لبث مستشاروه ينصحون بمواصلة الصمود وحسب باعتبار أن الصيف لفظ أنفاسه الأخيرة، وما إن يتوغل الخريف ومن بعده الشتاء سيصبح استمرار الحصار أكثر مشقة على فارضيه، مما قد يدفعهم إلى فضه مرغمين، لكنه بالأخير ومع خشيته من أمر المؤونة قرر مراسلة الشمال مقدمًا ذلك على طلب العون من الجنوب، وهو ما أسخط لاسيد ملك آربوس الجنوبية، في حين حدث تشاور بالشمال حول عرض صهد، وكادوا يوافقون عليه، إلى أن وصل لحارث المعتاض رسالة سرية عاجلة من ملك الجنوب تنبهه إلى أنهم إن

أرادوا حلًّا جذريًّا للأمر، فلا بُدَّ من خروج جاد وأمه مارينا من رانتاز، لأنَّ صهدًا قد ينتظر فض الحصار، ثم يعود عن عرضه وينصّب جاد ملكًا كما كان، عاقدًا العزم على ألا تتكرر نفس المكيدة التي أدت إلى تطويق رانتاز وحصارها، التي قد يتجنبها بعدما تعلم الدرس، ثم اقترح لاسيد في رسالته على حارث أن يشترط على صهد تسليم مارينا وولدها إليه في المملكة الأم لآربوس الشمالية، وإن عز على صهد ذلك فيقوم بتسليمهما إلى مملكة الجنوب كي لا يبقىان على أرض الشمال كلها، ولا تبقى هناك أي سلطة ملكية لجاد، واعدًا بأنهم لو جاؤوه بالجنوب، فلن يعيدهما أبدًا إلى صهد، بل سيصير أميًّا عليهما لا يسلمهما إلى الشمال أو إلى رانتاز، ليستجيب حارث لمكر لاسيد ويبعث رده إلى صهد بأنه يجب تسليم جاد وأمه إلى مملكة آربوس الشمالية، وإن لم يرتض ذلك يتم إبرام عهدٍ ثلاثيٍّ بين آربوس الجنوبية والشمالية ورانتاز، على ضوءه تسلّم رانتاز جاد بن زايد وأمه إلى آربوس الجنوبية، وتتعهد الأخيرة بالأ تعيدهما إلى مملكة الشمال مرة أخرى، وإن كان يعز على مالك بن صهد فراق زوجته، فمن الممكن أن تسكن في إمارة صوف بمملكة الجنوب، التي لا يفصلها عن رانتاز سوى الجسر المار فوق نهر جودي.

عندها ثارت ثورة صهد، وأقسم ألا يفاوض الشمال مرة

أخرى، إلا أنه لم يسارع بعدها إلى لاسيد يطلب عونه، بل ظل صامدًا لشهرٍ كامل حتى نهاية الشهر الخامس من الحصار، ثم بعث إلى لاسيد يطلب عونه، الذي أحسن الرد، لبيدًا التفاوض حول خطة القتال، وطريقة التحرك، وميعاد المعركة التي يبتغيان من خلالها قهر تلك القوات المحاصرة، إلا أن الغريب أن لاسيد في ذلك الوقت راسل حارث المعتاض، لكنه حرصًا منه على سرية الرسالة وألا تقع في أي يدٍ غريبة، بعث له رسوًلاً برسالة شفوية، حتى عندما بلغت حارث، فرض عليها السرية بقدرٍ كبير لدرجة أن رجالنا بالشمال لم يعرفوا مغزاها.

في هذه الأثناء وفي خضم تلك الأحداث وعلى مدار الخمسة أشهر لاحظت أن أفرودينا لم تعد بنفس نشاطها وحماسها في التحرك إلى جوارى، تقلصت همتها تدريجيًا شهرًا بعد شهر، إلى أن صارت لا تغادر المنزل في عديد من الأيام، كما جاءت بفتاةٍ من الحوريات لتساعدنا في أعماله، كذلك تراجع حديثها معي وجلوسها بالشرفة إلى جوارى واستبدلت ذلك بمسامرة تلك الفتاة التي استقدمتها. بقيت أحاول تغافل سائر التغيرات التي بدت تشير إلى حملها، حتى تسلل اليقين رويدًا رويدًا وبدأت بطنها في البزوغ مع بدايات الشهر الخامس، وقتها لا أدري لم حاولت تجاوز الأمر وعدم التحدث بشأنه معها كمن يحاول ألا يدرك ما حدث. لم أسألها أيضًا لم قلت همتها، ولم صارت تبقى بالمنزل حتى لا

أفتح لها بابًا لتأكيد الأمر أو نفيه أو الحديث عنه، بيد أنني بدأت أمهد حالي لالتزام جديد، طفل من صربي لن أدعه، لن أرحل دونه تاركًا إياه بهذا العالم القاسي، أما عنها فلا أعلم لم بقيت لا أشعر بتلك المسؤولية نحوها، ولم لبثت أشعر أنها شريك عليه الكفاح لأجل حاله ولأجل رسالته. لا أعلم لم ظل إحساسي نحوها مختلفًا عن مارينا وميرا وأم إسماعيل وسائر الوافدين بآربوس، كأنها استثناء لقاعدة تعاطفي مع كل من أقابل في طريقي، ثم إحساسي المتمك بالالتزام، حتى في تلك الليلة عندما جاءتني إلى الشرفة بعد بروز حملها، وبعد ملاحظتها أنني لاحظت الأمر، وابتدرت الحديث معي قائلة:

- الآن صدق حدثي وكذب حدثك.

لم أستطع أن أنقل لها أي شعورٍ أحمله نحوها سوى التزامي نحو ابني لأرد قائلاً:

- إن صار لي ابن فلن أتركه.

عندها قطبت حاجبيها وردت:

- هو ليس ابنك وحدك، إن كنت تتنوي ألا تتركه فاعلم أنني لن أتركه أيضًا، لذا عليك أن تضع في اعتباراتك والتزاماتك أن هناك أمًا لهذا الطفل، فلم يسقط عليك من السماء.

بدت متحدية لأول مرة منذ أن جاءت معي إلى بر آربوس،  
بدت قوية متمسكة بحق، وكأن فظاظتها انتشلتني من  
تجاوز وجودها وإهمال كينونتتها، أو كأنها لطمتني على وجه  
وعبي فأفقت، لذا رددت:

- أعلم بالطبع أنكِ أمه ولك نفس الحق مثلي أو أكثر، ما  
أعنيه أنني وقتها قد أصطحبكما معًا أو أبقى برفقتكما أو  
نتحدث بهذا الشأن وتوافقين على أن آخذه إلى عالمي مثلاً،  
ومن ثمّ تعودين لموطنك.

- كما أخبرتك من قبل، أنا لن أقيّدك إلى جوارِي، لكنني لن  
أترك ابني أبداً.

وقفت بعدها واتجهت ناحية باب الشرفة إلا أنها توقفت  
وقالت:

- قريباً ينتهي أمر رانتاز، لا أعلم من المنتصر، لكن ما أعلمه  
أن عليك أن تنتهي من غولار قبل ذلك، لذا عليك أن تحفر  
نفقاً بدايته مغطاة عن الأعين عند حافة الغابة ونهايته عند  
السور، ثم ضع بارودك كما تشاء لتنسف ذلك السور وتبدأ  
هجومك ليلاً.

أنهت جملتها ثم ولجت إلى الداخل، فيما شخصت عيناي  
متسائلاً: لم لم تخطر تلك الفكرة ببالي من قبل؟



## فخ التحالف

مالك

بعد تعنت مملكة الشمال مع عرضنا بشأن فض الحصار، قمنا بالتشاور في مجلس الحكم لدينا حول التفاوض مع لاسيد، لا سيّما أن المؤونة أخذت في التدهور مع تمام خمسة أشهر من الحصار الخائق. كنا نعلم جميعًا في مجلس الحكم أن لاسيد له من المطامع ما له في رانتاز، بل وفي سائر آربوس الشمالية، لكن بالأخير ارتأينا أنه حتى وإن دخل بعض جنوده إلى أرضنا وعقدنا حلقةً كاملاً معه تصير فيه آربوس الوسطى حليفة بشيءٍ من التبعية لآربوس الجنوبية، سيصبح خيرًا من تعجرف آربوس الشمالية في شروطها لفض الحصار، من بعدها قد نتحرر من تلك التبعية ما إن يصلب عودنا، ونؤمن أسوارنا بقدرٍ أكبر، بل ولا نقع بمثل هذه المكيدة التي أوقعنا فيها حارث بأول هجومه علينا، ومهما بلغ جند الجنوب من قوة، فيكفيينا تأمين الجسر المار من فوق نهر جودي أو قطعه حتى نقطع دابرهـم.

من ثمّ بدأنا في مراسلات لاسيد، أخذنا نتفاوض حول طريقة فض الحصار، طرحنا عليه فكرة محاولته غزو زورين كي يخفف من وطأة حصارنا بأن يرحل قدرٌ من جند الشمال إليها لغوثها من هجومه، وعندها تحاول قواتنا

فض الحصار وحدها، إلا أنه عارض ذلك مبررًا بأن لو ارتحل بعض جند الشمال إلى زورين فإن هذا لن يخفف من الحصار الذي استحكم حولنا بآلاف الجند، كما أضاف بأنه لا يريد استعداد الشمال فينتبهوا لأمره عند سائر المواقع، بل يبتغيها حربًا خاطفة واحدة لتحرير رانتاز، من بعدها تصير له قدم حقيقية بأرض الشمال، لذا بالأخير بدأنا التشاور معه بشأن خطة القتال التي سننتهجها، لكننا سألناه بأول الأمر عما إذا لبث يملك أيًا من البارود قد يساعدنا في رجم قوات الشمال، فأجاب مؤكدًا أنه ما عاد بحوزته أيٌّ منه، من بعد حربنا المشتركة على مملكة الوافدين، لأنه استنزف مخزونه في اقتحام أسوار غولار.

لذا أهملنا أمر البارود وأخذنا في التفاوض لعدة أيام، وبعد عديد من المراسلات اليومية والمقترحات بين الطرفين، مع الوضع في الاعتبار أن تمركز قوات الشماليين يقع بكثافة أكبر وقوة أشد عند المنطقة المقابلة للسور الغربي، وعند المنطقة المقابلة للسور الشمالي، وهما السوران اللذان فقدنا دفاعاتهما العلوية، اتفقنا أن يرسل لنا لاسيد خمسة عشر ألف مقاتل في جيشين يتحركان من إمارتين مختلفتين لديه، أولهما جيش يتحرك بالليله السابقة على المعركة في خمسة آلاف فارس مدرعين سواء بدروع خفيفة محمولة باليد أو بدروع كاملة، يخرجون من إمارة طليطل الجنوبية والواقعة

مقابل إمارة قسطنطينية لنا، ليعبروا الجسر الواصل بينهما فوق نهر جودي، من ثم ينضم إليهم خمسة آلاف فارس من قسطنطينية قبل أن يتحركوا جميعًا نحو رانتاز عبر الغابة، وما إن يقتربوا من أسوارنا الشرقية عند شروق الشمس، يتحرك جيشه الثاني -المقدر بعشرة آلاف مقاتل متنوعين- من إمارة صوف المقابلة لانتاز مباشرة، ليمروا عبر الجسر الواصل بيننا وبينهم، فيما تخرج قواتنا من بوابة السور الجنوبي عند إشارة التحرك ليهاجموا على قوات الشماليين التي تُعسكر جنوبًا عند نهر جودي على أول الجسر، وعند المعبد فتباغتهم وتفتح المجال لقدم جيش صوف عبر الجسر بلا مقاومة، من ثمّ تنتظم قواتنا مع هذا الجيش في صفوفٍ مشتركة لتطرد قوات الشماليين المحاصرة للسور الغربي، فيما يتكفل الجيش الأول القادم من قسطنطينية وطيبييل بقوات الشماليين التي تحاصر السور الشرقي والشمالي. أنهينا اتفاقنا على ذلك باليلة الحادية والعشرين من شهرنا، وحددنا موعد التحرك بيلة محاق القمر أي بعد ثمانية أيام من ليلة اتفاقنا الأخير، حتى يغلف الظلام تلك القوات التي ستتحرك مساءً.

بتلك الليلة وما إن عدت إلى غرفتي قابلتني مارينا بوجهٍ ممتعض بينما تجلس لدى أحد الكراسي الوثيرة الموضوعة بجوار باب الشرفة، كنت أعلم أنها تتابع التطورات أول بأول وتخشى غدر لاسيد، لذا اتجهت نحوها والتجأت إلى الكرسي

المجاور لها دون حديث، لتبادرني قائلة:

- أظنكم وصلتكم لاتفاقٍ أخير مع لاسيد.

هزرتُ رأسي ورددت:

- نعم، بعد طول مفاوضات وصلنا بالأخير إلى اتفاقٍ أظنه يؤمننا من محاولته الغدر بنا إذا ما أراد.

- لكنه بكل الأحوال ينتوي بكم غدراً.

- لا أظن، ليس في صالحه أن يغدر بنا وله خمسة عشر ألف جندي يقاتلون جنباً إلى جنبٍ معنا، سيرسل منهم خمسة آلاف إلى قسطنطينية المعركة، قبل خروج جندي واحد من أسوار رانتاز، من ثم يرسل العشرة آلاف الآخرين مع خروج قدر من جنودنا من بوابة السور الجنوبي كي يؤمنوا له الجسر الذي سيعبره جنوده. لن أبعث سائر جنودنا الذين سيشاركون في المعركة لتأمين عبور قواته كما في الاتفاق، بل سأبعث الثلث فقط وأغلق من خلفهم بوابات السور الجنوبي، ولما يعبر جنوده ونؤمن المنطقة الجنوبية كلها بهم وبمن خرج من جنودنا، عندها أفتح البوابة مرة أخرى ليخرج سائر جنودنا ليلتحقوا بذلك الجيش لكسر الحصار عن السور الغربي حيث يتمركز أكبر تجمع لقوات آربوس الشمالية.

- ألم تضع في اعتبارك أن يتحالف مع الشمال ضدنا في

هذه الحرب وينقلها علينا أثناء المعركة؟

- إن لاسيد يريد رانتاز في حلفه مثلما يريدنا الشماليون، إن سقطت في يد الشمال فلن يدخلها مرة أخرى، ثم إن المعركة خارج أسوارنا، فيما ستبقى قوات الأسوار لدينا في مواضعها، إن حدث مثل هذا الغدر فليس هو الذي سيفتح لهم رانتاز، إذن لم أتى بجنده إلى هنا كل هذه المسافة؟ كان أولى به أن يترك الشماليين لحصارنا وحسب حتى يفرغ زادنا.

- في الأمر شيء لا يريح قلبي، لا أعرف، ربما يكون حدثي مخطئًا، لكنني قد حكيت لك من قبل عن ذاك التاجر الجنوبي الذي لمَّح لزهرة عن متابعة ملك الجنوب لي، ألم يشكك ذلك الأمر في إخلاصه عندك؟ كل ما فعلته أنك عثفت زهرة على حديثها مع الأعراب، ثم بحثت عن التاجر ولم تصل إليه.

- لن نبني خططنا وسياستنا على قولٍ مبهم من شخصٍ قابل وصيفة ذات مرة، هناك عشرات الافتراضات، مثل أن تكون وصيفتك متوهمة أو كاذبة أو فسرت كلامًا بما لا يحمل من معنى، أو أن يكون هذا التاجر مدعيًا أو به مس من الخرف أو يفتح بابًا للحديث مع وصيفتك دون توجيه من أحد، ثم إن ملك الجنوب قالها لنا صريحةً في مراسلاته كما أخبرتك من قبل، إنه يريد عونك في استدعاء من يدعون

الذكور أو الذكران. لم قد يبعث تاجرًا ليعيد قوله؟

- لكنك لم تحاول أن تسأل ملك الجنوب ما إن كان فعل ذلك أم لم يفعله.

رددت بشيءٍ من نفاذ الصبر:

- لأن رده لن يختلف عما أقول. لم قد يبعث من يخابرك وقد طلب ذلك من خلالنا؟

مدت يدها، وأمسكت يدي برفق، التفثُ لها فنظرت في عيني وقالت:

- لم أشعر بتغييرك يا مالك؟ هل صرث ناقمًا علي وتراني سببًا فيما حدث لإمارتك؟

استكانت جوارحي مع لمستها، مددت يدي إلى جبهتها برفق ورددت:

- لا تقولي هذا، أنتِ تعلمين أننا هنا كنا معارضين لمخطط انقلابهم على مولاي جاد من قبل تقاربنا أنا وأنتِ. الشقاق مع المملكة الأم كان قائمًا من قبل لقانا، أما ما بعد اللقاء فإنني أواجه العالم كله لأجلك، دون أي نظرٍ نحو العواقب، بلا تفكير في المسؤوليات والتبعات، أنتِ في المقام الأول ثم يأتي سائر ما سواك.

- أعرف أنك تحمل هم رانتاز أيضًا، هم إمارتك وأبيك وأهلك، لذا ابقَ على ثقة في أنني طوع قراركم، لا تجعلني عقبة أمام نجاة سائر حياتكم، إن أردت الرجوع إلى عرض آربوس الشمالية بنقلي إلى صورف أنا وجاد لن أعارض، وإن أردت المواصلة مع ملك الجنوب فلن أمانع، لكنني أخشى عليك من هذه الحرب، ابقَ هنا معنا داخل رانتاز، واترك قادة الجند على رأس جيشك.

ابتسمت لها مطمئنًا قبل أن أحتضنها إلى صدري:

- لا تخشي عليّ يا فلذة قلبي، إن خرجت سأعود منتصرًا، لأجلك ولأجل رانتاز وأهلها.

لم تواصل الحديث من بعدها، استسلمت بين ذراعي صامته، بل ولم تبادر إلى معاودة النقاش في هذا الشأن مرة أخرى، فيما سارعت في الأيام التالية إلى تجهيز جنودنا على خطة خروجنا من السور الجنوبي عند ساعة التحرك. اتفقنا على تكثيف ضربات الراجمات أثناء فتح بوابة السور، من ثمّ يسارع ثلث جيشنا إلى الخروج، ليهجموا على مواضع تجمع قوات الشمال عند المعبد وعند أول الجسر، بينما تبقى نتابع سير القتال لنرى تحركات جيش الشماليين، وهل سيسارعون إلى دعم هذه المنطقة الجنوبية من الجند الكثيف الموجود لديهم بالجهة الغربية، أم سينتظمون هناك بالغرب في

صفوف القتال لمواجهتنا في معركة حقيقية. كان لا بُدَّ أن يتزامن هجومنا الأول مع حركة جيش الجنوبيين القادم من صورف عبر الجسر، لأنه لو حدث أي تأخير في حركتهم وانتبه الشماليون في الغرب لخروج جنودنا وتداركوه، فسيسارعون إلى الهجوم على من خرجوا من جيشنا قبل انضمام جيش الجنوبيين لنا، وقبل خروج بقية قواتنا، حينها سيهلك ذلك الثلث الذي خرج في البداية، وسيسارع الشماليون إلى قطع الجسر وتأمينه، فلن تعبر قوات الجنوب إلينا.

كما أنه لو تأخر ذاك الجيش القادم من قسطنطينية وطليطيل الذي سيواجه قوات الشماليين عند السور الشمالي والشرقي، فإن ذلك سيؤدي لزيادة الضغط على قواتنا التي ستخرج مع قوات صورف نحو المنطقة الغربية من الأسوار.

لذا استمرت المراسلات مع لاسيد طوال الأيام الثمانية تؤكد عليه وتنبهه إلى ضرورة تزامن كل تحركاتنا كما اتفقنا، إلى أن حلت ساعة تحرك جيشه الأول بليلة المعركة، ليلتها جاءتنا الحمايم من قسطنطينية، أبلغتنا بوصول جيش الفرسان من طليطيل إليهم، فأضحت بشارة خير لنا تدل على صدق لاسيد وإخلاصه، لذا أخذنا ننظم صفوف جنودنا أثناء الليل حيث تراصوا عند بوابة السور الجنوبي في ثلث متقدم من



الفرسان المدرعين بدروعٍ خفيفةٍ قدرهم أربعة آلاف فارس،  
وثلاثين متأخرين عنهم من سائر الجند، ومع أول خيوط  
النهار جاءتنا حمامة سوداء من الجنوب كإشارة على بدء  
التحرك، عندها أعطيت الأمر بإطلاق بوق الهجوم، فاندفعت  
أذرع راجمات السور الجنوبي تطلق الصخور والكريات  
المشتعلة، استمر ذلك لمدة دقائق معدودات، في حين فُتحت  
بوابة السور الجنوبي على مصراعيها واندفع الثلث المتقدم  
من فرساننا مع سقوط قذائفنا فوق الشماليين المتمركزين  
عند الجسر وعند المعبد.

ما إن خرج المتقدمون من جندنا عبر البوابة، انقسموا  
إلى فرقتين، بكل فرقة ألفي فارس، هجمت إحداها على  
قوات آربوس الشمالية عند المعبد، والأخرى هجمت عند  
أول الجسر. بقيت أتباع الأحداث من فوق السور الجنوبي،  
فيما كلفت من يأتيني بكافة تحركات الشماليين عند سائر  
الجهات الأربع، منتويًا الخروج مع ثلثي جيشنا المتبقين  
بأوان خروجهم، لأجد أنه ما إن هاجمت فرقتانا الأوليان  
قوات آربوس الشمالية، تخلخلت صفوف عدونا، فقد تفاجؤوا  
بهجومنا أثناء مبيت معظم جندهم بالخيام. لم يبذ مجهزًا  
فيهم سوى فرقة المناوبة الصغيرة التي حاولت أن تصد  
هجومنا أو تعطله لحين استعداد سائر الجند، لكنهم لم  
يتمكنوا من ذلك، فاضطروا إلى الفرار غربًا بصحبة من

استيقظ من النائمين سواء ركبان أو راكضين، فيما وقع البعض الباقي أسرى في أيدينا.

في تلك الأثناء بدأت قوات آربوس الجنوبية في الوصول بكثافة كبيرة عبر الجسر، توافدوا مسرعين لينتظم السابقون منهم في صفوفٍ استعدت للقتال ما إن وطأت أقدامهم أراضينا خارج الأسوار، وصار من يأتي بعدهم ينتظم في الصفوف خلف المتقدمين، ل يبدو أنهم وضعوا فرسانهم المدرعين بدروعٍ كاملة في المقدمة، أتى بعدهم الفرسان المدرعون بدروعٍ خفيفة، ومعهم بذات الترتيب فرسان رماة للأسهم، بالأخير بدأ توافد المشاة، لأعطي أمري بإطلاق البوق الخاص بفتح البوابة للمرة الثانية، ويندفع بقية جيشنا ليلتحق بصفوف جيش الجنوبيين، بينما كان الجيش القادم من قسطا وطليطيل قد وصل مشارف سورنا الشرقي، وانطلقت أبواق قوات الشماليين هناك عند السور الشرقي والشمالي، ليبتدروا تنظيم صفوفهم ليواجهوه.

خرجت من بوابة السور على فرسي الأسود أمام ثلثي جيشنا، أردي درعًا ثابتًا للصدر فوق لباس الحرب، متمنطقًا بسيفي، ودرعي المحمول على ظهري، فيما لازمني عن يميني قائد جندنا في نفس تجهيزي، ورافقنا عن جانبينا فارسان مدرعان بالكامل يحملان أعلام رانتان، ذلك قبل

أن نتوجه نحو مقدمة جيش الجنوبيين لأقود الجمع وفقًا لاتفاقنا، بينما أخذ جندنا من الثلث المتقدم والثلثين المتأخرين في الانتظام جنبًا إلى جنب مع صفوف الجنوبيين كل فئة إلى جوار مثيلتها، كأن هذا الجيش المشترك صار مقسومًا لشطرين، الأيمن منه تنتظم فيه قوات رانتان، والأيسر به قوات الجنوبيين، فيما بلغنا أن قوات الشماليين سارعت لتنظيم صفوفها في جيشين كبيرين، أولهما بالمنطقة الغربية ليواجهنا، والآخر بالمنطقة الشمالية ليواجه قوات قسطا المدعومة بقوات طليطيل، من ثمّ خطبُ في ذاك الجيش المائل أمامي بالصبر والثبات، وأنهم مع الحق وروح أربوس شاهدة على ذلك، ولما أنهيت حديثي تراجعت إلى مؤخرة يمين ساحة القتال مع حملة الأعلام، لتشرع الصفوف في التقدم ركضًا مع ضرب الأبواق. لاقينا قوات الشماليين عند منتصف المنطقة الغربية وسط أرضٍ قاحلة لم تزرع بسبب الحصار، عن يميننا سورنا الغربي، وعن شمالنا تخوم الغابة، لتلتحم الصفوف في المقدمة، ويرتفع سهيل الخيل وصليل السيوف.

شيئًا فشيئًا حمى وطيس المعركة، لا سيّما عند انتصاف النهار، بدا أن ميمنة جيشنا التي انتظم فيها جند رانتان صارت أكثر إقدامًا على الهجوم على الشماليين، أخذوا يقاتلونهم بشراسة وإقدام ويعملون فيهم القتل لدرجة

أن انتظام الصفوف أصبح مائلًا. صارت الميمنة متقدمة ومتوغلة في نطاق جيش الشماليين، في حين أن ميسرتنا التي انتظم فيها الجنوبيون بقيت متأخرة عن الميمنة بقدر كبير، بيد أنهم كانوا يبلون بلاءً حسنًا. فسرت ذلك بأنهم من المؤكد كانوا في حركة تجمع بآربوس الجنوبية طوال الأيام السابقات، لذا لحقهم شيء من الإجهاد، أما جنودنا فلم يتحركوا إلا بضع مئات من الأمتار من داخل الأسوار إلى خارجها، كما جاءني الأخبار من عند المعركة الدائرة لدى السور الشمالي أن قوات قسطا أيضًا تُقاتل بشراسة أكبر عن قوات الجنوبيين الملتحقة بهم.

استمر الأمر على ذلك حتى اقترب الغروب، لكن بدأت تبرز بوادر غلبة للشماليين في ميمنتهم التي صارت تضغط على الجنوبيين في ميسرتنا وتعمل فيهم القتل، ليختل ميزان الصفوف لدينا ولديهم أيضًا، لدرجة أنه كاد الأمر يتحول إلى وضع معكوس، فجنود رانتاز بميمنتنا يضغطون على ميسرة الشماليين، وميمنة الشماليين تضغط على الجنوبيين بميسرتنا، إلى أن بدأ ضوء الشمس في الخفوت تدريجيًا، فأطلق جيش الشمال بوق التراجع من عنده، لآمر بإطلاق بوق التراجع من عندنا، وبذات الوقت جاءني الأخبار عن المعركة الدائرة بالشمال، أنها توقفت ذات توقفنا دون نصرٍ حاسم.

أعطيتُ أوامري أن يعود جيشنا إلى نطاق السور الجنوبي خارج رانتاز، في المنطقة الواقعة بين هذا السور ونهر جودي، وأن يعود جيش قسطا المدعوم بقوات طليطيل إلى نطاق السور الشرقي خارج إمارتنا أيضًا، كي نكون بذلك حررنا الجبهتين الجنوبية والشرقية تحريراً كاملاً، فيما تمركز الشماليون عند الجبهتين الشمالية والغربية، وقتها وصلنا رسول من جيش الشمال طلب الاتفاق على نقل الجرحى وجثث الموتى من ساحة القتال، وأن تستمر الهدنة حتى الشروق، فوافقناه على ذلك، ثم بدأنا في نقل جرحانا ومفقودينا، بينما بدأ العمل من عند بوابة السور الجنوبي، وبوابة السور الشرقي لجلب زاد ومؤونة وخيام لتلك القوات التي تُعسكر خارج الأسوار، كما جاءت سلاسل إمداد من صورف عبر الجسر لتدعم جنود آربوس الجنوبية إلى جانب دعمنا لهم.

بدا الوضع مضطرباً يحمل كثيراً من الهرج والتخبط، فهناك من يحملون محفات المرضى، وغيرهم ينقل الجثث على عرباتٍ يجرها الخيل، يدلفون إلى داخل رانتاز بينما غيرهم يخرجون بأواني الطعام، قوارير ماء، أغطية وخيام، في حين توافد خلق آخرون من الجسر أخذوا يفرغون ما يحملون قبل أن يعودوا بجرحى وفقدي، لكننا بقينا مطمئنين

لأن قوات الشمال من المستحيل أن تهاجمنا خلال الليل، ذلك لأنهم منهكون بقدر إنهاكنا أو يزيد، إلى جانب اتفاق الهدنة، من ثمّ رتبنا مبيت تلك القوات بقدر المستطاع، حيث وجد القليل منهم خيامًا ليبيت فيها والأكثرية باتوا ليلتهم بالعراء، ساعدهم على ذلك ليلة خريفية هادئة حملت قدرًا من الدفء، إلا أن الجميع تناول من الماء والزاد ما يكفيه، ووجد غطاءً يدثر به جسده أثناء رقوده، في حين انقسمت المبيتات إلى قسمين بكل جيش، عندنا بالغرب انتظم جنودنا في قسم، وانتظم جنود صورف في الآخر، وبالشرق أقاموا قسمًا لجنود قسطا، وآخر لجنود طليطيل.

ما إن استقر الأمر بعد تمام رفع سائر الجرحى ونقلهم إلى دور العلاج برانتاز، وانتهاء المشيعون من دفن موتاهم في مراسم مقتضبة، استدعيت قادة جند رانتاز وقادة جند ذاك الجيش القادم من صورف، وأرسلت في طلب قادة جند طليطيل وقسطا، اجتمعنا لدى خيمة أمرت بنصبها للقيادة، لم يسعف الوقت لتجهيزها سوى بمصباح زيتي وفرشة صوفية بأرضها، لذا جلس بعضنا بأرضيتها في دائرة كبيرة، ووقف من خلفنا البقية، من ثمّ بدأنا التشاور بشأن ما حدث وما نتويده حتى تصير لنا الغلبة في اليوم الثاني من القتال، كيلا يستمر الأمر على هذا الحال لعدة أيام دون انتصارٍ مرجح.

أخبرنا قادة جند الجنوبيين أن مقاتليهم جرى تجميعهم على مدار الثمانية أيام السابقة، وبتلك الليلة السابقة تحديدًا من الممكن القول بأنهم لم يذوقوا طعمًا للنوم، سواء في ذلك من جاؤوا من طليطيل أو من جاؤوا من صورف، مؤكدين على أنهم ما إن يأخذوا قسطًا كافيًا من الراحة بليلتنا، سيصبح قتالهم بالمعركة أشد شراسة، لذا اتفقت معهم على أن نحاول تسيير القتال على وتيرة واحدة كيلا تطوّق قواتنا ونستطيع الضغط على صفوف العدو إلى أن يلتجئوا للتقهقر والتراجع، فيما نصدر بزحفنا إحساس الهزيمة إليهم حتى يوقنوا فيه، وعندها يلوذون بالفرار، لكن طالما بقوا متقدمين في جبهة ومتأخرين في أخرى سيبقى لديهم الأمل في التفوق، كذلك أوعزت إليهم بالمرور على جندهم صباحًا قبل المعركة، وتحفيزهم بأنه إذا ما انتهت الحرب لصالحنا ستوزع عليهم سائر الغنائم ولن تأخذ سلطة رانتاز أيًا منها.

إلا أننا أثناء اجتماعنا جاء لدى الحراس أمام الخيمة من طلب لقاء قائد قوات صورف، قال الحرس أنه أحد قادة سرايا الفرسان الخفاف لديهم، خرج إليه قائده ثم عاد متغير الوجه بعد دقائق، قبل أن يجلس في موضعه أمامي ويردف:  
- يقول إن هناك معلومة جاءت مع سلاسل الإمداد من

صوف أدت إلى انتشار شائعة بين الجنود، يقولون إن قوات الشماليين كانوا يعرفون باتفاقنا على التحالف من قبل هذه الحرب بعدة أيام، وردًا على تحالفنا التجأوا للتعاهد مع يوسف سيد الوافدين، وافقوا على إعطائه غولار التي استعصى عليه دخولها مقابل أن يمنحهم بعض قنابل البارود، وبذات المعاهدة اتفقوا على عدم الاعتداء بينهم لمدة عام.

رددت عليه مقطبًا حاجبي:

- ولم لم يستخدموا البارود في حربنا حتى الآن إن ملكوه؟  
- هذا ما سألته أيضًا، لكنه رد بأن يوسف لم يدخل إلى غولار إلا بليتنا هذه، وأن قنابل البارود في طريقها إليهم.  
أخذ يساورني القلق والريبة، هل الأمر مجرد خدعة لأجل بث روح الهزيمة في نفوس قواتنا، أم بالأمر شيء من الجدية؟ لكنني حاولت التمالك، ورددت نافيًا بشيء من الاستفهام:

- لا أظن أن حارث المعتاض قد يلجأ إلى التفاوض مع يوسف مهما بلغت قلة حيلته، هو لا يعتبره أكثر من متمرّد، عاجلاً أو آجلاً سيسقط مهما استفحلت قوته، ويرى سائر الوافدين مجرد جردان لن يقووا على العيش بعيدًا عن الجحور مهما طال بهم الأمد خارجها.



عندها تدخل قائد قوات طليطيل في الحوار رادًا:

- أظن يا سيدي مالك أن هذه حرب قد تُغير كل القواعد، مما لا شك فيه أن حارث يعرف قدر مملكة الجنوب وبأسها، وأنها لو دخلت حليفًا مع آربوس الوسطى فاحتمالية انتصار هذا الحلف هي الأكبر، ومعنى وحدتنا وتغلبننا في هذه الحرب أننا من بعدها سنواصل لنغزو معًا سائر أرض الشمال. إن هذه الحرب ليست مجرد معركة فاصلة في تحديد مصير رانتاز وحسب، إنما معركة وجودية لمملكة آربوس الشمالية ومملكة آربوس الوسطى، لذا لا تستبعد أن يقدم أي طرف على أي قرار.

أنصتُ إليه باهتمام، بدا حديثه مقنعًا في جانب التفكير الطبيعي، أما إحساسي فلبث ينفي ذاك التحالف المزعوم، إلا أنني استجبت لصوت العقل وتناولت طرف الحديث قائلاً:

- إذا علينا أن نضع في اعتبارنا احتمالية أن يصدق هذا الحديث. هناك هدنة حتى الصباح، كيف من الممكن أن يستخدموا البارود في معركتنا القادمة؟ أنا أرى أننا نتفوق عليهم في القتال، والبارود كما تعرفون جميعًا تتضح ميزته الكبرى في التحصن وليس الهجوم، لأنه ما إن تلتحم الصفوف لن يصبح له قيمة.

رد أحد قادة جند قسطا الذي كان واقفًا خلفي:

- أرى أن الخطر الأكبر هو استخدامه في قذفنا بواسطة  
الراجمات قبيل الالتحام، وقت هجومنا تحديداً، أو  
باستدراجنا إلى مدى يحدده سلفاً كما فعل يوسف بجيوشنا  
فوق الجبال بعدما عاد بحورياته.

أجلت الأمر بذهني للحظات قبل أن أرد:

- لا أظنهم يستطيعون رجماً بالبارود قبيل الالتحام، إنهم  
ها هنا خلف هذه الأسوار، ليسوا بعبيدين عنا، يحتاجون أياماً  
لفك راجماتهم وإعادة تركيبها حتى تسقط قذائفها عند ساحة  
القتال، بل ويحتاجون إلى تجربة مدى الراجمات ومكان  
سقوط قذائفها لعدة مرات كي يضبطوا موقع الاستهداف  
بالتحديد، ولا يوجد متسع من الوقت لهذا أو لذلك، أما إن  
استخدموا تلك القنابل الصغيرة التي تُلقي باليد فهي لن  
تُعطل هجومنا، ستقع بعض الخسائر قبل الالتحام، إلا أنه  
مع اندفاع الفرسان سيضطرون إلى إيقاف هذا العبث، أما  
بخصوص أسوارنا فلو جاءهم البارود مبكراً قبل قدوم  
قوات الجنوب الضخمة إلى حلفنا، لحاولوا اقتحام أسوارنا  
والهجوم علينا داخل إمارتنا، ومع الفارق الكبير في تعداد  
القوات بيننا وبينهم قبل التحالف، كان من الطبيعي أن يصبح  
النصر حليفهم، لكن الآن لم قد يلتجئوا لإحداث فجوات في  
السور؟ بكل الأحوال هم مقصدنا ونحن مقصدهم بداخل

رانتاز أو خارجها، أينما سيتجمعون سنواجه.

أشار الجميع برؤوسهم موافقين، لذا استكملت حديثي قائلاً:

- أنا أرى أن تسرب هذه الشائعة جاء لصالحنا حتى نستعد لها جيداً، لا بُدَّ ألا يصدّروا لنا إحساس الهزيمة، بل على النقيض لا بُدَّ وأن نهوّن من أمر البارود. ما إن نخرج من اجتماعنا أريدكم أن تقابلوا قادة السرايا، وتشرحوا لهم ما قلته لكم الآن حتى ينقلوه لجندهم، لم يعد للبارود قيمة بهذه الحرب التي تتلاحم فيها الصفوف وتتقارب مواقع تمرکز القوات، إن حاولوا استخدامه سيصيبهم ويصيبنا.

استدرتُ مولياً وجهي نحو قادة الجنوب واستأنفت:

- وعليكم الآن أن تحسنوا تجهيز جندكم وتحفيزهم، إن حارث المعتاض لو امتلك البارود فأول ما سيفعله إن انتصر في هذه الحرب هو أن يهاجم أراضيكم بالجنوب انتقاماً من تحالفكم معنا، اشحذوا همم جندكم بذلك وضيفوا على هذا حديثنا عن الغنائم التي سنجنبها إن انتصرنا في هذه الحرب، بل وازرعوا فيهم الأمل أننا إن انتصرنا قد نكمل لدخول المملكة الأم لآربوس الشمالية، وعندها ستكون غنيمة الجندي الواحد منهم تكفيه طيلة عمره.

أنهيت حديثي معهم على ذلك كي أتركهم لينفذوا ما أوعزت به إليهم قبل استسلام قادة السرايا للنوم، من ثم عدت نحو قصر الحكم ممتطياً فرسي وسط ثلاثة من حراسي، كي ألقى والدي ثم أنال قسماً من التفكير الهادئ وحدي، فلم أكن مقتنعاً بالكامل بكل ما حفزت به قادة الجند؛ قد يصير البارود وبالأعلى علينا إن ملكوه، لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحدث بالغد وما رد فعل صفوفنا إن هاجمونا بواسطته، لكني بقيت أحاول بث الطمأنينة في نفسي، مردداً أنه ما إن يحدث الالتحام ستختفي أي رجاحة للبارود، ذلك إلى أن بلغت القصر. وجدت مارينا وأمي ينتظراني لدى استقبال البهو، بدتا متلهفتين لاستماع الأخبار، أحسست أن أنباء البارود انتشرت أيضاً داخل رانتاز من قبل أن ينطقا، لذا أوسعت ابتسامة كاذبة على وجهي ما إن بلغتهما، احتضنت مارينا، ثم احتضنت أمي قبل أن أجلس أمامهما قائلاً:

- أين أبي؟

ردت أمي:

- ينتظرك بمجلسه مع كبار مستشاريه، لكن قل لي قبلما تذهب إليه، أصحيح كانت لنا الغلبة بمعركة اليوم؟

أشرت برأسي موافقاً:

- لو قاتل جند الجنوب بنفس كفاءة جند رانتاز لكنا طردنا أولئك الغزاة عن حصارنا اليوم، لكنهم بدوا منهكين من الترحال والتجهز على مدار الأيام السابقة، أظن أن خلاصنا سيصير عيانًا بالغد.

- لكن، هل ما يتداولونه صحيحًا؟ هل تحالفوا مع سيد الوافدين علينا وأعطاهم من باروده؟

- لا أعلم يا أمي، هي شائعة انتشرت لا أعلم هل مصدرها صحيح أم مخطئ، لكننا استعدنا لكافة الظروف والأحوال.

تدخلت مارينا في الحوار:

- من المستحيل أن يمنحهم يوسف أيًا من باروده.

التفتُّ لها:

- يقولون أنهم منحوه غولار في مقابل منحهم البارود.

- حتى وإن منحوه زورين، يوسف لم يمنحهم البارود.

- ما الذي يجعلك على هذا القدر من الثقة؟

تلجلجت للحظات قبل أن ترد:

- أنا أعرف ذلك، ولا تسألني عن أسباب، لقد قابلته من قبل وأعتقد أنني استطعت قراءته، قل أنه إحساس أو توقع، لكنه

لم يمنحهم البارود، ثم إنه يضع ميرا نصب عينيه، أيمنحهم  
بارودًا يقذفون به رانتاز فيصيبها؟

ابتسمت بغير اقتناعٍ ثم رددت:

- على كل الظروف علينا أن نستعد لهذا الأمر، ثم نتمنى أن  
يصدق حدثك.

أنهيت حديثي معهما ثم التحقت بمجلس أبي، شرحت لهم  
الأمر كاملاً على كافة جوانبه، مؤكداً على أن يوم غد سيصير  
يوماً حاسماً في تاريخ رانتاز، ذلك قبلما يصرف أبي سائر  
مستشاريه ويجلسني إلى جواره في صف المجلس الأيمن  
قائلاً:

- هل نبعث بأمك وأخواتك وزوجتك إلى قسطنطينية  
سرية تامة؟ إنهم لا يحاصرونها الآن، وإن سقطت رانتاز قد  
يتفاوض حاكمها على حمايتهم مقابل رجوعه لتبعية الشمال.

عقدت حاجبي:

- ماذا تقول يا أبي؟ إن أسوارنا لن تُحترق، ولن نسلم لهم  
حتى لو أكلنا الرمال، ثم إننا نقاتل بالخارج كي ندحرهم،  
وسنظل نقاتل حتى آخر ذراعٍ حي نملكه، إذن لم هذا الطرح  
الآن؟

- أخشى أن تدور الدائرة علينا ولا نستطيع حينها تدارك الأمر.

- لن تدور علينا، وإن دارت سنموت جميعًا هنا بين أسوار رانتاز.

أنهيت حديثنا على ذلك، ثم صعدت إلى غرفتي برفقة مارينا، ما إن أغلقت الباب خلفنا أخذتني من يدي، أجلستني على طرف سريرنا، ثم نزلت على ركبتيها أمامي حتى صارت رأسها فوق ركبتني بقدرٍ ضئيل، أمسكت يديّ وقالت:

- سيحدث شيء سيئ غدًا، يوسف لم يمنحهم البارود، لكن تلك الشائعة التي جاءت من الجنوب ليست مطمئنة، هناك تخطيط ما، هناك خطب ما، لا تغادر الأسوار، أو عد بجيش رانتاز، أو غير من خططك، هناك شيء ما صدقني.

سحبث جسدها برفقي إلى أن أجلستها إلى جوارِي، أمسكت كتفيها ورددت:

- لا بُدَّ وأن تشعري بأن هناك خطبًا ما، فالحروب لا تحمل سوى الخطوب الثقيلات، لكني لن أخذل جنودي وأتركهم، ولن أخذل أولئك القادمين من الجنوب لنصرنا.

- لم يأتوا لنصرنا، أو إنهم مغرر بهم مثلنا.

## احتضنتها قائلاً:

- ستنسين كل ذلك بالغد.

عند الفجر قمث من رقودي الذي ما غفلت فيه عيناى ولو للحظة، اتجهت مسرعًا برفقة حرسى إلى معسكر جندنا بالجنوب، أمرت بإطلاق بوق الاستيقاظ والتجهز، ليمر قدر ساعة ويصطف جيشنا نفس اصطفاف أمس، من ثمّ تحركنا حتى لاحت لنا ساحة القتال، وجدنا صفوف الشماليين انتظمت هي الأخرى أمامنا، لكنهم بدوا أكثر ابتعادًا بقدر يسير، فرقنا قدر ثلاثمائة ذراع. كنت متعجلًا على الالتحام حتى أفقدهم ميزة البارود إن ملكوه لذا لم أوقف المسير، وما إن بلغنا ذاك الموقع أمرت بضرب بوق الهجوم، لتنطلق قواتنا تنهب أقدام خيلها الأرض، إلا أننا ما إن قطعنا قدر خمسين ذراعًا رأيت قوات الشماليين لا زالت تقف في مكانها دون حركة. استغربت الأمر لوهلة حتى وجدنا قذائف البارود تنطلق من مؤخرة جيشهم، رأيتها من موقعى لما أطلقت، بدت راجمات صغيرة وبدائية في صفين متتاليين كل صفٍ منهما بقدر عشر راجمات، الراجمة لها ذراع بقدر جذع شجرة صغيرة، وقائمتها بقدر جذع متوسط، ثقلها الأمامى صخرة، ومركز الإلقاء نحت في الجذع. ألقوا دفعة من الصف الأول بما يقرب عشر قذائف، سقط معظمها متفجرًا أمام



مقدمة جيشنا دون تأثير علينا، في حين سقطت واحدة أو اثنتان وسط صفوفنا لتطير أشلاء الجند والخيل في إطار التفجيرين.

صرخت من موقعي بمواصلة الهجوم الحثيث كي نلتحم ونفوت عليهم فرص معاودة الإلقاء، لكن لم تمر لحظات وانطلقت دفعة جديدة من القذائف من لدى الصف الثاني من الراجمات، بدت تلك الدفعة أكثر تأثيرًا حيث سقط معظمها وسط صفوفنا، إلا أن جيشنا كان يجاوز العشرين ألف مقاتل، من المستحيل أن يتأثر بمثل هذا الأمر، لكن ما أذهلني أنني سمعت صريخ قادة سرايا الجنوب يصرخون في جندهم:

- تراجعوا قبل أن تفنوا بالكامل، تراجعوا وانجوا بحياتكم، تراجعوا عن حربٍ ليست حربنا، عودوا إلى الجسر، عودوا إلى الجسر، عودوا إلى الجسر.

ظلت الجملة الأخيرة تتردد بينما بقيت شاخص العينين للحظات، لا أعرف ماذا أقول، وكيف أمنعهم، بل كيف أحمي المملكة إن غادروا، في حين أخذت صفوفهم عن ميسرة جيشنا في التوقف، بل وأخذت مؤخرة صفوفهم في التراجع، لتتوقف صفوف جند رانتاز هي الأخرى باليمين، لا تدرك هل تواصل الهجوم وحدها أم تتراجع، حتى صارت حالة من الهرج في ساحة القتال. ما هي إلى لحظات ووسط

ذهولي كأنني في كابوس يجثم فوق صدري، سمعت من  
يصرخ مخبرًا أن جند طليطيل الجنوبيين ينسحبون أيضًا  
من الجبهة الشمالية تاركين جند قسطا وحدهم، ومع صريخه  
عاودت القذائف سقوطها، لكنها لم تكن دفعة من عشر  
قذائف بل صارت تسقط قذيفة تلو أخرى، إلى أن سقطت  
خمس قذائف وسط صفوفنا. كان كل تفكيري وقتها أنهم لا  
يملكون أكثر من ذلك، أي أن مخزونهم أوشك على النفاد، وإلا  
لاستمروا في الدفعات العشرية، فصرخت في جند الجنوبيين  
بالرجوع، صرخت فيهم بأن مخزونهم نفذ، إلا أنهم ظلوا  
مواصلين في هروبهم من الساحة، لأسمع عندها أبواق هجوم  
الشماليين أخذت تنطلق، عندها صرخت في جند رانتاز  
بالتمدد في الميمنة والميسرة فانتظموا. لم يكن أمامي خيار  
غير ذلك، منتويًا الصمود إلى الغروب، حتى فض الاشتباك،  
من ثم التحم الجيشان أمامي بمعركتنا، بدا جندنا صامدين  
لأجل أهلهم بالداخل، لكن لم تتوقف الأخبار عن السقوط  
فوق رأسي كما الصواعق، فما هي إلا عدة دقائق وجاءني نبأ  
انسحاب جند قسطا هم الآخرون من جبهة السور الشمالي،  
لتصبح الجبهة كاملة بلا دفاع عنها، ثم جاء النبأ الذي كسر  
عزيمتي وهو أن قوات الشماليين ما إن هرب جيش قسطا  
وطليطيل نجحوا في اختراق السور الشمالي بواسطة البارود  
ودخل بعضهم إلى رانتاز فيما يتجه البقية نحو ساحة

معرکتنا.

## غدر الجنوب

مارينا

في فجر اليوم الثاني للقتال حول رانتاز انتبهت مع استيقاظ مالك، بالأحرى لم أذق طعامًا للنوم، إلا أنني لم أقم من رقودي أثناء تجهزه، بقيت في مكاني كأني مستغرقة في نومي، يقبض قلبي إحساس بالخوف والترقب، لذا لم أريد وداعًا قاسيًا أو عتابًا أو نقاشًا، إلا أنني بقيت موقنة من حدثي، في الأمر خطب جلال، لن يمر اليوم مرور الكرام. انصرف سريعًا لأبقى على حالي مترقبة، إلى أن حضرت طلائع الشروق وجاءتني زهرة ومعها جاد، بقينا سويًا إلى أن سمعنا صوت تفجيرات خارج الأسوار تأتي من ناحية الغرب والشمال، عندها انتفضت أنا وزهرة إلى الشرفة، بقينا لدقائق فيها، قبل أن نسمع صوت تفجيرات جديدة بدت أقرب، ناحية السور الشمالي، ثم سمعنا تفجيرًا آخر ناحية الشرق، بينما بدأت تظهر بوادر جلبة بحديقة القصر من جنود وعربات تتحرك إلى داخل سور القصر وخارجه.

حينها جذبتني زهرة إلى داخل غرفتي قائلة:

- لا بُدَّ أن نهرب.

وقفت منتبهة:

- لماذا وإلى أين؟

- لقد صدق حديثهم وستقتحم قوات الشمال أسوار رانتاز، لا بُدَّ أن نبحت عن ذاك التاجر الجنوبي.

- أنا لن أترك مالك.

- قد يهرب مالك نفسه نحو الجنوب أو نحو قسطا، وإن وقع أسيرًا بأيديهم سيكون سعيدًا إن هربت ولم بأسروك.

بقيت مترددة للحظاتٍ لتواصل زهرة قائلة:

- دعيني أملك مقتنياتكم سريعًا، فقد يأتي مالك الآن ويطلب منك سرعة التجهز، وإن تأخر فلا بُدَّ أن نتخذ قرارًا.

وافقتها بإيماءة من رأسي، لكن لم تمر دقائق ووجدنا من فتح باب غرفتنا، بدوا من حراس القصر، طلبوا منا النزول مسرعين إلى البهو لأن الحاكم شهد جمع بناته وأبناءهن وسائر عائلته منتويًا الهروب بهم نحو قسطا بسبب خيانة الجنوب لنا وسقوط رانتاز. لم نجادلهم في الأمر، بل ولم نبدل ملابسنا، تبعناهم نحو الأسفل لأجد أخوات مالك واثنين من أزواجهن وسائر أطفالهن، كذلك بعض زوجات مستشاري شهد وأبنائهم، جميعهم بملابس النوم أو المنزل، بينما يعج القصر حولهم بالحرس، لأفاجأ ما إن بلغت البهو بإحدى أخوات مالك تنظر نحوي صارخة:

- لم جلبتموها؟ إنها سبب البلاء، اطردها من أرضنا أو سلموها للمحاصرين، بديلاً عن ضياع زوجي وأخي اللذين يقاتلان بالخارج بسببها.

تعالَت الهمهمات والصيحات بينهم، منهم من يُسكتها، وغيرهم يردد كلامها، إلى أن ظهر صهده خارجاً من مجلسه يتبعه بعض مستشاريه، صرخ فيهم جميعاً:

- إياكم والشقاق الآن، أسرعوا إلى العربات بالخارج حتى نلحق بقوات قسطنطين المغادرة عند البوابة الشرقية.

أخذ الجمع ينفذ إلى خارج القصر مسرعين، لنجد بعض العربات المغلقات، وكثيراً من الجند بحديقة القصر فوق خيولهم، بدوا مستعدين لاصطحابنا بجانب الحرس الذين خرجوا معنا. التحقت النساء بالعربات، وركب الرجال والحرس خيولهم، فيما ركبنا أنا وجاد وزهرة في عربة وحدنا، لينطلق الركب عبر بوابة سور القصر خلال دقائق معدودات. بدأ الهرج بالطريق الرئيس عارماً؛ نساء تحمل أطفالها وتهرول جنوباً، رجال يحاولون التشاجر مع ركبنا في حين يدفعهم الجند بخيلهم أو يهددونهم بالسلاح، وبعض صريخ من هنا وهناك على نكبة رانتاز، لكننا لم نقطع إلا مسافة قدرها مئتي ذراع قبل أن نجد سرية من الفرسان تقابل ركبنا من بعيد خلال نفس طريقنا، بدأ أنهم من جنود

آربوس الشمالية الذين اخترقوا السور الشمالي، حيث ظهر علمهم عاليًا يرفعه أحدهم، ليتقدم حرس القصر وسائر الجند الذين كانوا بصحبتنا نحو مقدمة الركب، وتنشب بينهم وبين المهاجمين معركة حامية بقلب الطريق، فيما استدار قائدو العربات ليخلفوا طريقهم، واصطحبنا بعض جنودٍ لم يبلغوا العشرة فرسان.

قطعنا الطريق الرئيس متجهين جنوبًا، إلى أن انحرفنا في دربٍ متجه نحو البوابة الشرقية وسط ذات الهرج، لكننا قبل أن نصل مشارف شرق رانتان، ظهرت سرية أخرى من آربوس الجنوبية، بدا عددهم كبيرًا يجاوز مئة فارس، استوقفونا من بعيد بإشارات من أيديهم، ثم اقترب أحدهم ليتحدث مع الجنود، سمعته يقول إنهم سرية من جيش طليطيل الجنوبي، ولا يريدون سواي أنا وجاد كي يتركوا البقية يرحلون في طريقهم. عاد أحد الجند المصاحبين لنا نحو صهد الذي كان يركب أول العربات مع خولة وإحدى بناتها برفقة أولادها، حادثه الجندي للحظات قبل أن يعود نحو قائد سرية الجنوب ويشير نحو العربة التي أركب فيها، عندها سمحوا للركب بالمرور، فيما لم تتحرك عربتنا، بل نزل قائدها يركض مع الركب، قبل أن يأتينا قائد سرية الجنوب، فتح باب العربة قائلاً:

- ستمتطون الخيل معنا، فالأمر أصبح عاجلاً.

أنزلونا من العربة وأحضروا لنا فرسين امتطيناهما أنا وزهرة، بينما احتضنت جاد أمامي، بقينا صامتتين لا نتحدث ولا نجادل، تائهتين لا ندرك ما الأصلح لنا، في حين يأكلني قلبي على مصير مالك، ويكاد يطير عقلي من التفكير فيما هو قادم من أمري وأمر جاد، حتى انطلق ركبنا بين طرقات رائتاز متجهين نحو الجنوب، بدا أن الإمارة صارت مخترقة؛ هرب جند الأسوار، وجند دار السلاح، وسائر الحرس، بينما صارت تعبت بداخلها تشكيلات صغيرة وسرايا مختلفة من الجنوب والشمال ممن سبقوا إلى الاختراق. بقينا في طريقنا حتى توقفوا بنا عند دار السلاح للحظات، إلى أن خرجت منها سرية جنوبية أخرى بقدر سریتنا، رأيت ميرا بصحبتهم مكبلة اليدين، جاؤوا بفرسها جوار فرسينا أنا وزهرة، بدت شاردة مثلنا لا تعرف إلى أين يأخذونها، حتى وقعت عينها علي أنا وجاد، سألتني بعينيها لكني لم أجب، من ثمّ واصلنا في طريقنا حتى بلغنا بوابة السور الجنوبي التي وجدناها مفتوحة على مصراعيها، عبرناها منطلقين نحو الجسر المؤدي إلى صوف.

ما إن بلغنا مشارف الجسر وجدنا لديه زحامًا شديدًا، آلاف الجند فرسانًا ومشاةً يحاولون العودة إلى أربوس الجنوبية،



لكننا ما إن وصلنا لديه ضرب أحد جنود الجنوب بوقًا عاليًا لينتبه سائر الجند ويتوقفوا عن الحركة.

صاح فيهم ذاك القائد الذي أخذني أنا وزهرة من عربتنا قائلاً:

- فليعبر الذين سبقوا إلى الجسر ويتوقف البقية حتى تعبر سرية حرس الملك لاسيد.

ما إن سمعوا قوله توقف التدافع عند مدخل الجسر، في حين تحرك من كانوا فوقه إلى الجهة الأخرى حتى فرغ سطحه بالكامل، لتبدأ سریتنا في التحرك نحو آربوس الجنوبية، بينما لا أدري ما مصير مالك أو أسرته أو سائر رانتاز. جاوزنا الجسر لنعبر إلى الضفة الأخرى من نهر جودي، وجدنا جند آربوس الجنوبية بأعدادٍ كثيفة لدى الناحية الأخرى أيضًا، منتشرين في تلك المنطقة الواقعة بين ضفة النهر وسور صورف الشمالي، بيد أنهم أخذوا ينتظمون في صفوفٍ كأنهم يستعدون للقتال بهذه الناحية على الرغم من انسحابهم هاربين، وتركهم جيش رانتاز يقاتل وحده. تحركنا بعدها قليلًا حتى ولجنا من بوابة صورف الشمالية، بدت البلدة مثل رانتاز في رونقها، من حيث شكل البيوت الحجرية والدروب الرئيسية المتسعة، لكن الوضع فيها لم يكن مضطربًا، بل لم يدخلها جندي واحد من الفارين،

استنتجت مما سمعت من أحاديث أنهم سينتظمون بالخارج عند ضفة نهر جودي لمنع تدفق جند رانتاز وأهلها هارين، كذلك لصد أي هجومٍ محتمل من قوات آربوس الشمالية، فيما دخلت سرينتا لأنها سرية خاصة بحرس الملك وهم أعلى مقامًا من سائر الجند.

واصلوا بنا إلى أن بلغنا قصرًا ضخمًا بأقصى جنوب شرق صوف، قبع بتلك الزاوية من الأسوار وحده، يستند سوراه الجنوبي والشرقي على أسوار البلدة نفسها في هذه البقعة، فيما تركوا أمام سورهِ الأمامي الضخم ساحة كبيرة فارغة لدى ناحيتيه الشمالية والغربية، جاوزنا بوابته بصحبة ذاك القائد وبضعة عشر فارس من جنده، فيما ظل بقية السرية بالخارج. ما إن بقينا بالداخل نزلنا عن الخيل ليستلمها حرس البوابة ويعقدون أربطتها في مربطٍ لها عن يسار المدخل، في حين بدأ فناء القصر مختلفًا عن سائر أفنية القصور التي عرفتها. رأيتُ بداخله يسارًا ساحةً كبيرةً للخيل ملحقةً بها مبيتاتها، كما استقرت عن أقصى اليمين عدة راجمات ضخمة، فيما بدت الحديقة مقسمة إلى قسمين يقطعهما طريقنا إلى درجات مدخل القصر، القسم الأيمن ارتكز فيه مجلس خشبي كبير تظله شجرة ضخمة باسقة الأطراف، أما القسم الأيسر بدا مثل ساحة صغيرة للتدريب على القتال.

لم ندخل من درجات القصر الرئيسية، بل تجاوزناها وأكملنا في طريقٍ أمام واجهته يسارًا حتى بلغنا المجلس، وجدنا له بابًا خارجيًا يقف أمامه بعض الحرس. هنا توقف سائر الجند، ودخل معنا ذاك القائد وحده برفقة اثنين من حرس بوابة المجلس، بدا مجلسًا كبيرًا به ثلاثة صفوف من المقاعد عن كل جانب من جانبيه المتقابلين، بينهما ممر متسع ينتهي بمقعد رأس المجلس الذي استقر فوق مصطبة مرتفعة بالمؤخرة، فيما بدت مقاعد الصف الأول كبيرة ووثيرة، تبعها صفان من المقاعد أصغر لدى الجانبين.

حيًا قائد السرية ذاك الجالس على مقعد رأس المجلس مخاطبًا إياه بجلالة الملك لاسيد، لأجده كهلاً يبدو في السبعين من عمره، يزين رأسه تاج كبير يحوي ثلاثًا من لآلي الميلاد، فيما يرتدي عباءة مزركشة بالعديد من الألوان. لم يتحرك من موضعه، بل أشار بيده بما يعني اجلسوا. كان الصفان الأول والثاني بكل ناحية ممتلئين بالكهول ممن بدوا مستشاري لاسيد وأعضاء مجلس مشورته، فالتجأنا إلى الصف الثالث يمينًا، جلسنا لديه أنا وزهرة وميرا التي لبثت مكبلة اليدين، بينما استبقيت جاد فوق قدمي. جلس ذاك القائد عن يميننا، وجلس أحد الحارسين عن يسارنا، في حين انصرف الآخر. ظل لاسيد يسمع تحاور مستشاريه، إلا أنه منذ دخلت إلى قاعة المجلس غير دفة وجهه ناحيتي ولم

يحولها مرة أخرى، ليمر قدر دقائق معدودات، ثم يشير بيده  
فينصرف معظم من كانوا بالمجلس سوى خمسة أعضاء من  
مستشاريه بقوا بالصف الأمامي الأيسر، من ثم أشار للقائد  
فاصطحبنا إلى الصف الأمامي الأيمن، جعلني بمقدمة الصف  
لأصير أكثر قريبًا من لاسيد، من بعدي جاءت زهرة، ومن  
بعدها ميرا، وجلس هو بالأخير، فيما انصرف الحارس.

بادرني لاسيد قائلاً بصوتٍ أجش:

- لقد أقمت هذه الحرب لأجل مجيئك إلى هنا، أنت من  
ستغيرين مصائر هذه الأرض، لكن من خلالي أنا.

رددت وسط اختناقٍ بصدري ودموعٍ حُبست بمقلتي:

- لكنكم خذتم رانتاز، لم تساعدوها.

- إنهم من حاولوا طلب ود الشمال للتفاوض من أجل فض  
الحصار، قبلما يأتون إلينا، رغم أنهم حلفاؤنا، فتيقنت أن  
عقيدة الولاء للشمال لديهم متأصلة، ولما أخفقوا في التوصل  
لاتفاقٍ عادوا نحوي يطلبون عوني، واضعين شروطهم بعدم  
دخول أسوار رانتاز، هم من قدموا التخوين وليس أنا، لأتيقن  
أنني إن ساعدتهم ثم طلبت منهم العون بإرسالك نحوي  
لرفضوا وامتنعوا، لذا كان لزامًا علينا أن ندخل رانتاز ونجلبك  
بأيدينا.

- إذن أنت من مولت الشماليين بقنابل البارود.

ضحك بملء فيه بينما ابتسم مستشاروه الخمسة،  
فواصلت بعدما فرت بعض قطرة من مدامعي:

- لكن كيف تمولهم بالبارود بينما جنديك يقاتلون معنا  
ضدهم؟! ولم بعثت جنديك إن انتويت أن تنصر الشماليين  
علينا؟

عندها نظر لاسيد نحو أحد مستشاريه، فتحدث ذاك  
المنظور إليه قائلاً:

- أنتِ تجلسين أمام أعظم ملوك آربوس وأقدمهم، من  
ارتأى بحكمته أنه لو ساعد رانتاز على فض الحصار فلن  
يمنحوه مطلبه وهو أنت، وإن ساعد الشماليين بإرسال  
البارود لهم دون تدخلنا فلن يمنحوه أيضًا مطلبه، لذا اتفق مع  
الشماليين أنه سيبعث جنده لمؤازرة رانتاز في العن، وأثناء  
الليلة الأولى بعد توقف المعركة سيسرب البارود لهم في  
الخفاء، كذلك أوعز إليهم أنه بصبيحة اليوم التالي سينقلب  
على جند رانتاز عند السور الغربي، وعلى جند قسطا لدى  
السور الشمالي، ثم يقاتلهم مع الشماليين، بحيث يحصروهم  
بالمنتصف في المعركتين، لكن ما إن ظهر هرج التفجيرات  
بصبيحة اليوم الثاني انسحبت قواتنا الجنوبية، وتم اقتحام  
أسوار رانتاز، وبينما بقيت قوات الشمال منشغلة بقتال

جند رانتاز في جهة وجند قسطا في الأخرى، توغلت بعض سرايانا داخل رانتاز وجلبتك. هو أقام حربًا أقنع أطرافها أنه مع كل طرفٍ منهم، فيما أراد أن يأخذ ما أراد ويتركهم يتقاتلون، فمولاي لاسيد يعرف مقصده من البداية.

- وماذا عن جندكم الذين لقوا حتفهم؟

- الجند لا يعلم بخطط الحروب، قادة سراياهم فقط من كانوا على درايةٍ بكل الأمر، الجند ذهبوا للمعركة نصرَةً لرانتاز كما تُعلن مملكتهم، ثم سمعوا شائعة البارود التي هزت قلوبهم بالمساء، وفي الصباح ما إن رأوا تفجيراته وسمعوا قادتهم يأمرهم بالانسحاب تماثلوا. لم نخسر الكثير منهم، بل عدة مئات في اليومين، ضحوا بأرواحهم لأجل بقاء هذه المملكة، بل ولم نخسر كثيرًا من البارود الذي كان متبقيًا لدينا من تلك السنوات التي اعتاد يوسف أن يبعثه لنا، فالجرة الواحدة من بارود يوسف كنا نقسمها في خمس جرار، لذا فكل ما بعثناه من بارودٍ إلى الشماليين لم يتجاوز خمس عشرة جرة من جرار يوسف.

توقف عن الحديث للحظات، ثم حوّل نظره نحو ميرا قائلاً:

- أما أنتِ فلا نعلم كيف عرفت أننا لا نكن الود ليوسف كما تُصدر له، لكن ما نعرفه ولا تعرفينه هو أن ذاك الرسول الذي أنبأكِ رسالة يوسف هو رسول لنا، أحد رجالنا برانتاز،

حين طلب يوسف منا إبلاغك هذه الرسالة قمنا بذلك لأجله، لتظني أنه من رجالكم وتبعثي معه رسالتك التي لم تبلغ سوانا، لنستقصي عن أمرك ونعرف أنك أحد القلائل الذين يعرفون صنعة البارود، لذا استعدي لأن يكون لك شأن عظيم أو عذاب مقيم.

ما إن أنهى مقولته أشار له لاسيد بيده فتوقف عن الحديث، ليقول لاسيد بصوته الأَجَش الوخيم:

- نحن نخبركم بقدر ما كابدناه لأجل الإتيان بكم إلى هنا، بأرض آربوس الجنوبية، المملكة الأقوى بسائر بر آربوس. ابتعدنا بكم عن الفتن والحصار والحرب، لكن هذا كله ليس بلا مقابل، والمقابل هين وهو الولاء الكامل لهذه المملكة في الحال والمستقبل.

نظر نحوي مشيرًا بإصبعه وقال:

- أنتِ ستجلبين الذكور طائعين، وسنحافظ لكِ على قدرك، فتعاملين كالملكات، ذلك إن لم تصيري ملكة حقيقية، كما سئبقي على قدر ابنك كأميرٍ أو كنجلٍ لملكة، طالما بقيتِ في كنفنا وتحت رعايتنا، لكنه لم تعد له أية صفة ملكية لدينا.

ثم تحوّل بنظره نحو ميرا مضيئًا:

- أما أنتِ فستصنعين البارود، وفي المقابل ستصيرين على



ذات درجة قادة الجند لدينا.

كفكفت دموعي ورددتُ باضطرابٍ:

- وما مصير جند رانتاز؟ ما مصير زوجي مالك؟

- انسي أمره، لن يفلت من قوات الشمال، حتى إن حاول الانسحاب فإن تعليمات جنودنا هي عدم السماح بمرور أي من جند الشمال أو جند رانتاز إلينا كيلا يثيروا الهرج والنزاعات هنا بأرضنا. سينحصر جيش رانتاز ما بين الشماليين أمامهم، والنهر من خلفهم؛ سيقعون ما بين أسير وقتيل وغريق، وقليل منهم سيجد للهروب وسيلة، لكن ليس القادة والأمراء.

صرختُ لا شعوريًا:

- أنت ملك خائن، أنت ملك مخادع!

ليشير وقتها لذلك القائد بمعنى الانصراف؛ قام الأخير، أمسك ذراعي وأخذ يشدني بينما أحمل جاد حتى خرجنا من المجلس، فيما أوعز لجنده المنتظرين بالخارج بأن يأتوا بميرا وزهرة، ليسوقونا جميعًا نحو درجات القصر الرئيسية، ثم بهوه، ومنه إلى غرفة بطابقه العلوي، أدخلونا إليها ثم تركوا ثلاثة من الحرس أمام بابها. ما إن صرنا بداخلها ولجت ميرا إلى شرفتها، أخذت تتلفت يمينًا ويسارًا، بينما جلسنا



أنا وزهرة وجاد لدى طاولةٍ استندت إليها أربعة من المقاعد الخشبية. بقيتُ أحاول أن أتمالك حالي لأجل جاد الذي أحسست بانتفاضات جسده وذعره بسبب تلك الحالة التي كنت عليها. أخذتُ شهيقًا طويلًا، مسحت وجهي، ثم اقتربت إلى مقعده وابتسمت قائلة:

- لا تقلق، أمك بخير يا صغيري.

ابتسم عندها بعد طول عبوس ورد:

- إذن أنا بخير يا أمي.

داعبته بأنفي على أنفه، وأخذت أمارحه إلى أن عادت ميرا، جلست على المقعد الرابع وقالت:

- يبدو أنه ليس هناك أي منفذ للهروب.

رددت بشيءٍ من فقدان الأمل:

- وإلى أين تظنين أنك قد تهربين؟ إلى رانتاز التي اقتحمها الشماليون، أم تعتقدين أنك قد تقطعين كل هذه المسافة نحو مملكتك دون أن يلحقوا بك؟

- أريد أن أهرب من قبضتهم أولاً، ثم أفكر خطوة تلو أخرى، لكن يكفي أن لي وطنًا ومملكة أقصد بلوغها، قديمًا لم يكن لنا سوى كهوفٍ ورعاة، قبائل مثل الأنعام. ألا يستحق الأمر

مني الآن أن أجازف لأجل الوصول حتى وإن أمسكوني مرة  
بعد مرة؟

مع حديثها رأيت صورة مالك أمامي، من جعل لي وطنًا بعد  
طردي من آربوس الشمالية، من ضحى لأجلي بسلامة إمارته،  
من صرث سببًا في هلاكه وتشتيت شمل أهله. وكان ميراث  
أحست أن حديثها أثار شجونني، لا سيّما أنني صرت الآن بلا  
وطن، بلا مملكة، بلا هوية، لذا استطردت حديثها قائلة:

- وأنت أيضًا لم يعد لك وطن سوى مملكتنا. إن يوسف ما  
أقام تلك المملكة إلا من أجل إرساء مأوى لمن لا مأوى لهم،  
لأجل مساواة كاملة بين الخلق هنا، ما بالك وأنت رفيقته من  
تلك الأرض الغريبة؟ سيكون لك قدر كبير لدينا.

ابتسمت وأضافت:

- قدر بالمملكة وليس بقلبه.

ابتسمت لخفة ظلها على الرغم مما نقاسيه، لكن الغريب  
أنني لم أشعر بتلك الرغبة في منازعتها على قلبه، وكان طاقة  
النزاع بداخلي نفذت، أو أنني تنازلت عن كل القضايا العالقة.  
لم أعد أرغب سوى في قدرٍ من السكينة، وقدرٍ من الأمان،  
إن وفرهما لي يوسف بركنٍ قصي بمملكته سأكون شاكرة ولا  
أطلب المزيد، لذا رددت:

- كما أخبرتك من قبل، أنا لا أريد الآن سوى هروبٍ من كل هذا العالم. خذيني إلى مملكتك إن استطعتِ، امنحيني بيتًا صغيرًا يطل على البحر من قمة الجبل، وفري لي قدرًا ضئيلًا من الزاد يقيمني أنا وابني وزهرة، ثم لا أريد أية إضافة.

- إذن عديني ألا تعاوني هذا الماكر الغادر إن فرقت بيننا الخطوب، وأنا أعدك أنني سأتي لأجلك.

أخذتُ جاد على قدمي، احتضنته إلى صدري، فنظرت له ميرا كأنها فهمت ما أقصد، وهو أنني ما أخشى على شيءٍ سواه، ثم بالأخير أضفت:

- أعدك أن أبذل قصارى جهدي من أجل ألا أساعدهم في الإضرار بكم.

## تمدد

يوسف

عرفنا أن الحرب حول رانتاز صارت قاب قوسين أو أدنى من خلال مراسلات لاسيد مع صهد، لذا أصبح لزامًا علينا قبل انتهاء حصارها سواء بالفض أو الاقتحام أن ننهي أمر غولار، وقتها كنتُ أفكر في هجمة انتحارية على أسوارها، نُضحي خلالها ببعض الجند مهما بلغ عددهم حتى نتمكن من زرع البارود بأعمق نقطة بقلب السور، لكنني لبثت أتراجع كلما عقدت العزم على ذلك مخافة ألا ينجح الأمر وأخسر ثقة الجند في قراري، إلى أن جلست مع أفرودينا قبل ليلة المحاق بعدة أيام، وبعد حوارٍ احتد بيننا أرشدتني إلى فكرة النفق التي هالني أنني لم أفكر فيها على الرغم من ارتباط الأنفاق بذاكرتي ومسيرتي هنا، بل وارتباطها بكل وافدي الجبال، لكنني بدأت من اليوم التالي في تنفيذ مخططها. ما إن أشرقت الشمس أمرتُ بتجهيز أربعة آلاف من جنودنا بالمملكة، على أن يصطفوا بقلعة سرايوس. لما أتموا تجهيزهم ذهبت على رأسهم إلى غولار، ابتغيت بذلك العودة إلى نفس قوام جيشنا بأول هذه الحصار استعدادًا للاقتحام. هناك اجتمعنا بقيادة الجند مساءً وأمليتهم قراري بحفر ذاك النفق، على أن يبدأ مدخله من بين أشجار الغابة وينتهي

أسفل سور غولار، بينما أوعزت لهم بأن يجعلوا الأمر سرّيًا للغاية لا يُدرك خبره إلا من يختارونهم لأعمال الحفر، مع التنبيه مشددًا عليهم بالألا يتناقلوا الأمر مع زملائهم من الجند تحرّزًا من وجود متلصصين بيننا.

باشرنا العمل من الصباح التالي، بينما أخذتُ أشرف بنفسي على عملية حفر النفق وتدعيمه بجذوع الشجر، لا سيّما أن التربة في هذه المنطقة بدت مزيّجًا ما بين التربة الرملية مع الطينية، فيما كان قادة الجند يظنونهم نفقًا لا يحتاج أي تدعيمات مثل تلك الأنفاق التي حفروها في صخور الجبال قديمًا، لذا صرت أتابع التقدم في أمر النفق، وأقيس المسافات داخله بنفسي، مع محاولات القياس فوق الأرض بالتقريب، حتى بلغنا أسفل السور الغربي لغولار قبل المحاق بليلتين، لتصيبنا دهشة عارمة من مدى سمكه، لذلك قمنا بوضع كميات كبيرة للغاية من البارود تحته مباشرةً عند آخر النفق، وأطلقنا فتائل الإشعال بقدرٍ كبير، من ثمّ أعددنا سائر الجند للاقتحام بالليل السابقة على قمر المحاق، لكن دون أن نخبرهم بخطة الاقتحام أو كيفيته.

عند منتصف الليل اكتمل اصطفاف القدر الأكبر من جنودنا في صفوف القتال، لدى المقدمة انتظم فرساننا المدرعون، تلاهم فرسان خفاف، ثم المشاة، بيد أنهم بقوا متوارين بين

أشجار الغابة في الناحية الغربية دون إشعال أي مشاعل، فيما ظل القدر الباقي من الجند في مواضع الحصار حول سائر أسوار غولار الأخرى، وما إن جاوزنا منتصف الليل بساعة أعطيت شارة التفجير، ليدوي انفجار هائل لم يسبق أن شاهدت مثله منذ صنعت البارود، لدرجة أنني أحسست أنه أضاء السماء وصم الآذان قبل أن يتطاير على إثره جزء كبير من سور غولار الغربي بما فوقه من جنود، من ثمّ انهارت المنطقة المحيطة بذاك الجزء المتطاير. لبثت لحظات حتى تماكنت نفسي، ثم أمرت بإطلاق بوق الهجوم.

انطلقت قواتنا تقتحم تلك البلدة بعد حصارٍ دام فوق الخمسة أشهر، في حين لم نلق أية مقاومةٍ تُذكر، فقد كان مشهد التفجير مع تطاير أشلاء الجند الذين كانوا فوق السور الغربي كفيلاً بخلع قلوب بقية جنودهم الذين أفلتوا من الموت بالبارود، كما أدركوا على حين غرة أن السور الذي ظلوا يحتمون فيه طيلة المدة السابقة، انهار في طرفة عين، فلم يعد هناك أي أمل لهم في انتصار، لذا استسلم معظمهم في موضعه، صاروا يتركون أسلحتهم ويضعون أيديهم فوق رؤوسهم راكعين، ليبادر جنودنا إلى سوقهم نحو دار السلاح بغولار لتجميعهم وحبسهم بسجن دار السلاح وثكناته، بينما لم نجد في البلدة من المدنيين سوى قليلٍ من الوافدين والمعمرين لم يجاوزوا عدة مئات تركنا لهم الحرية في

الرحيل أو البقاء، ثم أمرت بإراحة الجند ما إن انتهينا من تأمين سائر مواضع الدفاع بغولار، فيما ذهبت نحو مجلس قصر الحاكم وجلست لدى كرسيه أمرًا بجلبه مكبلاً نحوي، بينما بقيت أستحضر ما تم حكيه لي عما جرى بهذه البلدة حين دخلوها، كذلك صرث أستحضر مشهد رأس فارس وفرقتة الذين قطعوا رؤوسهم عند سفح الجبال إلى أن جلبوه مكبل اليدين والقدمين، أوقفوه أمامي وسط صفي مجلسه. نظرت نحوه قائلاً:

- كنت سعيدًا لرفضك الدخول في حلفنا، لأنني صرت على يقين من هذه النهاية التي تقف فيها مكبلاً أمامي.

رسمت ابتسامة تشفي على وجهي وواصلت:

- أخبروني أنك من أمرت بتلك المذابح التي جرت على أرض هذه البلدة حين دخلتموها، ذلك على الرغم من أنني حين دخلتها للمرة الأولى أمنت معمرها قبل وافديها، ولم أؤذ جنودها، لكنكم تصرون على كبركم واستعلائكم، وقد جئت هذه المرة لأنهيه بلا رجعة.

ظل واقفًا أمامي منكس الرأس لا ينطق، فأخذت نفسًا طويلاً وقلت بلهجة صارمة:

- لقد منحتك فرصة للتكفير عن شيء من ذنبك بحقن

الدماء والتسليم لنا بلا قتال، إلا أنك رفضت متماديًا في غيك، لذا أمرت أنا يوسف ملك مملكة الوافدين بذبحك من فوري، وتعليق رأسك على باب غولار كي تكون عبرةً لمن يأتوا من بعدك، ليس لرفضك حلفنا، ولكن لتنكيلك السابق بأهل هذه البلدة من الوافدين.

جحظت عيناه وأخذ يصرخ، يطلب العفو تارة، ويهدد بالانتقام تارة، إلى أن أخذه الجند إلى الخارج نحو ساحة دار السلاح، من ثمَّ قاموا بذبحه أمام سائر جنده قبل أن يسارع بعض جنودنا بتعليق رأسه على بوابة غولار الشرقية.

في الصباح أمرتُ بإعادة بناء الجزء المتهدم من السور على وجه السرعة، وبذات الدقة التي كان عليها، كذلك أعطيتُ أوامري بصناعة راجمات جديدة لهذه البقعة كي توضع فوقها ما إن ينتهي البناء. ما أثار إعجابي هو تلك الطريقة التي بُنيت بها هذه الأسوار، بدت سميكة للغاية من الأسفل، زاد سمكها عن مترين كاملين، وكلما ارتفع البناء كلما قل السمك تدريجيًا، كما زودوها في منتصف ارتفاع الأسوار بغرف صغيرة بها صهاريج للزيت مثل قدور كبيرة مملوءة به، بينما تمر فوق مواقد تشتعل بالحطب مع صنابير ما إن تُفتح يندفع الزيت خارج الأسوار مشتعلًا، وبالأخير هبأوا بالأعلى مخابئ للرماة لا يكاد يظهر من خلالها الرامي.



لكني بقيت أرى أن قنابل البارود بمختلف أحجامها سواء اليدوية أو تلك التي توضع بالأسهم أو المقذوفة بالراجمات تظل هي الوسيلة الأفضل والأكثر فاعلية لأجل التحصن، لذا أرسلت في طلبٍ قدرٍ كبير من البارود من قلعة سرايوس. ما إن بلغنا قمنا بتوزيعه على مواضع الراجمات أعلى الأسوار، مع توزيع الرماة وملقمي الراجمات، فيما انتويت بعد إتمام تأمين البلدة أن أبعث جالبًا قدرًا من الفلاحين والرعاة لإعادة زراعة تلك الأراضي الخصبة المهجورة، لأننا بهذه المرة لن ننتظر أن يأتي إلينا المهاجمون حتى أسوار غولار، بل سنواجههم بالغابة قبل الأسوار بآمادٍ بعيدة.

بقيتُ أرتب أمر غولار لمدة ثلاثة أيام سابقًا الزمن، لكن ما هالني هو أنه بمساء اليوم الثالث وبينما قصدت قصر الحاكم لأبيت ليلتي، فإذ بأحد قادة الجند يأتيني بهو القصر قبيل صعودي إلى غرفة مبيتي ليخبرني بأن هناك سرية بقدر ألفين جندي جاءت من ناحية زورين عند سور غولار الشرقي، يرتدون زيًا حربيًا بني اللون، وهو ما يشاع أنه زي جنود رانتاز، ثم توقفت بعيدًا عند أحراش الغابة، قبل أن يتقدم من عندهم جندي واحد حتى بوابة ذاك السور، خاطب حرسها قائلاً أنه الأمير مالك بن صهد حاكم رانتاز، وطلب لقاء الملك يوسف سيد الوافدين، فأمرت بإدخاله وحده وترك سرية بالخارج لحين النظر في أمره.

انتظرتة بمجلس الحاكم على مقعد رأس المجلس، ليأتي برفقة قادة جندي الثلاثة، أحسسته منكسرًا في تقدمه ووقوفه بين يدي على بعد ثلاثة أمتار، أحسست ضعفه في انحنائه أمامي معظماً من شأني، لكنني انتظرت ما سيكشف عنه حديثه، أشرت لهم بالجلوس، فالتجأ قادتي للصف الأيمن، بينما اعتدل مالك في مكانه قائلاً:

- لقد جئتك ليقيني أنك عادل في حكمك وشريعتك، لم تكن يوماً نصيراً للظلم، لذا جئت أشكو إليك ظلمك لنا، وأطلب أن ترفع عنا ما أصابنا جراء ذلك.

عقدت حاجبي مستنكراً ثم سألت:

- وفيم ظلمتكم؟

- نحن أصحاب الحق، لم نغتصب سلطة ولا ملك، بل نصرنا الملك الشرعي وأمه مارينا، في مواجهة جور حارث المعتاض وأتباعه، ولما اجتمعوا علينا طلبوا نصرك فنصرتهم وهم على الباطل ونحن على الحق.

- من نصرهم؟ أنا؟ كيف إذن نصرتهم؟

ضيّق ما بين عينيه مستغرباً ردي واستأنف:

- بمنحهم البارود الذي غلب كفتهم وأدى لانسحاب قوات

الجنوب التي جاءت توأزرنا، مما أسقط رانتاز بين أيديهم.  
انتفضت واقفًا في مكاني، فلم تكن الأخبار قد جاءتنا بعد،  
ثم سألته:

- هل سقطت رانتاز حقًا؟

استغرب اندهاسي غير المفتعل، لكنه أشار برأسه مجيبًا،  
فاتجهت نحوه في خطواتٍ وثيدة، أمسكت كتفه الأيسر  
بيدي اليمنى مواصلاً:

- وما كان مصير ميرا وزوجتك مارينا؟

- ما عرفته قبل هروبي أن سرية من جند طليطيل أخذتهما  
نحو أربوس الجنوبية.

اتجهت نحو صف الكراسي الأيمن، وأسقطت جسدي فيما  
ظل واقفًا أمامي فقلت:

- احك لي ما حدث؟

أخذ يحكي عن مخططهم مع ملك الجنوب لفض الحصار  
حول رانتاز، حتى وصلت قوات الجنوب بالصباح التالي لليلة  
المحاق، ثم حكى عن أحداث اليوم الأول من القتال، وتلك  
الشائعة التي ظهرت بمساء المعركة، مدعين بأنني دخلت  
غولار بتلك الليلة مقابل منح البارود للشماليين، فقاطعته رادًا

بأنني دخلت غولار بالليلة السابقة على ليلة المحاق، وليس بالليلة اللاحقة عليها، مؤكدًا أنني دخلتها عنوة بهدم سورها ولم أدخلها وفقًا لأي اتفاق، لكن دار بذهني بينما أرد عليه أن خبر قرب دخولي إلى غولار كان قد تسرب من جيشنا إلى ملك الجنوب، لذا استخدمه في إطلاق تلك الشائعة، ما خالفه بشأنها هو توقيت الدخول تحديداً، إلا أن اختلاف التوقيت بليلة أو اثنتين لم يفسد شائعته لبُطء انتقال الأخبار بين الممالك، لا سيَّما غير المتحالفة، فها هو مالك لم يعلم بطريقة اقتحامي الحقيقية، ولا بميعاد الاقتحام إلا عندما تماثل أمامي، من ثمَّ طلبت منه أن يُكمل أحداث اليوم التالي، فأخذ يحكي عمَّا حدث، وعن البارود الذي استخدمه الشماليون، فربطت ذلك الأمر بالرسالة السرية التي مررها لاسيد ملك الجنوب إلى حارث المعتاض وقت تفاوضه مع صهد، وربطت ذلك باختطاف ميرا ومارينا، وتيقنت أن هذا البارود منحة غالية من لاسيد إلى الشماليين، إلا أنني هنا فطنت أنني تركت مالك واقفًا كل هذا الأمد بسبب صدمتي فيما سمعت، لذا طلبت منه الجلوس إلى جوارِي قبل أن أحته على المواصلة، فظهر جليًا تأثيره حين أخذ يحكي عن خيانة جند الجنوب له وتراجعهم، لا سيَّما حين قال:

- لما انسحب جند الجنوب لم أياس أو أتراجع، بل بقيت موقتًا في صلابة جند رانتاز ومروءتهم، إلا أن الصواعق فوق

رأسي لم تتوقف، فعلى الجبهة الشمالية ظننت أنه حتى لو انسحب جند طليطيل الجنوبيين سيبقى جند قسطا يقاتلون، فهم جيراننا وإخواننا وشركاء الوحدة والقران، لكنهم لم يثبتوا حتى ولو لساعة قبل أن ينسحبوا أيضًا، لثخترق أسوار رانتاز، ويتحول معظم جند آربوس الشمالية إلى القتال في جبهتنا، بل وصاروا يتوغلون في الغابة عن ميسرتنا، ويحاولون تطويق جيشنا، لذا أخذنا نتراجع بروية أمام كثافة جندهم حتى أضحت مؤخرة صفوفنا أمام سدة الجسر المار إلى آربوس الجنوبية، وبدأ بعض جنودنا في محاولة الفرار، لكن ما أذهلني أننا وجدنا الجنوبيين سدوا الجسر بالمتاريس والصخور بعدما عبر جنودهم، بل ووضعوا فرق جندهم على الناحية الأخرى من نهر جودي لمنع هروب جنودنا إليهم بدلاً عن نصرتنا، ولما حاول بعض جنودنا الهروب شرقًا ليلحقوا بقسطا، وجدنا قسماً من جند عدونا قد التفوا عبر المرور داخل رانتاز ليحاصرونا من ناحية البوابة الجنوبية كي يسدوا علينا إمكانية التوجه إلى الشرق أيضًا، فأصبحنا محاصرين من كافة الجهات، وأخذ بعض جنودنا في ترك سلاحهم والاستسلام بعد قدر ساعتين من القتال الحامي. لم أغضب عليهم أو ألومهم، فقد سمعوا أن رانتاز قد سقطت، وأن حاكمها شهد وأهله ومستشاريه قد هربوا إلى قسطا، كما اختل توازن القوى للحد الذي خشوا فيه من الفناء

جميعًا، لكني رغم ذلك لم أستسلم مثلهم، بل قررت الفرار أنا وبعض خواصي من الجند، فانطلقنا نحو الغابة هاربين لا ألوي على شيء، لكنه بدا المنفذ الوحيد لنا، لأفاجأ بأنني قد تبعني قدر ألفين من فرساننا، صرنا نركض عبر الغابة حثيثًا حتى اقتربنا من زورين، وهناك اتخذت قراري بأن أتجاوزها مسرعًا كي أصل إلى هنا وأطلب منك أن ترفع الظلم عنا، لكن يبدو أننا لم نتعرض للظلم بل تعرضنا لمكيدة من لاسيد.

- وماذا تظنهم فاعلين بعدما أسقطوا رانتاز؟

- سيؤمنون بقاءهم برانتاز بواسطة بعض الجند، ثم يتجهون بجيشهم كاملاً نحو قسطا، لأنها شاركتنا في الخروج عليهم، كما أنهم لن يتوقفوا عن مطاردة أبي، فهو حاكم رانتاز الشرعي، عندها سيظهر معدن حاكم قسطا صهرنا، أظنه سيقاوم لبعض الوقت، لكنه سيستسلم بالأخير، لأنه يعرف أن حربه معهم خاسرة حتى وإن كان الشتاء على الأبواب أو لو كانت تلك الجحافل قد أصابها العناء من طول الحصار.

أطرقُ للحظاتٍ أنظر أمامي شاردًا يدور بذهني مصير ميرا ومارينا قبل مصير قسطا وصهد، ثم عدتُ بناصيتي نحوه قائلاً:

- وماذا تظن في ملك الجنوب؟

- يكن لك كل البغض والحسد، لكنه يُظهر المودة، بينما  
يتمنى أن تصيب مملكتكم صاعقة من السماء أو تنشق  
الأرض فتبتلعها، ولقد راسلنا طالبًا منا أن نساعده في  
استدعاء ما أسماهم الذكران، وهم ذكور الحوريات  
بواسطة زوجتي مارينا حتى يساعده في التصدي لجندك  
وحورياتك، إلا أننا لم نقطع له أمرًا.

ابتسمت لعلمي بما يحكيه قبل أن أرد:

- أنت صادق في حديثك، فلقد علمت بأمره وأمر خداعه.

ثم توقفت لبرهنة أنظر نحوه بتفريسٍ قبل أن أسأل:

- ألم تظن أنني قد أخذك؟ ألم تكن فكرتك عني أنني مجرد  
همجي قاد مجموعة من العبيد؟

تلجلج قبل أن يجيب:

- أنا لن أكذبك قولًا. قبل رؤيتي أسوار مملكتكم كنت أظن  
ذلك، إلا أنني ما إن رأيت صنيعك فوق الجبال اعتبرتكَ عدوًا  
يليق بالاحترام، أثار إعجابي ما شيدته من أسوارٍ ودفاعاتٍ  
ومبانٍ، وما قمت به في تلك النفوس الخاضعة اللائي ما  
ظنناها يومًا تخرج من الكهوف، إلا أنك وقتها لبثت عدوًا  
أبتغي هزيمته، وشاركت في حصار مملكتك، بل كنت قائد

تلك السرية التي تسللت إليها وفتحت بوابتها الشمالية، ولولا قدومك برفقة الحوريات لكنا مهدنا طريق جيشنا لاقتحامها، ثم من بعد هزيمتنا واندحارنا ظللت نفس العدو الذي زاد بُغضي له بعد انكسارنا أمامه، ذلك حتى ذقت الجور والظلم والتنازع على الحكم والخيانة من حكام آربوس وقادتها، سواء الشمالية منها أو الجنوبية، وهنا قررت أن ألجأ إليك باعتبار أنك أكثر صدقًا منهم.

ما إن أتم حديثه نظرت نحو القائد رشيد قائلاً:

- أدخل فرسان رانتاز إلى غولار، فقد صار لهم عهد بالأمان منا، جهز لهم زادًا ومعايش ومبيتات، فهم بالكاد يقفون على أقدامهم بعد ما قاسوه.

قمث واقفًا فقام الجميع، التفث نحو مالك مضيئًا:

- اذهب معه نحو جنديك، أخبرهم عن أمرنا حتى يعرفوا من خانهم وخذلهم ومن يؤمنهم الآن، لك ولهم الأمان والحماية حتى تنظر في أمرك، إن انتويت الانضمام لراية مملكة الوافدين، وساعدتنا بجنديك البواسل وبعلمك بهذه الأرض وتلك الحصون، لك عليّ أن أعيدك حاكمًا مستقلًا لرانتاز تحت رايتنا، من ثم نبذل أرواحنا ودماءنا لنعيد لك زوجتك وابنها، بل وإن انتهى مرادي بهذه الأرض قد أترك حكم آربوس الشمالية لمارينا وابنها كحاكمين شرعيين عليها،



وأمركم متروك لكم حينها، وهذه كلمتي لك.

قفز الحماس إلى عينيه قبل أن يرد:

- لقد أكرمتني فوق أقصى ما تمنيت.

- أنت جئتني وأنا قبلت حلفك، وكما أعدك بالمنح أعرف أنك لن تخذلني، بل سيكون لك فضل كبير فيما نتتويه لهذه المملكة.

انصرفوا جميعًا لأعود إلى جلوسي، يدور بذهني أمر ملك الجنوب، إن طلبت منه ميرا ومارينا سيناصبنا العداء جهارًا بعد كتمان وينقض عهده للمرة الثانية، لكن هل سيجتمع مع آربوس الشمالية علينا حينها، أم سيظل مواصلاً وحده؟ أيقنت أنني لم أعد مُطالبًا بتملك نصف بر آربوس قبل رحيلي، بل صرت الآن ملزمًا بكل آربوس، مجبرًا على التحرك سريعًا بأرض آربوس الشمالية قبل إعلان الشقاق بيني وبين الجنوب، حتى لا أمنح الجارتين فرصةً للتحالف ضدنا، وكي أستبق استدعاء لاسيد لأولئك الذكور الذين لا أعرف ما قصتهم ولم يصر على طلب عونهم، في حين لم يظهر في العيان إلا جانب إيجابي واحد، وهو ظهور مالك بغير موعدٍ ماديًا يده بالعون والتحالف، فيما لم يُحضر كثيرًا من الجند، لكنني أظن أنني سأجد لديه كثيرًا من المعرفة التي أعوزها، وقد تصير خيرًا من كثرة أعداد الجند، فهو قائد جند حقيقي

تمرّس على الحروب، كما بدا أنه يملك فطرة سليمة.

في الصباح قمت من رقودي متجهًا برفقة حرسى نحو مملكتنا بقلب الجبال، تحركنا بالخيال مسرعين من على ضفة نهر جودي حتى وصلت سرايوس، ومنها إلى منزلي، بلغته قبل الغروب بساعتين، فوجدت أفرودينا مجتمعة ببعض الحوريات لدى مجلسي، بعضهن جلسن على صفي المقاعد، والأخريات وقفن خلفهن، بدين قادة سراياهن. ما إن دخلت عليهن من باب المجلس قطعن أحاديثهن؛ عقدت حاجبي مستفهمًا، فأشارت لهن بالانصراف، لكني أهملت وجودهن بالكامل، واتجهت إلى الباب المؤخذ لقاعة استقبال منزلي، جلست على أريكتي منتظرًا قدومها، لتأتيني بعد دقائق مبتسمة وتقول:

- ليس أول اجتماع بيني وبينهن، منذ تراجع خروجي من المنزل وأنا أجتمع بهن بين الحين والآخر، أحثهن على التيقظ والتنبه، وأنقل لهن أنني لا زلت بينهن، لكنه الحمل ما يقعدني.

قالتها وجلست إلى جوارى مضيئة:

- هل أعد لك طعامًا؟

- لقد أكلت بغولار قبل انطلاقي إلى هنا.

- وهل استقر الحال بها؟

- إلى حدٍ كبير، أوشكنا على استكمال بناء ما تهدّم من أسوار، كما وزعنا البارود، لكن الغريب أنه جاءني الأمير مالك أمس برفقة ألفي فارس هاربًا من رانتاز.

- هل أسقطها جند الشمال؟

- بل سقطت بخيانة ملك الجنوب لهم، لم يعنه أمر رانتاز بالكلية، أقام حربًا من أجل أن يتسلل جنوده وسطها ويختطفون مارينا لتستدعي له الذكران.

- أظنه سيندم على ذلك.

عقدت حاجبي ورددت:

- ولم؟

- إنهم ليسوا مثلنا، هم أقرب إلى الحيوانات عن البشر، نحن نعيش بعالم البحر وسط مجتمعات وأسراب وأسر وحياة، هم لا يعرفون إلا هذا النهر وقيعانه العميقة، بل لا أظنهم يتواصلون عبر لغةٍ بينهم ثمكّنهم من التواصل مع الغير؛ لن يستطيع السيطرة عليهم إن استدعاهم وأطلق سيقانهم.

- لكن لمّ لمّ يظهروا بالنهر من قبل إن كانوا يعيشون فيه؟  
ألا تظنين أن من الجائز أن تكون أعدادهم تراجعت مع مر

السنين حتى صاروا قلة قليلة لا تنفع كسندٍ وجيش؟

ابتسمت قائلة:

- نحن من نعرف أعدادهم، فنحن بالأصل أمهاتهم، ثم إن بهذا النهر عدة قيعان عميقة للغاية لا يصل الضوء لقعرها، هي مأواهم ومستقرهم الأصيل، لكن هذا لا يمنع من كونهم يتنقلون بسائر النهر دون أن يراهم بنو جلدتك.

- وهل لديهم من القوة ما يجعل لاسيد يخاطر كل تلك المخاطرة؟

- أنتم لم تشعروا بفارق كبير بيننا وبينكم، نحن فقط أطول من نسائكم بقدرٍ ضئيل، نماثل الرجال في أطوالهم، أما هم فأطوالهم أكبر، الواحد منهم أطول منك بقدر ذراع، مع ضخامة في العرض، كما أن جلودهم مغطاة لدى عدة مواضع في أجسادهم بشيءٍ يُشبه الحراشف السمكية، لدى الرقبة والصدر والظهر والأكتاف، كأنها دروع طبيعية، ولديهم زويرجول أكثر بكثير من الزورجولات لدينا، لو استطاع السيطرة عليهم ستصبح لديه قوة لا قبل لنا بها، لكني أظنه لن يستطيع، كما أننا لا زلنا نتفوق بالبارود.

أخذت بوادر القلق تغزو أفكاري لذا سألت:

- وهل من المؤكد أن هناك سبيلاً لاستدعائهم، أم يوجد

شك بهذا الأمر؟

- لم يحدث على أرض آربوس من قبل أن نزلوا إلى البر، لكن زهير كان يعلم أن من الممكن استدعائهم بنفس طريقة استدعائنا. هناك تبة على ضفة نهر جودي بأرض الجنوب بها خندق إن نزلته تجد موضعًا مثل الذي قابلناك فيه، لكنه موضع لصيق بالنهر وليس البحر، مثل مصطبة يغمرها الماء من كافة جوانبها سوى الممر المؤدي إليها، وكما أسلفت لديهم زويرجول مثل الزورجولات لدينا، وهم من يتم استدعاؤهم بواسطة من تتوافر فيه نفس الأمارات التي جئت بها.

- إذن مارينا يمكنها استدعاءهم لملك الجنوب، فهي روح كاملة كما أنها ملكة.

- أظن ذلك.

أطرقت للحظاتٍ ثم واصلت:

- إذن أعدي قادة سراياكن؛ سأذهب إلى الحرب خلال أيام.

- إلى أين؟

- سأسارع إلى زورين، لا بُدَّ من دخولها أثناء حصار قسطا، بل وأتمنى أن أستطيع المواصلة إلى رانتاز، الأمر أصبح عاجلاً، إن تأخرت حتى تهدأ قلاقل الشمال سينتهون من أمر

قلاقلهم، ثم يتحالفون مع الجنوب علينا، لا بُدَّ أن أسقطهم قبلما يحاولون إسقاطنا، لذا جهزي الحوريات جميعهن، سأخذهن معي غدًا نحو غولار.

قمتُ متجهاً نحو باب المنزل فسألتني:

- وأين ميلا مما جرى؟

رددت دون أن أوليها وجهي:

- أخذوها برفقة مارينا، أظنهم يريدونها أن تصنع لهم البارود.

وقفتُ عند الباب مضيئاً:

- لكنها لن تصنعه لهم وإن قتلوها.

خرجتُ إلى الحرس أمام المنزل، امتطيتُ فرسي واتجهتُ شرقاً نحو معسكر المشاة وهم في أثري، قابلتُ نواب قادة الجند بغرفة قائد المشاة لدى منضدته الدائرية، أمرتهم بإعداد سائر الجند للقتال، موعداً لهم أننا سنتحرك بكل جيوش مملكة الوافدين، عدا جند أسوار المملكة، وجند الراجمات الموجودة على أطراف سلسلة الجبال شمالاً وجنوباً، كذلك جند حامية سرايوس، من ثم طلبت يزن لأتناقش معه بشأن أمور المؤونة، وأخبره بأمر حربنا

المزمعة، وبقائه واليًا على المملكة مقامي، لأنهي بذلك سائر مخططاتي بالمملكة، وبالصبح التالي انطلقت عائداً نحو غولار، لكن بهذه المرة تبعني ما جاوز السبعة آلاف مقاتل من جنودنا، بالإضافة لثلاث آلاف حورية، فيما أصرت أفرودينا على القدوم معنا.

ما إن وصلنا إلى غولار قبيل الغروب، أقمت اجتماعاً بمجلس الحكم فيها، دعوت إليه مالك، إلى جانب قادة جنودنا الثلاثة، كما تواجدت أفرودينا معنا، جلست أنا وهي في ناحية، بينما جلس البقية في الناحية الأخرى، ثم أخذنا نتناقش في أمر التحرك إلى زورين، وكم من الجند يجب أن نتخذهم، وكم منهم يتوجب علينا تركه في غولار. أخبرني رشيد قائد المشاة أن من المستحيل أن تهاجم قوات الشمال أو الجنوب مملكتنا فوق الجبال، بسبب وجود الراجمات على أطراف السلسلة الجبلية شمالاً وجنوباً، مما سيمنع مجرد صعودهم، أما بالنسبة لقلعة سرايوس فهي شديدة التحصين كما يعرف الكافة، لذا انتهى بالأخير إلى رأي مفاده أن علينا ترك حامية قوية على غولار لأنها أرض جديدة بالنسبة لنا، ثم التحرك نحو زورين. أتم رشيد حديثه، فالتفت نحو مالك منتظراً رأيه، فقال:

- أنا أعرف حارث المعتاض جيداً، ما إن انتهت معركة

رانتاز بهزيمتنا أمس، أظنه كما قلت من قبل لن يتأخر في اللحاق بأبي إلى قسطا، سيترك حامية من الجند على رانتاز، ثم ينطلق في أثره بكامل جيشه، كي يُسقط حاكم رانتاز الشرعي إلى الأبد، ولينهي تمرد قسطا هي الأخرى، أما عن جند رانتاز الذين وقعوا في أسره فهم ليسوا بالجيش الهين، ما يقارب التسعة آلاف من جنودي البواسل، أقوى جيش منفرد بأربوس كلها، هناك بشأنهم احتمالان لا ثالث لهما، الأول هو أن يأخذ خيار الاحتواء، بالأ يحبس جنديًا منهم ولو لليلة، ويعتبر أنهم ليسوا جند رانتاز وحسب، بل هم جند أربوس الشمالية كلها، وإن كان ولاية رانتاز عارضوا أربوس الشمالية واستخدموهم في حربها فآن الأوان أن يعودوا إلى أحضانها، من ثمّ يدمجهم في جيشه، ويؤكد لهم أنهم شماليون من خلال مشاركتهم في حصار قسطا مع سائر جيوش الشماليين، وما إن تنتهي حربه سيحاول تغيير هويتهم، فيفرقهم بين جيوش الإمارات الأخرى، ويترك لرانتاز حامية صغيرة مخافة تجدد الصراع معها. الأكيد في هذا الاحتمال أنه لن يتركهم أبدًا على رانتاز كحامية، لا أثناء حصار قسطا ولا بعدها مخافة أن يعيدوا الاستقلال بها وينصبوا عليها أحد ورثة آل شهد.

ردت عليه أفرودينا:



- والاحتمال الثاني؟

واصل بنفس حماسه قائلاً:

- الاحتمال الثاني هو العقاب، بأن يجعلهم عبرةً لكل جنديٍّ ببر آربوس كلها، بل لكل معمر يعيش فيها، فيأمر بحبسهم جميعًا في سائر زنازين رانتاز رفقة إذلالٍ وسوء معاملةٍ طوال مدة حصاره لقسطا، كي يكسر نفوسهم، فيما يولي على رانتاز حامية من جنده، وما إن ينتهي من أمر قسطا، ينفذ بشأنهم تغيير الهوية ويفرقهم بين الإمارات، وقد يصل به غروره في هذا الاحتمال الثاني، أن يأمر بقتلهم جميعًا في ساحة القتال، كما كان ينتوي أن يفعل بجند مملكة الوافدين إن نجح في إسقاطها بأيام حصاركم، لكنني أظن أن أمر القتل هذا مستبعد.

تدخلت في الحوار رادًا:

- ماذا تقصد أن تقول؟

- أقصد أن الحرب خدعة، هو بكل الأحوال سيترك حامية صغيرة وغربية على رانتاز كي يتجه اليوم نحو قسطا ليضرب حصارًا شديدًا عليها، معتقدًا أن جيش مملكة الوافدين من المستحيل أن يتجاوز زورين ويتجه مباشرةً نحو رانتاز، إن كان قد بلغه أنكم دخلتم غولار من الأساس،

فإذا خالفنا كل أعراف الحرب وتجاوزنا زورين قاصدين رانتان، مع اصطيات كشافين الأخيرة قبل بلوغ أسوارها، سنجد حاميةً صغيرة، وأبوابًا مفتوحة، وأسوارًا مهدمة. أريدها حربًا خاطفة، أي ننتقل بهذا المساء متعجلين لنصلها مع مساء غد، نستقر بأرضها ونؤمن أسوارها بقوة البارود، عندها سيحاول فك حصار قسطا ليعود مسرعًا نحو رانتان، لكن أوان الرجوع يكون قد فاته.

قاطعته أفرودينا قائلة:

- يا لك من حاذق! تريد استعادة إمارتك، وفك الحصار عن الإمارة المتحالفة معكم لينجو أبوك وأهلك، وتحاول أن تبين لنا أن هذا في صالح مملكة الوافدين؟!

ابتسم واثقًا من حاله وأضاف:

- نعم سيصب هذا في صالحني، لكنه في صالح مملكة الوافدين أيضًا، بل والأكثر من ذلك، عندما يحاول حارت أن يعود بجيوشه عن حصار قسطا ليواجهنا برانتان، إن أراد سيدي يوسف الخروج لمحاربتهم خارج الأسوار وليس التحصن داخل الأسوار وحسب، فإننا سنستخدم جند رانتان الذين وقعوا في أسره، فإن كانوا بالسجون سنخرجهم ونؤمنهم كما أمنتونا ليكونوا معنا، وهذا ما أدعو أن أجده، أما إن اتخذهم في جيوشه، فعندي قناعة أننا ما إن نواجه

جيشه أثناء عودته من قسطا، ويعلم جند رانتاز أنني مع جيش الوافدين أحاول تحرير بلدتهم، أنهم سينشقون عن صفوفه في منتصف حربنا لينضموا إلى جانبنا، وعندى تخطيط لذلك، لكن ما أشدد عليه هو أمر واحد، وهو ألا تشعر زورين بتحركنا، وإن شعروا بذلك، إذن لا تمر حمامة واحدة من بين أسوار زورين وتتجه شرقًا، وإلا قد يفسدون مخططنا.

أملت رأسي مستفهمًا ورددت:

- ولم؟

- إننا عندما نكون إلى جوار زورين، فإن المسافة من عندها إلى رانتاز هي ذات القدر من قسطا إلى رانتاز، إن خرجت الحمايم من زورين نحو جيش حارث تخبره بتجاوزنا لبلدتهم أو خرجت نحو رانتاز تخبر من فيها بتحركنا، فلن نحصل على مفاجأة كاملة، بل ستغلق رانتاز أبوابها وتستعد بينما يتحرك حارث مسرعًا ليلحق بنا لديها. قد يتأخر قليلًا لفض الحصار وتجميع المتاع وتجهز الجند، بينما نحن منطلقون بشكل مباشر، إلا أن ذلك لا يمنحنا عنصر المفاجأة الكاملة التي أتحدث عنها، وكما أسلفت فإن كشافين رانتاز سيكونون منتشرين بالغابة، لا بُدَّ أيضًا من اصطيادهم كيلا يعطوا إنذارًا فتُغلق البلدة أبوابها قبيل وصولنا.

قاطعتنا أفروديننا:

- إن انتويتم الأمر فلا تقلقوا من الحمائم، أمرها هين،  
اهتموا لشأن الكشافين.

عقدت حاجبي:

- هل ستضعين من يترصد للحمائم؟

ردت:

- الأمر أبسط من ذلك.

تدخل في الحديث قائد الفرسان سليم قائلاً:

- لم لا نجمع بين الفكرتين، الترتيب والتجاوز من أجل  
المفاجأة؟

- فسر لنا قولك.

- أرى أن معلوماتنا تقول أن بزورين حامية صغيرة، مجهزة  
من أجل التحصن خلف الأسوار وحسب؛ لن تخرج لقتالنا،  
إذن لم لا نحاصرها ببعض الجند وليكن ثلاثة آلاف مقاتل،  
ونتجه بالبقية نحو رانتاز مباشرة؟ من يبقوا حول زورين  
يشرعون في محاولة صنع نفقين وليس نفقًا واحدًا لنبلغ  
أسفل الأسوار، سيأخذ الأمر عدة أيام يكون انتهى خلالها أمر  
القتال حول رانتاز، من ثم نبعث دعمًا إلى جنودنا المحاصرين

لزورين ليقتحموا أسوارها بعد استتباب أمر رانتاز، وبذات التوقيت فإن حصارنا لزورين سيجعل حاميتها تعتقد أن جيوشنا حولهم، ولم نتحرك نحو رانتاز، فلن تبعث إلى حارث إلا هذه المعلومات المغلوطة.

نظرت إلى مالك سائلًا:

- ما رأيك في قوله؟

- هو قول حسن، لكنني أعتقد أن جيش الشماليين بوقتنا على قدر كبير من الضخامة، يزيد عن خمسة وثلاثين ألف مقاتل إن انضم لهم جند رانتاز، وخمسة وعشرين ألف مقاتل دونهم. سنحتاج أعدادًا كبيرة من الجنود لمواجهةهم، لا سيَّما أن أمر جند رانتاز لا زال مبهمًا بالنسبة لنا، وهل سيكونون معنا أم ضدنا. عندي تدبير لهم، لكن لا يوجد ضمان كامل في مثل هذه التحركات والحروب، وكما أخبرني القادة فإن جيش مملكة الوافدين هنا يقترب من خمسة عشر ألف مقاتل مع ثلاث آلاف حورية وألفين من فرساني، إن تركنا منهم ثلاثة آلاف مقاتل حول زورين، وتركنا ألفين مقاتل في غولار نكون أسقطنا قسمًا كبيرًا منهم...

قطعت حديثه قائلًا:

- وماذا عن جند قسطا؟

عقد حاجبيه:

- ماذا تقصد يا سيدي يوسف؟

- أقصد أن حارث سيفض حصاره عن قسطا لئسرع نحو رانتاز، ونحن سنلاقيه بالغابة شرقًا قبل وصوله إلينا، في تلك المنطقة الواقعة بين قسطا ورانتاز، فأنا لن أحصر كل جيشي داخل رانتاز وأترك حارث يحاصرني، إذن لم لا ترسل جيش قسطا؟ وبعد خروج جيش الشمال لقتالنا، يخرج جيش قسطا في أثره، وما إن تدور رحى المعركة بيننا وبين جند الشمال تهاجمهم قوات قسطا من الخلف.

لبث صامتًا للحظات وكأنه يجيل الأمر بذهنه قبل أن يرد:

- يا له من تدبير! لكن ما أخشاه أنه حين يحاول الانسحاب من حصار قسطا، قد يترك قوةً تحاصرها.

- وما قدر قوة قسطا كاملة؟

- ما يقارب عشرة آلاف مقاتل، أما جيش الشمال فيتكون من حوالي عشرة آلاف من زورين، ومثلهم من المملكة الأم، وخمسة من كيبول، بالإضافة إلى من بقوا من جند رانتاز إن انضموا إليه.

- إذن لا أظن أنه سيترك قدرًا كافيًا من الجند في حصار

قسطا إن ترك، بل يقيني أنه لن يترك، إن حارث يخشى  
مواجهتنا، لن تشغله قسطا نهائيًا عندما تقع أخبار دخولنا  
رانتاز فوق رأسه مثل الصواعق، ومع انقطاع أخبار زورين  
عنه سيظن أننا دخلناها أيضًا، لذا سيندفع بكل قوته ليلاقينا.  
إذا تحركنا في خمسة عشر ألف مقاتل، ثم انضم إلينا عشرة  
آلاف من قسطا، يدخلون القتال من خلفه، ثم إذا ما وجدنا  
جند رانتاز بالسجون أو انقلبوا عليه إن كانوا قد ذهبوا معه،  
ففي هذه الحالة تنقلب موازين الحرب كلها.

تدخلت أفرودينا في الحوار قائلة:

- إن بالأمر مجازفة كبيرة، إن نجحنا سنحقق نصرًا عظيمًا  
كما نتمنى، لكننا إن أخفقنا قد نخسر كل جيشنا، نحن لا  
نضمن أي شيء في طريق محفوف بالمخاطر.

رددت واثقًا بنبرة مرتفعة:

- ولا تتحقق النجاحات العظيمة إلا بمثل هذه المجازفات  
الكبيرة، ثم إن الأمر لا يتوقف على أعداد الجنود وحدهم،  
بل هناك خطة القتال والمفاجأة والثبات وخطط التراجع.  
أخبروني، إذا سيطرنا على رانتاز ولم يفلح حارث في دخول  
قسطا، من لديه القدرة على التراجع في حالة اختلال موازين  
القوى كي يعيد ترتيب أمره؟ هو سيكون محصورًا بين  
إمارتين لا يملك منهما شيئًا، أما نحن سنتراجع نحو رانتاز.

صمّت للحظّاتِ لأتمالك انفعالاتي قبل أن أواصل:

- أنا لن أتردد أو أتراجع لأننا إن لم نسحق جيش الشماليين الآن، فلن تقوم لنا قائمة بهذه الأرض، وسنبقى محصورين إلى الأبد فوق الجبال، حتى وإن كان البارود معنا، فجيش الجنوب يستعد لاستقدام أولئك الذكران، واتضح مؤخرًا أنه لم يستهلك كل باروده بعد، بل ظل يخفي قدرًا منه، حتى وإن كان ضئيلاً فهو يستخدمه معنويًا وليس كعنصر قوة، أما الشماليون فإن دخلوا قسطا يكونون قد وحدوا سائر قواهم، فإن اجتمع الشمال والجنوب علينا مرة أخرى، لن نصمد أمامهم في أي حربٍ نخوضها على الأرض، أقصى ما قد نتأمله وقتها هو أن ندافع عما اكتسبنا، عن غولار وسرابوس ومملكة الوافدين فوق الجبال.

قمّت واقفًا وقلّت بصوتٍ حازم:

- أعدوا سائر الجند للتحرك، سنترك على غولار ألفين مقاتل، ونحاصر زورين بثلاثة آلاف قبل أن نتجه إلى رانتاز مسرعين بباقي جنودنا، ولا تخبروا الجند عن وجهتنا أبدًا.



# على تخوم قسطا

## حارث المعتاض

فر مالك هاربًا بعد سقوط إمارته، ثم صار يلحق به بعض فرسانه، أخبروني في خيمتي أنهم لا يزيدون عن بضع مئات، انطلقوا هاربين نحو الغرب، توقعنا أنهم سيلتفون من لدى منطقة التلال ليلحقوا بصهد في قسطا؛ ليس لهم مكان سواها، إذن فليجتمعوا هناك لأن موعدي معهم قريب، أما بقية جند رانتاز فقد ألقوا أسلحتهم وقعدوا في مواضعهم ينتظرون ماذا سأفعل بهم، لذا خرجت من خيمتي إلى فرسي وقت الظهيرة، امتطيته ولحقتني حربي حتى بلغت ساحة القتال، رأيتهم قاعدين جميعًا في مشهدٍ مخزٍ دل على ضعفهم وانكسارهم، لا سيَّما بعد هروب أميرهم وأبيه وسائر قادة رانتاز الذين ملأوا الدنيا ضجيجًا عن منازعتهم لي ولآربوس الشمالية، فيما أحاطهم سائر جنودنا من كافة الاتجاهات. نزلت عن فرسي ووقفت أمامهم منتصبًا أقلب نظري فيهم، أردت أن أريهم عز المنتصر وشموخه، وبذات الوقت هوانهم، ثم أخذت أتحرك أمامهم ذهابًا وجيئةً، بينما تحدثت قائلاً بصوتٍ جهور:

- الآن عرفتم قدر آربوس الشمالية؟ فكما رأيتم عيانًا، فر أمامنا أربعة جيوش أشداء، جند الجنوب من صorf

وطليطيل، جند قسطا، ومن فروا من جيشكم، ولو اجتمع سائر جند الإمارات شمالاً وجنوباً أمام هذا الجيش لانكسروا، وما كان تراجعنا فوق الجبال أمام ذاك الهمجي إلا استراحة محارب نعيد فيها تنظيم صفنا، وها قد نظمناه على أكمل وجه، كي لا يقف أمامنا عدو إلا ونكسره.

توقفتُ ناظرًا نحو أسوار رانتاز، ثم عدتُ بنظري إليهم قائلاً:

- أنا لا ألوم عليكم قتالكم لنا في هذه المعركة، هم قادتكم من أخذوا بأيديكم إلى هذا الموضع الذي تقعدون فيه منكسرين، لكن لائمتي الوحيدة أنه لم يخرج منكم من يعارضهم على قراراتهم الهوجاء التي اتخذوها وقت الخلاف بيننا وبينهم، لم لم يتمرد البعض منكم ويقولون أنكم جنود آربوس الشمالية كلها ولستم جنود رانتاز وحدها ولا يستقيم أن يضعوكم في مواجهةٍ معنا؟ أم أنكم لا تعرفون أنكم جند هذه المملكة قبل أن تكونوا جند إمارة؟ أم صدقتم أكذوبة آربوس الوسطى وظننتم كما ظنوا أنها ستدوم؟

التقطت أنفاسي مقلبًا نظري فيهم، ثم أضفت بنفس الصوت الجهور:

- لكني رغم ذلك أعلن عفوي عنكم جميعًا، بلا فداء أو غيره، بل ستلتحقون بسائر جندنا المتجهين إلى قسطا غدًا، كي لا

نتأخر على صهده ومالك وصهرهم، بل وسائر المتأمرين علينا الذين صاروا يتجمعون في موضع واحد، سننزل بهم الهزيمة والخزي، لنعيد كل آربوس الشمالية على كلمة واحدة سواء، ونستعد بجيوشها لما هو قادم، أما بعدها، ولكي يتأصل بداخلكم فكرة الولاء لهذه المملكة وحدها، ما إن ننهي أمر قسطا سيلتحق معظمكم بفرق المملكة الأم لعدة أشهر، فيما يبقى برانتاز قدر ضئيل منكم، مع المداورة فيما بينكم بين الحين والآخر.

عدت إلى فرسي امتطيته ثم سألتهم بقوة:

- ألدى أي منكم اعتراض على حكم قائدكم؟

همهموا بالنفي مع الإشارة برؤوسهم، لذا أعدت عليهم السؤال بقوة أكبر كأني أصرخ فيهم:

- ألدى أي منكم اعتراض على حكم قائدكم؟

أخذوا يقفون وهم يرددون في أصوات متداخلة:

- أمر سيدنا حارث.

تحركت بفرسي أمامهم ذهابًا وجيئةً، ثم سألتهم بصلاية أكبر في المرة الثالثة:

- ألدى أي منكم اعتراض على حكم قائدكم؟

كانوا قد استقروا واقفين جميعًا، فردوا في صوتٍ واحد  
جهور:

- أمر سيدنا حارث، قائد جند مملكة أربوس الشمالية.

كرروها أكثر من مرةٍ لأنصرف من أمامهم وهم لا زالوا  
يهتفون بها، عدتُ إلى خيمتي سائلًا قادة جندي عمّا إذا  
بقي لدينا قدر من اللباس الحربي الأبيض الخاص بجنودنا  
يكفي أولئك الجند الرانتازيين بديلًا عن زيهم البني، كي  
أتمم إدماجهم بيننا، إلا أنهم أخبروني أنه لا توجد أية ألبسة  
إضافية، وسيستغرق الأمر عدة أسابيع كي يحاك ما يكفيهم.  
تجاوزتُ أمر الزي وأمرت لهم بخيامٍ وزادٍ ومتاع، مع التنبيه  
مشددًا بأن يبيتوا وسط معسكر جنودنا، وألا يدخلوا إلى  
رانتاز كي لا يستأنسون بأهلهم، فيخلع الجنود ملابس  
الجنديّة، ويتخفون في بيوتهم بينما لا نعرف حصرًا لهم أو  
بيانات، فنخسر ما يقارب التسعة آلاف من الجنود الأشداء،  
من ثمّ انطلقت إلى داخل رانتاز لأتفقد أوضاعها وبصحبتي  
قادة جندي وبعض الحرس. كانت بعض سرايانا قد استقرت  
بداخلها، سيطروا على الأسوار وعلى دار السلاح وقصر  
الحاكم وغيرها من مواضع السلطة والمنعة، لكنني أعطيت  
أوامر مشددة قبيل اقتحامها بالأكثر الجند المنتشرين  
بداخلها، وأن يقتصروا على بعض سرية من جند كيبول

الملتحقين بجيشنا، وألا يقوموا بأية أعمال سلب أو نهب أو إفراط في بسط القوة، حتى لا أثير غضب جند رانتاز وأنا أعوزهم في باقي طريقي وطوال حروبي القادمة.

مررنا بدار السلاح، وبيع بعض موضع من مواضع الدفاع، ثم اتجهنا إلى قصر صهد، تناولنا الغداء في مأدبة كبيرة لدى بهوه، فيما أخذت الأفكار تدور برأسي عن عدد الجند الواجب تركهم برانتاز ومن أي الجيوش، لا سيّما أنني لا أعرف كم سيطول الحصار حول قسطا. استبعدت أن أترك فيها من جند زورين؛ خشيت أن يعيثوا في البلدة فسادًا ما إن أتركهم عليها، أو تحدث قلاقل ومناوشات بينهم وبين أهلها، فهما جارتان تتنافسان في الشدة والمنعة منذ قديم الزمان، وطالما حدثت مناوشات في إطار التجار والأهالي والفلاحين من هنا وهناك بالأسواق وعلى الحقول المتاخمة لبعضها، كما استبعدت أن أترك عليها من جند المملكة الأم؛ هم أكثر جند المملكة كبرًا على سائر الجند وسائر الإمارات، يرتؤون أنهم الأعلى شأنًا، ورانتاز إمارة انقلبت على المملكة، لذا قد تحدث ذات المناوشات، لذا استقر رأبي على أن أترك بها حامية من كافة جند كيبول الملتحقين بنا، خمسة آلاف مقاتل تحت قيادة أميرهم جلال، هم خير من يقوم بتلك المهمة، فلا نزاعات قديمة بينهم وبين رانتاز، وما من أخطار تحيط برانتاز في وقتنا الحالي لنترك عددًا أكبر من الجند،

فملك الجنوب قد صدق في نواياه معنا، أعطانا البارود وانقلب بجيشه على جيوش رانتاز وقسطا، لم يحاربهم معنا كما اتفقنا، لكن مجرد انسحابه تكفل بإنهاء الأمر لصالحنا، لو أراد رانتاز لحارب من أجلها حتى ينتصر، وقد كان قريبًا من ذلك، أما الآن قد أخذ ما أراد -مارينا- لينشغل بأسطورة ذكور الحوريات الذين يظنهم سيساعدونه في دحر عدونا المشترك (جيش العبيد الهمج أبناء الجحور والكهوف)، بينما صممت على التحرك ببقية الجند جميعًا نحو قسطا بالصبح التالي، على الرغم من تلمس بعض القادة بقاءنا لبعض يوم حتى يرتاح الجنود، إلا أنني لم أرد التأخر في ملاحقة صهد وابنه كيلا يهربا من قسطا، كما ابتغيت أن أري أهل قسطا أننا أسقطنا رانتاز البارحة، وجئنا نحاصرهم اليوم، فلا كلل لدينا ولا ملل، فيما صرت آمل أن أنهي هذا الأمر كله قبل نوبات الشتاء التي لو هاجمتنا لأرهقت جندنا أيما إرهاق. بالأخير كان تعجلي لأنني أردت أن أتحرك بالملتحقين الجدد من جند رانتاز بعيدًا عن دورهم، ولأريهم أيضًا ضخامة جيش المملكة الموحد، واصطفاف جنده، كما ابتغيت أن أدمجهم فيه سريعًا استعدادًا لما هو قادم.

ما إن أنهينا مآدبتنا أعطيتهم قراراتي بشأن رانتاز، وبشأن تحركنا إلى قسطا، كما أعطيت أوامري ببدء ترميم المواضع التي تهدمت من السور لدى ناحيته الشمالية، وإصلاح البوابة

الغربية، كما أمرت بإراحة سائر الجند استعدادًا للتحرك غدًا، من ثم استدعيت كاتب المراسلات إلى مجلس قصر صهد، كي أُمليه نص رسالتي إلى ضياء الراقد بحضن أمه وزوجته، من ظن نفسه ملكًا بعدما نصّبته فصار يطالبني بتقارير، سأستفيق له ما إن أسترده كرامة جيش آربوس. جاءني الكاتب فأمليته رسالة مقتضبة، أننا دخلنا رانتاز، وهرب مالك وصهد إلى قسطا، كما هربت مارينا وميرا إلى آربوس الجنوبية، بينما طلبت منه زيادة الإمداد لانضمام جند رانتاز لنا، علّه يستخدم مخصصاته الملكية هو وأمه ويعين تلك الجيوش التي تنهب الأرض لبسط الاستقرار في المملكة، ثم التجأت إلى أكبر غرف القصر وأرحت جسدي حتى الصباح.

ما إن أشرقت الشمس استفتقت، أمرتُ الحرس بتبليغ قادة الجند بضرب أبواب التجهز، لكن ما إن نزلت إلى البهو جاءني نبأ اقتحام غولار، وتمركز جيش العبيد الهمج فيها. لم تصلنا طريقة سقوطها، وهل استسلم من فيها نتيجة نفاد زادهم أم أصابتها قاذفات البارود، لكنني رجحت استسلام من فيها، وإلا لما انتظروا خمسة أشهر حتى دخلوها. كنت أعلم أنهم عاجلاً أو آجلاً سيدخلونها، لكن لما سقطت رانتاز تمنيت أن يطول الأمد قليلاً حتى أسقط قسطا، من ثمّ نعود بجندنا فنكسر حصارها، حتى ولو أصبحت بلدة مهدمة لا قيمة لها.

إلا أنني ما إن جاءني النبأ أخذت أتردد بشأن التحرك بالجيش كاملاً، هل أرد جيش زورين إلى بلدته، فإن أراد يوسف حصارها وجد جيشاً صلياً يواجهه، أم أتحرك بهم نحو قسطنطينية الجيش كاملاً، وما إن أفرض حصاراً عليها وأري جنودها قدر جيشنا حول أسوارهم، عندها وبعد مرور بعض يوم أرد جند زورين إلى إمارتهم؟

ارتأيت أن يوسف سيد العبيد قد لا يتحرك إلى زورين بالوقت الحالي، وإن أراد التحرك نحوها فلن يبادر إلا بعدما يرتب سائر أوضاعه في غولار، هذا هو منهجه وعقيدته، كما أنه لو حاول حصار زورين ستأتي الأنباء في حينها، بعكس أخبار غولار، فالأخيرة انقطع الرعاة والزراعة حولها، كما تدمر برج حمام المراسلات فيها أثناء حربنا، حتى صارت منعزلة من كل المناحي، لذا عقدت أمري على التحرك بكل الجيش نحو قسطنطينية كما أوعزت للقادة من قبل، دون رجوع في قرار، مع متابعة أخبار زورين، فإن جاء ما يفيد محاولته ضرب الحصار عليها، قد نترك جند المملكة الأم وحدهم على حصار قسطنطينية إن طال حصارها، ثم نبعث جند رانتاز وزورين مجتمعين ليزيحوا جيش العبيد عن ذاك الحصار.

مر قدر ساعتين تجهز خلالهم الجند للتحرك، اتجهت نحوهم مع الحرس وقادة الجند، من ثم تقدمت المسير على



الدرب المحاذي لنهر جودي، لتمر عدة ساعات حتى اقتربنا من مشارف قسطا عند الغروب، هنا أخذت قواتنا تتوزع ما بين هذا الدرب والغابة، لنتف بسائر الفرق حول أسوارها، ضربنا الحصار عليها دون مقاومةٍ منهم، لم يطلقوا قذيفةً راجمة ولا سهمًا. أقمنا متاريسنا ودفاعاتنا قبل أن نصب خيامنا ومرابض خيلنا، بالأخير استقررت بخيمة القيادة مع قادة الجند على أرائكنا الممهدة بالجانب الخلفي من الخيمة، فيما ارتكز كاتب مراسلاتي على مخدعٍ بركنها الأمامي جوار مدخلها، حيث أمرت به كي أبعث إلى حاكم قسطا من فوري، أمليته رسالتي على ضوء مصابيحنا الزيتية قائلًا:

- من حارث المعتاض قائد جيوش مملكة آربوس الشمالية والمكلف بأمر الملك ضياء بن زايد برد كل الجانحين إلى بيان بن ناصر حاكم قسطا. لقد علمت أن رانتاز لم تسلم من حصارنا على مدار خمسة أشهر، بالأخير لما فرغ منهم الزاد جمعوا جيوش الجنوب وجيشكم وجنودهم، وما استطاعوا زحزحتنا، من ثمّ انتهت الحرب لنا، فخسروا بذلك كل ما عرضناه عليهم من سبلٍ للوفاق بيننا، لذا لا أريد لك تكرار زلاتهم لأنه بآخر الأمر ستكون النتيجة واحدة، وهي أننا سندخل قسطا كما دخلنا رانتاز، لهذا أعرض عليك أن تفتح لنا أبواب بلدتك، وتسلمنا صهداً وابنه مالك وسائر من جاؤوك من رانتاز ليتمثلوا للمحاكمة بساحة آربوس، ثم تعلن ولاءك

مرة أخرى لمملكة آربوس الشمالية، مع وضع سائر جنكك تحت تصرف قيادة جند المملكة. إن ارتضيت أمرنا، لك علينا أن تبقى على رأس الحكم بإمارتك، مع انسحاب سائر جنكنا دون دخولها، أما إن اتخذت نهج رانتاز فلك مصيرها. عهدنا إليك مددناه لسبع ليالٍ حتى تشاور أهل مشورتك قبل إجابتنا، أما إن مرت المهلة دون ردٍ فاعلم أن لا عهد بيننا ولا ميثاق.

والسلام على من أراد السلام.

ما إن انتهينا بعثتها مع الرسول إلى قصر الحاكم بقسطا، وبقيت أنتظر رده متأملاً إجابته بالموافقة على عرضي كاملاً، وألا يدخل في مهاتراتٍ مثل الامتثال بالرجوع إلى ولاية آربوس الشمالية دون فتح البوابات أو تسليم صهد وابنه، ذلك كي أنهي أمر قسطا مسرعاً وأتجه بالجيش كاملاً نحو زورين. لم تمر قدر ساعة وعاد الرسول إلى خيمة القيادة، وقف أمامنا وأخبرني أنهم أحسنوا استقباله، وبعثوا ردهم معه مكتوباً. أمرته بفض الرسالة وقراءتها، قالوا فيها إنهم امتنعوا عن المقاومة أو قذف قواتنا بالراجمات لأنهم لا يبتغون أن يتأجج النزاع بيننا، ولا يريدون نشوب حرب هنا حول قسطا كما نشبت حول رانتاز، لكنهم يرغبون في الوصول إلى تسويةٍ أفضل، بفض الحصار عنهم دون تسليم

الحاكم شهد أو أيّ من أهله، مع رجوع ولاء قسطا إلى مملكة أربوس الشمالية، أما عن جندهم فقالوا أنهم سيصبحون تحت أمر قيادة جند المملكة إن رغبوا في استدعائهم في أي وقت، بيد أنهم لن يخرجوا من أسوارهم إلا بعد فض الحصار كاملاً.

صرفت الرسول ما إن انتهى من قراءة رسالته، وعزمت على أن أبعث لهم رسالةً ثانية قبل انتهاء المهلة بيومين تكون أكثر شدة في ديباجتها، تحمل لهم من الوعيد ما يُزعزع بقايا ثقتهم، مع التلويح بإمكانية مسامحة شهد وعدم عقابه، بل وتعيينه مستشارًا للملك جاد بين أروقة مجلس الحكم، لكن بعد تسليمه ومحاكمته، من ثمّ انصرفت إلى خيمتي لأبيت بها ليلتي.

في الصباح فاجأني نهار اليوم التالي -ما إن خرجت من خيمتي- بسماءٍ ملبدة بالغيوم، بدت تُغطي الأفق كاملاً، بل وأخبرني الحرس أن منسوب نهر جودي قد ارتفع، مما يدل على بداية تساقط الأمطار فوق سلسلة الجبال الغربية. ارتأيت أنهم سيبتهجون داخل الأسوار معتقدين أن الشتاء قد يدفعنا لإنهاء حصارنا، لذا قررت أن أنتظر حتى تبدأ الأمطار فوقنا، ثم أعجل برسالتي الثانية إليهم مضيفًا إليها ما يفت من عزيمتهم، ويؤكد بقاءنا حولهم حتى وإن لم

تتوقف السماء عن النحيب والبكاء ليلاً ونهارًا، ليمر اليوم كاملاً دون سقوط أية قطرات من تلك السحب الجذباء، لكن ما إن أشرق النهار التالي جاءنا ما هو أسوأ من نبال الشتاء المنتظر.

حيث انتفض حرس المعسكر بالناحية الغربية على ديب خيل يقترب من ناحية الغرب، ما إن بلغونا اتضح أنهم سرية من مائة مقاتل من جند كيبول الذين تركناهم على رانتاز، جاؤوني بقائدهم إلى خيمة القيادة. ما إن وقف أمامنا أخذ يلتقط أنفاسه قبل أن يقول:

- حدث هجوم خاطف على رانتاز.

جحظت عيناى وأعين القادة، فيما صرخت فيه قائلاً:

- هات ما عندك دفعةً واحدة.

- لقد فاجأونا بشكلٍ لم نعهده من قبل.

- من أيها الأبله؟

- جيش الوافدين.

انتفضت واقفاً لينتفض كل القادة:

- هل دخلوا رانتاز؟

أشار برأسه موافقًا ورد:

- نعم دخلوها وأسروا كل جند كيبول ما عدا سریتنا أفلتت هاربة إلى هنا، نحن قدر مائة جندي كنا نحرس خارج السور الشرقي.

اقتربت منه حتى صرت واقفًا أمامه يغلي رأسي وجسدي، نزعث خنجري من غمده في حركة خاطفة وغرزته في رقبتة بينما أصرخ:

- وبم سينفعنا هروبكم أيها المعتوه؟! أنتم يجب أن تعلق رؤوسكم جميعًا فوق أسوار المملكة الأم على تخاذلكم.

أخذ قادة الجند يهدئون من روعي، أعادوني لأجلس في موضعي بينما جاء الحرس حملوا جثته، لنعرف بعدها ممن ينوبه في القيادة أنهم تفاجؤوا بقوات الوافدين داخل رانتاز بمنتصف الليل. قال إن الكشافين من جند كيبول الذين تركناهم على رانتاز كانوا منتشرين في الغابة حتى منتصف المسافة بين رانتاز وزورين، كما كانت هناك دوريات من الحرس تتحرك حول كافة الأسوار وعلى ضفة نهر جودي، إلا أنه لم يحدث أي تنبيه مسبق لهذا الاقتحام الذي حدث، إذ فجأة وجدوا عدة آلاف من الفرسان الخفاف، مع قدر ألفين أو ثلاثة من حوريات فارعات، دخلوا عليهم البلدة من عند السور الشمالي والغربي، ليفاجئوا جنود كيبول في ثكناتهم

بدار السلاح، ويسيطرون عليهم، من ثمّ سيطروا على كل مواضع الدفاع بالبلدة، من بعدها دخل بقية جيشهم عبر البوابة الغربية آمين.

كثّ أجن من هذه الأنباء، فلم يأتِ ولو مرسال أو تحذير واحد من عند زورين، هل سقطت هي الأخرى؟ ومتى سقطت أو كيف؟ لكني لم أنتظر طويلاً، بل أعطيت أوامري بفض الحصار عن قسّطاً للانطلاق إلى رانتاز، آملاً أن يلاقونا خارجها، فمهما أزدوا من عدد الجند بجيش أولئك العبيد الهمج لن يتخطى نصف جيشنا، ولن يحميهم البارود في مواجهة مباشرة، إلا أنني أثناء جمع المتاع وإنهاء الحصار أرسلت رسالة عاجلة إلى حاكم قسّطاً، أبلغته أنني أفض الحصار عن إمارته، لكني أريد جنوده معي لأن جيش مملكة الوافدين قد وصل إلى رانتاز. وعدته بعدم معاودة حصاره مرة أخرى وصرّف جيشه إليه ما إن أقضي على جيش الوافدين، مؤكداً على أنه إن أرسل جنوده معي سأعتبر ذلك صك إخلاصٍ وولاءٍ لن يُنسى له ما دامت آربوس الشمالية، ولو امتنع فسُتعد خيانة أبدية لا تُغتفر، ليتأخر رسولي قدر ساعة، ثم يأتيني إلى خيمة القيادة قائلاً إنهم سيُحركون جيشهم في إثرنا، ما إن تنهي قواتنا فض الحصار وتنطلق إلى رانتاز سيفتحون أبوابهم لتلحق بنا فرق جندهم.

ارتضيتُ ذلك منهم مؤقتًا أنهم يخشون أن يكون انسحابنا إحدى الخدع الحربية، لذا انتويت أن أتقدم بسائر جيوشنا حتى أشعرهم بالأمان، على أن أعتبر جيشهم هو مؤخرة جيشنا الموحد ما إن يلحق بي جندهم، من ثمَّ انطلقنا عند الظهيرة عبر الغابة في تشكيلٍ قتالي ضم ما قارب الثلاثين ألف مقاتل، في الميمنة انتظم جيش المملكة الأم، وبالميسرة وضعتُ جيش زورين، بينما جعلتُ جيش رانتاز بالقلب كي لا أدع للرائزين فرصة للالتفاف أو الانسحاب أو التراجع إن حمى وطيس المعركة، فهم جيش حديث عهدٍ بانهزام حتى وإن كانوا مقاتلين أشداء فيما سبق، كما أنهم لم ينخرطوا بشكلٍ كافٍ في جيشنا الموحد، ولم يتغلغل الولاء له في صدورهم، لذا ارتأيت أن ينحصروا بالقلب ما بين الميمنة والميسرة، ومن خلفهم تأتي المؤخرة من جيش قسطا ما إن يبلغونا، فهم على نفس شاكلة جند رانتاز.

إلا أننا تحركنا قدر أربع ساعات دون أن يلحق بنا جيش قسطا؛ اعتقدت أنهم خذلونا، لكن لم تمر ساعة إضافية وجاءني أحد الكشافين الخلفيين مخبرًا أن جيشهم تحرك بكامل قوته وعتاده فيما قارب العشرة آلاف مقاتل، فاستبشرت لذلك ولم أبتئس لوجود مسافة بيننا باعتبار أنهم مؤخرة الجيش، أو حتى دعم متأخر، ليكون تعداد جيشنا بذلك أربعين ألف مقاتل، أكبر جيش عرفه بر آربوس في

وسط زهونا بهذا الجيش الضخم جاءنا دعمٌ إضافي من روح آربوس، بأن أخذت حبات المطر في التساقط على مهل، مما أشعرتني أن ذلك يصب في صالحنا وليس في صالح جيش العبيد الهمج، لأنه من المؤكد يفت في تأثير بارودهم؛ قد يمنع اشتعاله أو انفجاره أو يعطبه، من ثمّ زادت شدة المطر تدريجيًا مع مرور ساعات النهار مما أبطأ مسيرنا، لذا ما إن جاء كشافو مقدمة الجيش وأخبروني أن جيش العبيد الهمج لم يغادر أسوار رانتاز بعد، أعطيتُ أوامري بالمبيت بمنتصف طريقنا، لكن ما أثار دهشتي أن جيش قسطا المتأخر عنّا بمسير خمس ساعات، ما إن علموا بتوقفنا سارعوا إلى المبيت بموضعهم ولم يحاولوا التقدم حتى يلحقوا بنا، إلا أنني لم أحثهم على التقدم، معتبرًا أن الحركة وسط الأمطار وما نجم عنها من توحل التربة تُعد أمرًا شاقًا على الخيل والمشاة.

لنبيت ليلتنا على ذلك، وتأتينا الأخبار في الصباح بانتظام جيش العبيد خارج أسوار رانتاز الشرقية واستعدادهم للتحرك داخل الغابة.



## تبة طليطيل

مارينا

لم يمهلوني لبرهة أتحسر فيها على ضياع رانتاز، لم يمهلوني أبكي مالك، بل عند غروب أول أيامي بهذا القصر جاء قائد الجند الذي اصطحبنا من رانتاز وبصحبته أربعة من جنوده ليأخذوني أنا وجاد من غرفتنا. حاولت ميرا وزهرة أن تعترضا، لكن الجنود تعاملوا معهما بأسلوبٍ فظ، إلى أن ذهبت معهم، نزلنا إلى بهو القصر بينما أحمل جاد بذات ملابسنا المنزلية التي خرجنا بها من رانتاز، لأجد في انتظاري ثلاثة كهنة جنوبيين متشحين بالسواد عباءات وأحجبه، لا يظهر إلا وجوههم الموشومة من لدى جبهاتهم، بدا وشم ثلاثتهم واحداً، مثلت استقرت فوق زاويته العلوية دائرة كأنها القمر، فيما اكتحلت رموشهم. تحركوا أمامنا ونحن في أثرهم حتى خرجنا أمام القصر، وحدث في انتظارنا ثلاث عربات مغلقات استقر بمقدمة ومؤخرة كل منها مصباحان زيتيان. اقتادني قائد الجند نحو العربة الوسطى لأجد بداخلها ذلك الكهل من مستشاري لاسيد الذي حدثنا وقتما جاؤوا بنا أول مرة إلى مجلسهم، اتشح بالسواد هو الآخر، لكن دون وشمٍ على جبهته. ركب قائد الجند إلى جواره، فيما ركبنا أنا وجاد على المقعد المقابل لهما. نظر نحو جاد ثم عاد

بنظره نحوي قبل أن يتكلم بصوته الأَجَش قائلاً:

- أظنك لن تعترضني على ما نسوقك نحوه.

رددتُ بشيءٍ من التوتر:

- لا أعرف ما تسوقوني نحوه كي أعارض أو أوافق.

- سأخذك لأجل إحداث التوازن بهذه الأرض، دعي عنك كل مراسلاتنا مع الشماليين أو الرانتازيين، التي ادعينا فيها أننا نستدعي الذكران للتصدي ليوسف وهدم مملكته؛ كنا نحاول إقناعهم بذلك كي يوافقونا على إرسالك لنا، إنما في الحقيقة نحن نستدعي الذكران حتى نحفظ آربوس الجنوبية من توغل يوسف وحوارياته فيها. لن يدخل الذكران حربًا ضد الحوريات، ولن تدخل الحوريات حربًا ضد الذكران، ستبقى كل جماعة في جانب من جوانب نهر جودي، إن لم يتفقا لن يتصارعا، وهو قول الكهنة وليس قولي.

- ومن يضمن لي أنك لا تخدعني بمثل هذا القول؟

- أنتِ من سثحضرين استدعاء الكهنة لهم عند المعبد المقام فوق تبة طليطيل، بل أنتِ من سيستدعونهم بواسطة، وسيكون العهد على حماية آربوس الجنوبية في مقابل ما سيطلبونه.

- وماذا من الممكن أن يطلبوا؟

- لا نعرف.

- ولا الكهنة تعرف؟

- ولا الكهنة تعرف، لكن الأمر سيتعلق بنهر جودي بشكلٍ أو بآخر.

- إذن إن لم تعجبني شروط العهد قد لا أوافق على إبرامه.

مال بنظره نحو جاد ثم رد:

- سيكون جاد بالخارج معنا فهل ترتضين له الأذى؟

احتضنت جاد إلى صدري حين بدا مرتبًا مأخوذًا كعادته منذ رحلنا عن رانتاز. هدأت من روعه، ثم عدت بوجهي نحو ذلك الكهل ورددت:

- أليست لديكم وسيلة أشرف لفرض الأمر غير جاد؟

افترفاه عن ابتسامه باهتة:

- نحن نأخذ الخبرة عن السابقين، لقد استدعيت يوسف إلى شركه الأول لخوفك على جاد، ثم دبرت كل ما قمت به وقت حصار الوافدين- من استدعاء مالك للوزارة، وعزل الوزير حكيم، ومحاولة إقصاء حارث، لأجل جاد. هربت من

الانقلاب لأجل جاد، ثم وافقتِ صهدًا على زيجتك من مالك  
لأجل جاد، أهنالك ما هو أهم من جاد؟

- الخطأ خطأي منذ البداية، ما توجب أن أخضع لابتزازهم  
بأول مرة. ما إن تخضع وتلين أمام المساومة الدنيئة لمرة  
واحدة ينكشف ستر ضعفك، ثم يستمرون في الضغط على  
أضعف ما فيك مرة بعد مرة لتزهق روحك في كل مرة.  
توجب عليّ أن أهرب أو أرفض أو أقاوم بأية طريقة أو  
عبر أي سبيل، إلا أنني اتخذت الطريق الأيسر بلا تفكير في  
العواقب البعيدة.

ران علينا الصمت من بعدها، فلم يحاول الرد ولم أبادر إلى  
فتح باب الحديث مرة أخرى. بقينا نسير حتى خرجنا من  
بوابة صورف الشرقية لتتجه نحو الطريق المحاذي لضفة نهر  
جودي، أخذنا نتقدم فوقه متجهين نحو الشرق، بينما توغل  
الليل حتى بلغنا أسوار معبدٍ يطل على النهر مباشرةً، ويلتف  
الطريق من حوله مفارقًا ضفة النهر، بدا أن السور يحيط  
المعبد من اتجاهاتٍ ثلاثة في شكل مربع، أما الاتجاه الرابع  
فكان ضفة النهر نفسه. سمعتُ الحرس بالخارج يقولون عليه  
معبد طليطيل على الرغم من أننا لم نكن قد بلغنا أية بلدة  
بعد. توقفت العربات أمام بوابته الجنوبية لدقائق قبل أن  
يُفتح لنا، من ثمّ ولجنا إلى الداخل في عرباتنا التي أوقفوها

ما إن جاوزنا الباب. نزلنا حينها لأرى أمامي فناءً مربعًا كبيرًا مقسومًا إلى شطرين، يتوسطهما طريقنا إلى بنايات المعبد الواقعة أمام ضفة النهر مباشرةً، فيما ملأت أشجار الفاكهة كلا الشطرين. تحركنا سائرين في ذلك الدرب ينير لنا صفان من المشاعل، بينما أمسك جاد بيدي، إلى أن وصلنا بالأخير إلى بناء معبد هرمي الشكل كسائر المعابد هنا، عن يمينه استقرت بناية من طابقين بدت كمعيشة الكهنة، وعن يساره وجدت تبة صخرية مرتفعة في ارتفاع ثلاثة طوابق، لكن ارتفاعها لم يكن رأسياً قائماً، بل بدا ارتفاعاً تدريجياً، من المقدمة لم يبدُ ارتفاعها أكثر من ستة أذرع، وكلما اتجهت ناحية مؤخرتها باتجاه النهر كلما زاد الارتفاع لتبدو أعلى نقطة فيها تلك الملامسة لضفة نهر جودي.

أدخلوني أنا وجاد برفقة قائد الجند ومستشار الملك إلى صالة استقبال متواضعة بالطابق الأرضي من بناية المعيشة، أنارتها ثلاثة مصابيح زيتية، وفُرشت أرضيتها بقطعة دائرية حمراء من الصوف، بينما استندت إلى ثلاثة من جدرانها البيضاء أرائك خشبية مستطيلة. جلسنا أنا وجاد على إحداها أحيطه بيدي، بينما جلس الآخران على المقعد المقابل لنا، من ثمّ دخلت علينا كاهنتان صغيرتان سنًا، بمنتصف عقدهما الثالث تقريبًا، جلستا على الأريكة الثالثة، بدتا بشوشتين مبتسمتين، يتأملانني أنا وجاد بود، لكني لم أفتح بابًا

للحديث، لذا بقينا لا نتكلم لبرهة حتى جاء جندي دخل علينا من الباب قائلاً بأنهم استعدوا للأمر. ابتسم ذلك الكهل قائلاً:

- لا نريد أن نصعب الأمر عليك، اتركي جاد في موضعه سيهتم به مضيفونا.

قالها ناظرًا نحو الكاهنتين. أملث وجهي نحو وجه جاد مبتسمة ثم قلت:

- لا تقلق يا صغيري، ما هي إلا دقائق وأعود إليك، لن يستطيعوا أذيتنا، فقط انتظر عودتي ولا تغادر مكانك.

- ألن نعود إلى قصرنا بآربوس الشمالية؟ أنا مللت الارتحال والهرب.

جاهدت لأواصل التبسم ثم رددت:

- أنت لا زلت ملكًا على آربوس الشمالية، لكننا قد نترك هذا الملك وهذه الصراعات كي نعيش بيت هادئ مطمئن لدى ضفة البحر، ألن تحب ذلك؟

- ألن نرتحل أو نهرب من بعدها؟

- بلى لن نرتحل ولن نهرب، سنبقى فيه آمنين مطمئنين، نلهو على شاطئ البحر، أو نتسابق أو نصيد، ستكون أيامًا هائلة.

- إذن خذيني إلى هناك.

- سأنتهي هذا الأمر هنا، ثم أمرهم بأن يدبروا لنا ما حكيت لك عنه.

- ألا يمكن أن تأخذيني معك فيما أنت مقبلة عليه الآن؟

- لا يا صغيري، إن هذا الأمر لا يقوم به سوى الراشدين، ستنتظرنني هنا لبرهة قصيرة ثم أعود إليك.

- لا تتأخري يا أمي.

- لن أتأخر يا صغيري.

قام القائد ليصطحبني، مشينا خلف ذلك القادم الذي أخبرنا بتمام الاستعداد بينما أمسك مشعلًا في يده حتى بلغنا تلك التبة، ولجنا إلى داخلها عبر كوة بجانبها بعد المقدمة بقدر خمسة أذرع، لنفيض إلى نفق ضيق لا يزيد اتساعه عن متر واحد، ولا يزيد ارتفاعه عن مترين. تقدمنا بداخله في اتجاه النهر لأشعر أن النفق ينحدر لأسفل تدريجيًا داخل هذه التبة الكبيرة، بينما صرث أشعر ببرودة تضرب أوصالي وارتجاف يتحرك بين أصابعي، إلى أن وصلنا بالأخير كهفًا مخروطيًا يضيق في أعلاه، ويتسع دائريًا بالأدنى في دائرة يزيد قطرها عن عشرين ذراعًا، فيما انتهى نفقنا إلى مصطبة بمنتصف الكهف، يحيطها ماء النهر من كافة الجوانب سوى

ممرنا أو نفقنا إلى الخارج. بدا أن منفذ ماء النهر إلى داخل هذا الكهف تحت مستوى المسطبة، كما استنتجت أن ارتفاع المسطبة أعلى من مستوى سطح النهر بالخارج، في حين وجدت بانتظارنا أولئك الكهنة الثلاثة يحمل أوسطهم مشعلًا.

ما إن بلغتهم اقترب مني أحدهم من بدا رئيسهم أو أكبرهم سنًا، مد يده اليسرى نحوي بلا حديث فناولته يدي مرتجفةً، أمسكها براحة يده الممتدة، في حين برزت مدية صغيرة بيده اليمنى مدها لي جرح سبابتي؛ حاولت التملص إلا أنه أحكم الإمساك بيدي حتى جرحها رغبًا عني، من ثم أهرق بعض قطرة من دمي في الماء قبل أن يجتذبني لأركع إلى جواره على حافة المسطبة الأمامية، بينما صارت انتفاضات جسدي أشد. أخذ يحرك يدي الدامية بقلب الماء، وكأنه يستدعي سمكًا من الجوارح مثلما سمعت عن نوادر الصيادين، ليمر قدر دقيقة ويتركني، عندها أخرج ثلاثتهم من بين ثنايا جلابيبهم ثلاثة عصي ذهبية، اعتدلوا راكعين على المصطبة، كبيرهم عند رأسها والآخر على جانبها الأيمن والأخير على الأيسر، أخذوا يطرقون الماء بعصيتهم لبرهة طالت لبعض دقيقة، لم أعرف حينها هل تلك طقوس حقيقية لاستدعاء الذكران أو الذكور كما يحكون أم أنها من ابتكار أولئك الكهنة، لكنني بقيت واقفة في مكاني أحاول الضغط على جرح يدي كي يتوقف عن نزيفه بينما بقيت أرتجف



على حالي.

إلى أن أحسنا بشيءٍ من الجلبة في الماء، صار يفور كأنه يغلي لدقائق قبل أن يمتلأ من حولنا برؤوس ضخمة برزت على حين غرة من تحت سطحه، لهم شعر رأس وذقون طويلة سوداء، وأعين زرقاء، فيما استقرت لؤلؤة الميلاد بأعلى جبهة كل منهم، من ثمّ برز كرسي معدني من تحت الماء يحمله أربعة منهم، فيما علاه أحدهم، بدا أكبرهم، بجسدٍ مفتول ضخم يزيد عن حجم ذكر البشر بقدر ذراع، في حين غطته الحراشف السميقة لدى عدة مواضع مثل الصدر وجانبي الأكتاف والظهر والرقبة، فيما ظهر ذيله مثل ذيول الحوريات يمتد حتى منتصف بطنه.

كدتُ أن أسقط مغشياً علي، لا سيّما أن ذلك الضخم أشار نحوي بإصبعه، ثم نطق من حلقه بنغماتٍ لا ترتقي لكونها لغة يمكن التواصل بها، فأشار له كبير الكهنة بمعنى الإيجاب أو الموافقة، أو أنني التي جئت لأستدعيهم، بعدها أخذ الكاهن يعقد يديه معكوستين أمام صدره، ثم يفردهما ليرسم بهما دوائر، فهمت من تمثيله أنه يقول لذلك الذكر المسيطر أننا نبتغي حمايتكم، فرد الذكر بإشارةٍ لم أفهمها، لكنها بدت تتعلق بالحوريات. ما لاحظته بشكلٍ أكبر أن الكاهن اضطرب مع إشارة كبير الذكور، إلا أنه أشار بالموافقة.

أخذا يشيران لبعضهما أكثر من مرة كأنهما يتفقان على بنود عهدٍ لا أفقه عنه شيئًا، وبين الفينة والأخرى تخرج تلك النغمات من حلق هذا الذكر لتهوي بقلبي كلما سمعتها، فيما بدا أن المستشار الكهل الذي اصطحبني قائلًا أنني من سأحضر الاتفاق وأفهمه كان يستصغر عقلي، فلم يتكلموا أبدًا، إنما تحدثوا بلغة الإشارة وحدها. استمروا لعدة دقائق، ولما انتهوا من حديثهم أشار الذكر برأسه نحوي، فجاءني الكاهن عندها طالبًا أن أشير برأسي موافقة، في حين كنتُ في حالةٍ لا يرثى لها أتمنى أن ينتهي الأمر وحسب كي أرحل من هنا، لذا أشرت موافقة ليقفز في حينها أحد أولئك الذكور من الماء إلى المصطبة، تمدد على ظهره فاغترًا فاه، بينما تحرك خيشومان خلف أذنه، ليبادر الكاهن إليّ قائلًا أنه ما عاد مطلوبًا مني سوى أن أنفخ في فيه ذلك المستلقي على وجهه. اشمازت نفسي وحاولت التراجع إلا أن الكاهنين الآخرين أمسكاني، لأصرخ وأحاول الإفلات، لكنهما ثنيا جسمي إلى جوار ذلك الذكر، بينما أخذ كاهنهما الأكبر يردد بينما يضع يده فوق رأسي:

- لتشهد علينا روح آربوس الحية أننا تعاهدنا، كي ترتضي نقل القبس من هذه الروح الكاملة إلى الذكران، هنا بين ثناياها وتحت رؤيتها في هذه البقعة التي يجتمع فيها البر بالنهر والبشر بذكور الحوريات.

هنا أخذ ثلاثتهم يقربون رأسي من رأس ذاك الذكر المستلقي حتى صار وجهي أعلى وجهه لا يفصلهما قدر أنملة، من ثم همس إلي الكاهن قائلاً:

- انفخي أنفاسك داخله كيلا تقترب أكثر من ذلك.

أغمضت عيني وصرتُ أنفخ حتى رفعوا رأسي، رأيتُ جسد ذلك الذكر ينتفض وأحسست أن الكهف كله يهتز مع انتفاضات جسده، لكني لم أبق بعدها، حيث جذبني قائد الجند من يدي واتجهنا نهرول خارجين في النفق حتى عدنا إلى غرفة جاد، وجدته بين الكاهنتين يسامرانه، فهرعت نحوه لأحتضنه. أخذته من بينهما وصرخت في ذلك المستشار الكهل قائلة:

- خذوني من هنا، ألم أنفذ لكم ما طلبتم؟

التفت نحو قائد الجند قائلاً:

- هل تمتم الأمر؟

أشار برأسه موافقاً ورد:

- يبدو ذلك، لكننا ننتظر تأكيد الكهنة وحسب. لن ننتظر خروج الذكران إلى المعبد هنا كي يتم تجهيزهم باللباس والسلاح وغيرها، فكما قال الكهنة إن عددهم سيكون عدة

آلاف، وقد يستغرق الأمر بعض يوم.

التفت الكهل إليّ مبتسمًا:

- كما سمعتِ، ننتظر تأكيد الكهنة وحسب، هذّي من روعك واجلسي، فقد أتمنا القسم الأصعب في هذا الأمر كله.

جلستُ مضطربة على مضضٍ لتمر عدة دقائق، ثم جاءنا كبير الكهنة مضطربًا قبل أن يخاطب الكهل قائلاً:

- لقد أتمنا أمر الاستدعاء، لكن ما لم نتوقعه أن شرطهم لم يكن الحفاظ على الحوريات، أو البقاء بعيدًا عنهن، بل طلبوا مساعدتنا في أسر كل الحوريات اللائي نزلن لبر آربوس أو القضاء عليهن.

رد الكهل مبتسمًا:

- ما يهمنا أنهم أصبحوا في صفنا، ما يأتي بعد ذلك سنرتبه على مهل.

بقيتُ جاحظة العينين لا أدري ما الذي ساعدتهم فيه، وإلى أي مدى سيؤثر ذاك الاستدعاء على تفاصيل النزاع بكل آربوس، لكنهم لم يمهلوني كي أسأل أو أتحدّث، بل أخذني ذاك القائد قليل الحديث نحو إحدى العربات أنا وجاد، وانطلق بنا وحدنا راجعين إلى صورف، إلا أنني ما إن عدت

إلى غرفتي لم أجد سوى زهرة لتقول لي أنني ما إن غادرت  
جاء من اصطحبوا ميرا.

# خروج الذكران

ميرا

ما إن اصطحبوا مارينا ورحلوا جاءني عدة جنود أخذوني،  
ركبنا عربة مغلقة ذات مشاعل، وبعد طول مسير بين  
الطرقات بلغنا ما بدا أنها دار السلاح بصورف عقب الغروب  
بساعة، تجاوزنا بوابة سورها وعبرنا فناءها قاصدين بناية  
مستقلة صغيرة من طابقين، استقرت بركن الفناء الخلفي  
إلى جوار البناء الرئيسي الضخم للدار، نزلنا عن العربة لألج  
عبر مدخل البناية الصغيرة وبصحبتني جندي واحد، فيما بقي  
زملاؤه بالخارج جوار العربة. وجدتُ ممرًا ضيقًا أضيء بصف  
مشاعل على جانبه الأيمن، في حين استقرت على جانبه  
غرفتان كبيرتان بالطابق السفلي، لكننا أكملنا إلى نهاية الممر  
لنجد سلمًا أخذنا نحو الطابق العلوي، مشينا لعدة خطوات  
في ممر الطابق الثاني قبل أن نلج عبر باب غرفة على يميننا،  
وجدتها محاطة بالأرائك المستندة إلى كافة الجدران، بينما  
تنيرها مشاعل زيتيه، فيما جلس على الأريكة الموازية للباب  
رجل بدا قائدًا أو كبير جند.

أشار لي بالجلوس على إحدى الأرائك أمامه، فجلست  
وجلس ذاك الجندي إلى جوارني، ليبتدر القائد حديثه مبتسمًا:

- هل لا زلتِ تشعرين بالولاء لمملكة الوافدين، أم أن ولاءك ليوسف نفسه؟

بدا غير كل من سبقوه ممن حاولوا الحديث معي بالترغيب أو الترهيب، أحسستُ فيه أمرًا مختلفًا، كأنه يعلم ما لا يعلمه غيره، لكنني حافظت على ثباتي ورددت:

- أظن أن الأشخاص زائلون، ما يبقى هو الأثر، وبتلك الحالة فإن الأهم هو بقاء مملكة الوافدين وليس أنا أو يوسف أو غيرنا.

اتسعت ابتسامته:

- هذا من أقوال يوسف أيضًا، كررها في العديد من خطاباته التحفيزية، يبدو أن تأثيره عليك كبير للغاية.

حاولت أن أجاري ابتسامته الحمقاء فابتسمت ورددت:

- إن تأثيره واضح للعيان بكل بر آربوس، أقام ممالك وغزا أخرى، وغيرها هرع إلى طلب أمانه، ألا ترى ذلك؟

- بلى أرى، بل واستدعى الحوريات أيضًا وتزوج أميرتهن، حتى أنها أصبحت تحمل ابنه الآن. يقولون إن أمارات الحمل ظهرت عليها ما إن بلغت شهرها الخامس، وعلى الرغم من ذلك ظلت قوية صلبة. أظن أن الحوريات لديهن قدرة على

التحمل أكثر من نساء البشر، كما يبدو أنهن أجمل وأرق.

لم أستطع حينها أن أجاري ابتسامته، بل اكفهر وجهي رغماً عني. رددتُ غاضبة:

- دع عنك هذه الحيل، لن تخدعني بها.

نظر نحو الجندي الذي رافقني قائلاً:

- استدع رجلنا بمملكة الوافدين من الغرفة المقابلة.

خرج ذلك الجندي لدقيقة واحدة، ثم عاود بتاجر أسماك مجففة من مملكتنا، كنت أعرف هيئته جيداً. سأله ذلك القائد قائلاً:

- هل حملت أفرودينا في ولد يوسف؟

- نعم يا سيدي، كل مملكة الوافدين عرفت ذلك، ولما ثقل حملها قل خروجها وأصبحت لا تبارح منزل سيد الوافدين إلا في القليل.

أشار بانصرافه فصرفه الجندي لأبدر قائلة:

- لن تخدعني بقوله أيضاً.

- أنا لا أريد خداعك، أنا أريد أن أطلعك على ما تهتمين لأمره كيلا يصيبك هول المفاجأة فيما بعد. كل الصراعات



بين هذه الممالك أعرف أنها لا تعنيك بقدر ما يعنيك أمر يوسف، لذا فأنا أقدم لك خدمة عالية.

قام واقفًا وأعطاني ظهره لينظر من نافذته ويواصل:

- لكم ضحيت يا ميرا! من وقت أن كنت صببة بقلب قبيلتك القديمة وسارعت لإنقاذ يوسف من أسريه، وساعدتته من بعدها في استكمال هربه، ثم تعودين ولا تجدين أخواك، كذلك بذاك اليوم الذي حاول الرعاة خيانتته وهو لا زال بقلب قريته الصغيرة، هرعت تحذرينه، ولم تتوقف تضحياتك يومًا. ألقيت نفسك بقلب ساحة آربوس لتحريره من ساحة إعدامه، ثم أصبت بجروح وندوب بليغة أثناء عودتك برفقته، جروح بقيت كعلامات على الإخلاص بجسدك، في ظهرك، وفخذك، وبطنك، جروح صارعت الموت أيامًا وليال بسببها إلى أن أنقذك أطباء آربوس، ثم آل بك الحال إلى أن بقيت تنتقلين من أسرٍ إلى أسر، ومن سجنٍ إلى سجن منذ بضعة أشهر. من الذي اهتم لأمرك اهتمامًا حقيقيًا؟ من الذي حاول إنقاذك بمجازفة كبيرة كتلك التي قدمتها أو تفاوض حتى على تحريرك؟ في الأخير وبديلًا عن حفظ تضحياتك وجميلك وافق على زواجه من أميرة الحوريات، بل وسينجب منها، بينما يعيش معها هانئًا بقلب المملكة التي وضعت أسسها معه يدًا بيد. إذن لم قد يفكر في استردادك؟

عاد بوجهه ناحيتي بينما كنت أشعر أن الأرض تميد بي،  
فيما واصل:

- أريدك أن تهتمي لأمرك كما اهتم الجميع لأمر نفسه،  
ستقدمين تنازلاً صغيراً، كي تعودى للحياة التي يعيشونها  
فيما حُرمت منها. لن يقدر أحد منهم على لومك، لن يقدر أحد  
منهم على أن يعاتبك ولو بنظرة، فمن ذا الذي قدم تضحيات  
مثلك كي يلوم؟ أو من الذي قدر تضحياتك وحاول أن  
يخرجك من محبسك؟

صمت لهنيهة قبل أن يواصل:

- نحن استهلكنا مخزوننا من البارود، لم يعد لدينا إلا بعض  
جرة، إن صنعت لنا قدر خمسين جرة من جرار البارود التي  
داوم يوسف على أن يبعثها لنا دون أن تنقلي لنا علماً ولا  
طريقة، فلك علينا أن نحرك، بل سنوصلك حتى أبواب قلعة  
سرابوس، مع مكافأة قدرها ألف قطعة ذهبية، ولن يضيرك  
الأمر أبداً، ولن يضير مملكتك، فسيدكم نفسه ذات يومٍ أقام  
اتفاقاً من خلاله كان يبعث لنا جرار البارود كل عام لعدة  
سنوات.

عاود الجلوس في موضعه وأكمل:

- أنا لن أنتظر رذك الآن، سأمنحك عدة أيام ثقلبين الأمر

على كافة أوجهه، لكن اعلمي أنك إن رفضت لن أعذبك أو أحاول استنطاقك لأنني لا أحب هذا الأسلوب، بل سأقتلك قتلاً رحيماً، ضربة سيف واحدة، فأنا لا أطيق كثرة المفاوضات أو التعلق بالأمل، وعندها لن يتسنى لك أن تعيشي حتى تري بطن أفرودينا تحمل ابنه، ولن يتسنى لك الوقت كي تنظري في عيني سيدك يوسف وتعاتبينه. أظن أن هذا أسوء من الموت نفسه!

أشار عندها للجندي فأخذني من يدي، تحركت معه وأنا لا أشعر بقدمي، لا أرى خطواتي، لا أسمع صوت أنفاسي. سرنا نحو غرفة في ذات الطابق بآخر الممر، فتح بابها، ثم دفعني إليها قائلاً إنها ستصبح موضع إقامتي حتى أنظر فيما عرضه علي نائب قائد دار السلاح، قبل أن يغلق الباب ويظل واقفاً أمامه لحراستي. تحركت بخطوات واهنة حتى جلست على طرف سرير صغير استقر إلى جوار الحائط المقابل. نظرت أمامي شاخصة، ثم نزلت دموعي ساخنة، ولم تمر دقائق وارتميت على جانبي وبقيت أبكي حتى غاب وعيي، لكني ما سلمت في أحلامي من رؤية خيانتته، خيانتته لقلبي الذي انتظر طويلاً بلا أمل، ولما لانت له الآمال وظن أنه بلغ موطنه ما لبث أن ذابت أمانيه وأبعده القدر، لكن بقي الأمل في معاودة اللقاء، بقي الأمل في الموطن، إلى أن فجعته الخيانة، بيد أنني لما قمت صباحاً أدركت أنني على الرغم من

كل النار التي استعمرت صدري، لكني لن أقدر أبدًا على أن أمسه بأيّ منها، حتى وإن قتلوني كما يقولون، النار بصدري قد تأكل اشتياقي، تُحطم رغبتني في لقاه، لكنها لن تنبت كرهًا أبدًا، كما أن هذه المملكة قطعة من روحي، كل تضحياتي إن لم تكن لأجله، ستكون لأجلها، لأجل أطفالها الذين كانت تلين عظامهم من قلة الشمس بالكهوف، ثم صاروا بالأعلى يتنفسون النور والحرية، يتعلمون ويترعرون وسط حياةٍ حقيقية، لأجل نسايتها المستضعفات، من كن يكافحن لأجل زادٍ بالكاد يسد الرمق لأطفالهن، ثم أصبحن في كفالة المملكة بالأعلى، من أجل كهولٍ عاشوا وسط الفقر، وسط حملات الترهيب والأسر، إلى أن شاخوا وسط أمان أسوارنا وهيبة جيشنا، من أجل رجالٍ كانوا بلا شيم الرجال، ثم صاروا يزارون بالعزة والكرامة، لأجل حياةٍ ولدت أعلى الجبال، لأجل الحرية، لأجل أملٍ مستمرٍ ترعرع، هذا كله أبقى من قلبي الذي عُدر به، أبقى من نفسي ذاتها، إذن لا يعنيني هذا العتاب المنتظر.

مرت الأيام تُجرجر بعضها، يأتيني زادي بيد الحارس نهارًا ومساءً، أكل بالكاد ما يسد رمقي، أنتظر ذلك العقاب المريح بالموت، فلم تهدأ النار بصدري أبدًا حتى وإن كتمتها بداخلي؛ هي لم تأجج رغبةً في الصراع بروحي، لكنها رويدًا رويدًا أخذت تأكل رغبتني في الحياة، كأن سحرَ ذلك القائد انقلب

عليه، فكل ما دبره لأجل تحريك أمواج الانتقام بقلبي، لم يحرك بداخلي إلا الرغبة في عدم المواصلة، لا سيّما إن دام أسري بين جدران هذه الغرفة.

لكن يشاء القدر أنني بعد عدة أيام في محبسي أجد ما يُعيد بث النبض إلى أوردتي من جديد، ويمنحني أملاً في الخروج من هذا الأسر، ففي صبيحة ذلك النهار سمعت حديثاً مضطرباً يفوح برائحة التوتر والخوف والترقب، بين الجندي الذي يجلب فطوري مع ذاك الحارس المناوب أمام باب غرفتي. قال إن جيش طليطيل بقي ينتظر أمام معبد التبة لعدة ليالٍ حتى اكتمل خروج الذكران وتجمعهم بين أسوار المعبد، تسعة آلاف ذكر فارعو الطول، إلا أنهم ما إن خرجوا وتهيأوا باللباس والعتاد حدث خلاف بين قائدهم وقائد جيش طليطيل، البعض قال إنهم لم يستطيعوا التفاهم مع بعضهم بسبب عدم تفهم الذكران لأية لغة للتواصل، والبعض الآخر قال إنهم ما إن خرجوا طلبوا التوجه مباشرة نحو آربوس الشمالية لقتل الحوريات أو أسرهن ومن تعاهد معهن، بينما رفض قائد جيش طليطيل، وفشل الكهنة في التهدئة والتوفيق، فاعتبر قائد الذكران رفض قائد الجيش نقضاً للعهد، ليتحول الأمر في حينه إلى معركةٍ خاطفة بين جيش الذكران وجيش طليطيل نتج عنها إفناء جيش طليطيل بالكامل خلال بعض ساعة، حيث وجدوا أن أجساد الذكران

لم تتأثر بالضرب بالسيوف أو الرمي بالسهام بسبب الحراشف التي تغطي أجسامهم. من بعدها انطلق ذلك الجيش المنتصر إلى بلدة طليطيل، اقتحموها وأعملوا القتل فيها، ليهرب أهلها نحو المملكة الأم لآربوس الجنوبية، فقد خشوا مجرد التحرك ناحية النهر.

لم تتوقف الأخبار عند ذلك، ففي الشروق التالي شعرت بحركة كثيفة داخل أسوار دار السلاح، نظرت من نافذة غرفتي، وجدت اصطفاً كبيراً للجند بالفناء، بدا أنهم يستعدون لأمرٍ جلل. انتظرتُ أحترق شوقاً لأي خبرٍ جديد، حتى جاء الفطور، وتحادثت نفس الجنديين. قال صاحب الأنباء أن جيش الذكران استقر ببلدة طليطيل ولم يتحرك منها، فرأى الكهنة أنهم بعد القتال الذي نشب بينهم وبين جيش طليطيل، استعدوا آربوس الجنوبية باعتبارها خانت العهد، لذا لن يتحركوا نحو الشمال إلا بعدما يفرغوا من أمر الجنوب، لذلك تجهز موكب من الكهنة من سائر معابد آربوس الجنوبية، وتوجهوا نحو طليطيل عليهم يزيلوا الخلاف ويعيدوهم لعهدهم، بينما صار الملك لاسيد يتمنى أن يغادروا نحو الشمال وحسب، حتى وإن لم يساعده في أيٍّ من مساعيه، في حين أخذ يجمع الجند من سائر البلدات على تخوم صورف خارج أسوارها استعداداً لأي غدرٍ جديد من الذكران.

انتهى حديثهم، فجلست على طرف سريري متشفية؛ ها هو لاسيد الذي خان رانتاز وخذع الشماليين، من ضحى بكثيرٍ من جنده الأبرياء، وقدم باروده في الخفاء، من ظن نفسه البارع الوحيد والمدبر الأدهى، كل ذلك كي يجلب مارينا ويستدعي الذكران، بالأخير صاروا وبالأعلى عليه يتمنى عودتهم إلى قيعان النهر، أو رحيلهم نحو آربوس الشمالية، لكن لم يدم إحساسي بالتشفي كثيرًا؛ بعد ساعتين جاءني ذاك القائد إلى غرفتي، بدا وجهه مختلفًا بالكلية عن الوجه الذي قابلني أول مرة، بدا قلقًا مذعورًا. وقف أمامي بمنتصف الغرفة ثم قال بصوتٍ جاف حاول ألا يظهر فيه خوفه:

- انشغلت عنك لبعض يوم، لكن لم يعد لدي متسع من الوقت، إما أن تصنعي لنا البارود الآن أو تلقي مصيرك غدًا في هذه الساحة.

كنت مدركة لما هم فيه من تخبيطٍ وتضارب، أعلم أنهم لا يعرفون مصيرهم مع ذلك الشر الذي استدعوه من أعماق النهر، فحاولت أن أكتسب مزيدًا من الوقت لنرى ماذا سيحدث في الأيام القادمة، لذا لم أسارع بالرفض ورددت:

- أديكم أي من مواد البارود كي أصنعه؟

أحسست أنه تفاجأ من ردي؛ لم يتوقع أن أهادن أو أرضى،

أو من الممكن أن أمر الذكران كان يشغل تفكيره أكثر من أمر البارود نفسه، لكنه سايرني قائلاً:

- أنت من ستطلبين ونحن علينا إحضار ما تحتاجينه.

- إذن أحضروا لي زهر الكبريت، ما ندعوها بُدرة الشمس، من بعدها سأخرج مع بعض الجند لنبحث عن المادة الثانية.

- أية مادة ثانية؟

- ملح الصخر، لن تميزوها، لا يُفرّقها عن غيرها من المواد البيضاء المترسبة إلا من عمل عليها، لكن أحضروا بُدرة الشمس أولاً، ثم نبدأ فيما يليها.

جاهد ليرسم ابتسامة انتصارٍ خافته على شفّتيه قبل أن يتجه نحو الباب قائلاً:

- لا تظني أنك قد تخدعيني، بدرة الشمس متوفرة لدينا بكثرة، وسأخرج معك بنفسك كي نبحث عن تلك المادة الثانية، استعدي للخروج غدًا.

بقيت أفكر فيما قد أفعله لأجل هروبي من بين أيديهم إن خرجت بصحبتهم، لكنني قررت أن أترك الأمر إلى حينه، مع قناعةٍ راسخة أنني لن أصنع لهم البارود ولن أعلمهم حرفته حتى وإن قتلوني بالأخير، لكن مر صباح اليوم التالي كله



ولم يأتي القائد أو يستدعني، ما جدّ أن أعداد الجند بالفناء أخذت تتزايد بمرور ساعات النهار، وبالمساء مع ورود عشائي سمعت تخاطب الجنديين من جديد، عرفت أن أولئك الذكران قتلوا وفد الرهبان كاملاً، ولم يتركوا إلا راهباً واحداً ليعود مبلغاً رسالتهم، بأنهم لن يرحلوا إلا بعدما يخضع لهم جنوب النهر كله، ويدخلون سائر بلداته، ويستسلم لهم سائر جنوده. وقتها بدأ الخوف والشفقة يتسللان إلى قلبي بديلاً عن التشفي، ليس على أهل آربوس الجنوبية وحسب، بل على كل بر آربوس من ذاك الشر الذي استدعوه.

في ليلتها ومع انتصاف الليل، أخذت فرق الجند بدار السلاح تتحرك مغادرة، حتى انفض الفناء قبيل الشروق؛ أدركت أن لاسيد انتوى الحرب. انتظرتُ حتى انبلج الصباح، واتجهت نحو باب غرفتي، طرقتُ الباب وسألت الجندي المائل أمامه:

- هل انتوى جيش الجنوب قتال أولئك الذكران؟

رد بصوتٍ بدا عليه الاضطراب من خلف الباب:

- بل هم من انتووها، لقد تحركوا من طليطيل باتجاهنا بعد مقتل الرهبان مباشرةً، كشافونا أرسلوا الحمامات بذلك ما إن خرجوا.

- وأين سيلتقي الجيشان؟

- ما أعرفه أن جيوشنا ستتراص أمام أسوار صورف هنا، فيما سنغلق سائر أبواب البلدة. لقد جمعوا الجند من كافة البلاد مسرعين للتصدي لهذا البلاء، الأمر كان كالحلم، تستدعي من تبتغي عونه فينقلب عليك قبل أن يساعدك بضربة سيفٍ واحدة.

لم تمض بعدها عدة ساعات، وما إن أوشك الغروب، حتى فزعث أنا وجميع أهل صورف على أصوات صياحٍ عالية غريبة، لم نسمع مثلها من قبل، بدت مزيجًا من الصيحات والصرخات وعواء الذئاب، أخذت تقترب من ناحية الغابة بالشرق، وكلما مر الوقت كلما اقتربت أكثر. أدركت أنها أصوات الذكران، فعلى الرغم من غرابة صيحاتهم إلا أنني تخيلتها صيحات حرب. ظلت تقترب حتى امتزجت بأصوات أبواق قوات آربوس الجنوبية خارج الأسوار. تخيلت المشهد من عندي، الذكران تحركوا عبر الغابة قادمين من طليطيل حتى أصبحوا على مشارف صورف، وقوات آربوس الجنوبية جميعًا تتراص أمام الأسوار، ولما ظهرت طلائع الذكران أخذ جنود آربوس الجنوبية يضربون أبواق الاستعداد.

لكن لم تمر هنيهة وانقطعت صرخات الذكران لتسود حالة من السكون التام داخل كافة أنحاء البلدة، كأن جميع

من فيها خائف يترقب، إلا أن تلك الحالة لم تدم إلا لبرهة قصيرة، ثم أخذنا نسمع صرخات الجنود كأن جلودهم تُسلخ من على أجسامهم، بدا أن الذكران عندما يبتدرون القتل يتوقفون عن الصراخ والصياع، ليمر بعض ساعة وأسمع صيحات الذكران من جديد، لكن داخل طرقات صورف وقد امتزجت بصرخات النساء والأطفال والرجال؛ أدركت أن جيش الذكران أجهز على جيش الجنوبيين، ثم استطاع بشكلٍ أو بآخر أن يخترق أسوار صورف، عندها أخذتُ أطرق الباب وأنادي على ذلك الجندي بأن يفتح لي، إلا أنه بقي مترددًا حتى صارت الصرخات أقرب وأقرب، عندها فتح لي باب غرفة حبسي وأخذ يركض أمامي في الممر.

لما خرجت إلى الشارع الأساسي أمام دار السلاح رأيتهم على أضواء المصابيح الزيتية يمتطون الخيل راكضين بين طرقات صورف، بدت أحجامهم ضخمة، تكاد أرجلهم تلامس الأرض من فوق أظهر الخيل، رؤوسهم كبيرة، وأجسامهم مغطاة بطبقة سميكة من الحراشف، بينما عم الهرج والتخبط بين سائر الخلق، الكل يركض هنا وهناك، اشتعلت الحرائق في بعض المنازل والحوانيت، تبعثرت الأغراض والعربات في جانبي الشوارع، لكنني لاحظت وسط ركضي أنهم يقتلون الرجال وحسب، كلما قابلوا أيًا منهم في الطرقات، سواء كانوا جنودًا أو غير جنود، فبقيت أركض في الشارع لا أدرك

إلى أين أذهب، إلى أن سمعت الناس يصرخون:

- لقد قُتل الملك لاسيد.

- قُتل الملك لاسيد.

وقتها قفز إلى ذهني مشهد مارينا وولدها جاد، فأخذت أركض نحو ذلك القصر الكبير الذي أخذونا فيه، ليفاجئني ما إن اقتربت من أسواره عند تلك الساحة المائلة أمام سوره الغربي، أن وجدت وسط الفوضى والهرج، أنثى تحمل طفلًا يُشبه جاد، بدت تغطي رأسها كله، وتلبس عباءة سوداء تجرجر أذيالها، كأنها تحاول التخفي. جريت نحوها لأتأكد أنها مارينا، فعاجلتني هامسة:

- أخبرني أحد الكهنة قبل قتله بأنهم سيبحثون عني، كي يستخدموني في استدعاء المزيد، قال أنهم جميعًا يعرفون شكلي حتى وإن لم يروني، ونصحتني بالتخفي والابتعاد عنهم. لقد قتل الذكران زهرة أثناء اقتحامهم القصر، كانت تحاول حمايتي وإشغال انتباههم عني.

تساقطت دموعها وقالت وسطها:

- ضربها أحدهم بقبضته ضربة واحدة عند باب القصر فسقطت، ملت عليها أحاول استنهاضها، لكن فارقتها الروح وهي تكرر عليّ بأن أنجو بحياتي.

لم أتركها تواصل البكاء والنحيب، أمسكت يدها وأخذنا نهرول في الطرقات متجهين نحو بوابة صوف الشمالية، منتوين الهرب نحو رانتاز، إلا أننا ما إن بلغناها وجدنا لديها تجمهر كبير للخلق، فيما ظهر الذكران يقفون عندها، كانوا لا يمنعون أحدًا من المغادرة، لكنهم كانوا يفرزون النساء بدقة، من تُغطي وجهها يكشفونه، ومن تستتر بطفلٍ تحمله ينزلونه، ثم يتركونهن يعبرن بعدها؛ أدركنا أنهم يبحثون عن مارينا، فالتفنا عائدين.

## ثغرة التحالف

يوسف

انفض سائر القادة بعد اجتماعنا كي يجهزوا الجند للتحرك،  
فيما بقيت أفرودينا إلى جوارِي، ما إن غادروا قالت:

- طالما عقدت أمرك، فائذن لي، ستسبق تحرك جيشنا  
سرية من خواصي من الحوريات قدرها مئة مقاتلة، أرسل  
معهن مالكا وبعضا من جنده يدلونهن على طريقهن، ستكون  
مهمتهن إسقاط كشافي زورين وكشافي رانتاز بسهامهن، كما  
سيتكفلون بأمر حمامات المراسلات.

- هل سيسقطن الحمامات بالسهام أيضا؟

ابتسمت:

- لا، لن يسقطنهن بالسهام، لا زالت لدينا لمسة حيوانية، ألم  
ترني أحدث الخيل من قبل؟

- نعم رأيته.

- ابنك أيضا سيحدث الخيل والطير، سيملك لمسة مختلفة  
لا تملكها.

أردت أن أغير دفة الحديث لا سيما أننا كنا نعد العدة من

أجل التحرك للحرب، لذا سألت:

- إذن أنتِ تضمنين هذا الأمر؟

زالت ابتسامتها وأجابت بينما تقوم من مقعدها:

- بالطبع أضمنه كما أضمن أمورًا أخرى في قبضة يدي.  
سأبلغ مالكا أن الأمر صادر منك كي يسبق مع تلك السرية.

قالتها وانصرفت دون أن تشير إلى ما تقصده بالأمور الأخرى التي تضمنها، ثم مضى قدر ثلاث ساعات على انصرافهم ليأتيني بالأخير حرسى في المجلس، أنبأوني بتجهز الجيش للتحرك. كنت قد أعددت حالي للحرب، ارتديت صديريًا حديدًا، واعتمرت خوذة معدنية فوق لباس حربي أسود من الكتان الخشن، بينما تمنطقت بسيف مزركش، وعلقت درعًا بيضاويًا فوق ظهري. وجدت كل ذلك بين مقتنيات حاكم غولار لدى غرفة ملابسه، من ثم خرجت إلى فناء القصر ما إن جاءني الحرس، امتطيت فرسي وانطلقنا نحو موضع تجمع الجند في المنطقة المكشوفة خارج السور الشرقي لغولار، وجدتهم انتظموا في مشهد مهيب تضيئه المشاعل: في المقدمة انتظم الفرسان المدرعون بدروع كاملة، على اليمين تراصت الحوريات في لباسهن الأزرق يمتطين خيلهن، وبالميسرة جاء سائر الفرسان المدرعين بدروع خفيفة في زينا الحربي الأسود الذي يرتديه

سائر جنودنا، أما الفرسان رماة الأسهم فانتظموا بالقلب خلف الفرسان المدرعين بالكامل ومعهم فرقة فرسان رانتاز، ثم جاء بالأخير مشاتنا الذين أخذوا تعليمات بالتحرك وفقاً لأقصى ما يملكون من سرعة على أن يلحقوا بالجيش ما إن يتوقف كيلا يتقيد كل فرسان الجيش بحركة المشاة البطيئة، لا سيّما أننا غنمنا قدر ألفي فرسٍ جديد عندما دخلنا غولار، مما أزداد من نسبة الفرسان بالجيش حتى جاوزت ثلثيه.

لما بلغت مقدمة الجيش تحركت أمامهم بفرسي ذهاباً وجيئةً مزهواً بمشهدهم، فيما بدا زهو أولئك الجند بحالهم، من ثمّ ابتسمت قائلاً بصوتٍ جهور:

- لقد عشتم طويلاً هناك، في قلب هذه الجبال، الآن وبفضل شجاعتكم وسواعدكم ومثابرتكم، تغزون هذه الأراضي التي كنتم تخشون مجرد النزول إليها، أنتم أشداء القلوب قساة السواعد، درّبكم الجبل على الصبر والجلد، وهو ما أقام مملكتنا فوق الجبال، لكن الآن أريد منكم كل عزيمةكم لتمدد بأسنا، إن لم نغزوهم سيفغزوننا، إن لم نبادر سيأتي يوم يحاصروننا من جديد وقد لا نقدر حينها أن نردعهم، إذن لنقذف في قلوبهم الرعب ونحاصرهم، لنفتح البلدات واحدة وراء الأخرى كما فتحنا غولار، معنا البارود والخوريات، ومعنا رجال نهضوا من قلب الجبال ليغزوا كل هذه الأرض، كما معنا



فرسان رانتاز الأشداء وأميرها مالك الذي سبقنا يمهد طريقنا،  
فهل أنتم قادرون؟

ردوا في صوتٍ واحدٍ مجلجل:

- نعم قادرون.

- قادرون؟؟

- نعم قادرون.

أشرت عندها بسيفي للتقدم، لننطلق ساعتها عبر الغابة نحو زورين، صرنا ننهب الأرض نهبًا، نتحرك بجيشنا مسرعين على أنوار مشاعلنا المتفرقات، نُضيء عتمة الليل والغابة، نثير عواء الذئاب من حولنا، بينما يتبع الفرسان أثر بعضهم لدى خطوط سيرٍ واحدةٍ كي يتفادوا الاصطدام بجذوع الأشجار أو بفروعها المنخفضة، فيما تطايرت الأغصان الصغيرة وأوراقها من قوة تحركنا، حتى اقتربنا من مشارف زورين مع شروق الشمس، عندها قابلنا مالك وثلاثة من قادة سراياه وسط جذوع أشجار الغابة، رافقني بمقدمة الجيش إلى جوار أفرودينا دون أن نتوقف، إلى أن شارفنا الأسوار ذاتها فتوقف مسيرنا. وجدتُ أولئك الحوريات المئة المتدمات قد التففن حول سائر أسوار زورين من بعيد، حيث لم تكن المنطقة خارج أسوارها مثل غولار، بل بدت مساحات زراعية كبيرة

حول كل الأسوار يتخللها جدول ماء متفرع من نهر جودي وليست مجرد أرض خلاء.

أخبرني مالك أنه كلما خرجت إحدى الحمامات من البلدة تسارع الحورية الأقرب إليها إلى إصدار صوت من حلقها وكأنها تستدعي الحمامة أو تنادي عليها فتأتيها، كما كن أصحاب الفضل في اصطياد كافة الكشافين الذين كانوا متوارين بالغبابة. ابتسمت أفرودينا واثقة إلى جوارى ثم ردت:

- أنا لا أضمن إلا ما أثق في أمره.

قالتها ثم انصرفت عتًا نحو حورياتها المئة لتطمئن على أمرهن، فيما أعطيت أوامري ببقاء قوة حصار زورين بقدر ثلاثة آلاف من المشاة وحدهم، على أن يتمركزوا مثل أولئك الحوريات المئة خارج نطاق راجمات الأسوار خلف متاريسهم ودفاعاتهم، كي تصير الأغلبية العظمى الباقية من جيشنا كلها من الفرسان، من ثم استراح الجند لبضع ساعات اكتمل خلالها وصول المشاة وتمركزهم حول أسوار زورين، كما تناقشت أثناءها مع القادة بشأن خطة الهجوم على رانتاز، ذلك قبل أن تنطلق سرية جديدة من الحوريات بقدر مئة فارسة برفقة مالك وقادته الثلاثة كي يستبقوا تحرك الجيش نحو رانتاز.

بقينا بعدها قدر ساعة، ثم انطلقت صفوفنا بنفس تنظيمها ونهجها، إلا أننا ما إن اقتربنا من أسوار رانتاز قبل منتصف الليل بساعة أوقفنا المسير حين قابلنا مالك وقادته بقلب الغابة، ليتقدم حينها سائر جيش الحوريات وفرقة فرسان رانتاز كاملة أمام صفوفنا، انتظموا في تشكيلٍ مستقلٍ قاده مالك، قبل أن ينطلقوا مسرعين نحو أسوار رانتاز، بينما بقينا ننتظر البشري منهم لنكمل مخططنا، ثم جاءتنا الأنباء بعد ثلاث ساعات، فتحركنا بسائر جيشنا لنلحق بهم، حيث أتموا إسقاط سائر جند الأسوار، وسائر سرايا الدفاع والتأمين حولها، قبل أن يدخلوا رانتاز عبر السور المتهدم بالشمال، ومن خلال إسقاط البوابة الغربية التي لم ينته إصلاحها، ليسارعوا إلى السيطرة على سائر مواضع الدفاع بالبلدة خلال ساعة، قبل أن يستيقظ سائر جند كيبول من استراحاتهم، وقبل أن نبلغهم بسائر جيشنا، من ثمّ باشرنا معهم حبس جند كيبول، وإتمام السيطرة على كافة مقاليد البلدة، فيما بدا أن معرفة مالك وفرسانه لبلدتهم أكثر من جند كيبول الغرباء عنها، مع عون الحوريات بسهامهن التي لا تخطئ أبدًا مقصدها، جعلنا السيطرة على رانتاز أهون مما تأمل أيّ منا. بدت خطوة استباقية خارقة كما حكى مالك، كما اتضح لي خلال تحركنا بالبلدة أن أهلها يكونون كل الحب لأميرهم، فما إن أدركوا أن الأمير مالك هو من عاد إليها

صاروا يخرجون من بيوتهم ليحيوا فرق جندنا التي كانت تتحرك بكثافة داخل الطرقات والساحات والميادين.

إلا أننا لم نتمم بذلك إلا نصف مهمتنا، بل ولم نلق كل ما تأملنا، فقد تمنيت أن أجد جند رانتاز محبوسين بزنازينها، لكننا عرفنا أن حارتًا ضمهم إلى جيشه واصطحبهم نحو حصار قسطا، كما أفلتت من بين أيدينا سرية من جند كيبول كانت تحرس السور الشرقي، هربت نحو قسطا لثخبر حارت عن أمرنا، لذا ما إن استقر لنا الأمر بالبلدة أعطينا أوامرنا بتقدم سرية من الحوريات مع بعض من جند مالك شرقًا، ليبقوا في الغابة بتلك المنطقة الواقعة بين رانتاز وقسطا، ككشافين لاستطلاع تحرك جيش الشماليين نحونا، كذلك قمنا بتوزيع بعض الجند في مواضع الدفاع وفوق الأسوار مع إمدادهم بالبارود الكافي للتحصن، مع تكليف البعض الآخر بالمسارعة إلى سد الباب الغربي وترميم السور الشمالي، ثم أعطينا أوامرنا بإراحة بقية الجند في ثكنات دار السلاح وفي الخيام داخل رانتاز حتى النهار التالي، في حين استضافني مالك أنا وأفرودينا لدى قصره لنبيت فيه، وفتح قصور المستشارين ورجال الحكم لسائر قادة الجند وقادة السرايا.

في الصباح جلست أنا وأفرودينا ومالك لدى بهو قصر

الأخير، ليبدأ في إعداد رسائل مقتضبة كي يرسلها راعي مراسلات الحمامات لديهم إلى حاكم قسطنطينية، حيث أبلغ مالك حاكم قسطنطينية أنه تحالف معنا وجئنا ننصره وننصر قسطنطينية من بطش المملكة الأم، كما طلب منه أن يبعث جيشه لنصرتنا ما إن ينشب القتال بيننا وبين جيوش حارث، ليرد عليه حاكم قسطنطينية بعد الظهيرة بأن جيش الشماليين سيتحرك نحونا تاركاً أسوار قسطنطينية حرة، وأنه سيفكر في أمر الانضمام لنا ضد المملكة الأم مع سائر مستشاريه، لا سيما أنهم بحرب تحرير رانتاز الأولى لما جاؤوا برفقة جند طليطيل الجنوبيين، تمت خيانتهم من قبل جند الجنوب وانسحبوا تاركين جند قسطنطينية وحدهم أمام بارود الشماليين، لذا لن يتحرك الجند مرة أخرى إلا بعد تمحيص الأمر جيداً مخافة أن يستعدي قوات أربوس الشمالية، ثم يخونه جيش مملكة الوافدين كما خانته جيش الجنوب، فينقلب الشماليون عليه مرة أخرى.

جن جنون مالك حينها وأرسل رسالة تالية وجهها إلى والده يستغيث به كي يقنع حاكم قسطنطينية بالخروج لمساعدتنا، إلا أننا لم يأتنا رد على هذه الرسالة الأخيرة، لذا أخذ يتملكني القلق مع مرور ساعات النهار، فجيش الشماليين يمثل ضعف جيشنا، ورد حاكم قسطنطينية أشعرني أنه قد تحالف مع الشماليين علينا، إلى جانب أن السماء أخذت تتلبد بالغيوم مع اقتراب الغروب، لكن أشد قلقي بدأ عندما جاءتنا الأخبار

من كشافينا مساءً بأن جيش الشماليين تحرك عند الظهيرة دون أن يترك أية قوة لحصار قسطنطينية، ثم لحق به جيش قسطنطينية بعد بضع ساعات لكن دون أن يبلغه، إلى أن أمطرت واشتدت غزارة المطر، فتوقف جيش الشماليين وجيش قسطنطينية بمنتصف طريقهم. زاد إحساسي عندها بأن جيش قسطنطينية خرج لمؤازرة جيش الشماليين وليس لمؤازرتنا، لكن ما إن أشرقت الشمس جاءتنا رسالة من صهد، بدأ أنه جاهد كي يستطيع إرسالها بعيدًا عن أعين حاكم قسطنطينية ورجاله، أخبرنا فيها أن حارث استمال جيش قسطنطينية وطلب عونهم، إلا أن مجلس الحكم لديهم أخذ قرارًا شائنًا معقدًا، وهو أن ينضم جيشهم لصاحب الكفة الراجحة في هذه الحرب؛ سينتظرون بعيدًا عن ساحة الاشتباك متعللين بأية حجة، ويراقبون احتدام المعركة، ولما وجدوا صاحب الغلبة في الكفتين سينضمون إليه، فكل الفريقين طلب مناصرتهم، وكلا الفريقين قد ينقلب عليهم إذا تقاعسوا عن نصره أيّ منهما أو نصرنا واحدًا على الآخر، لذا استقروا على تلك الطريقة.

قرأنا رسالته وضرينا أبواب الحرب ليسارع الجند إلى الانتظام في تشكيلات التحرك القتالي لدى منطقة الحقول بشرق رانتاز، في وقتٍ انقطع فيه المطر وأخذت الغيمات تنقشع قليلًا، لكنني أثناء الإشراف على انتظام صفوف الجند كان ذهني مليئًا بالتساؤلات: هل ينضم جند رانتاز إلى صفنا

وينقلبون على جيش الشماليين الذي هزمهم منذ عدة أيام  
ومن بعد تغلبه عليهم سامحهم واحتواهم؟ وإن لم ينقلبوا،  
هل يصمد جيشنا أما جيشٍ بقدر أعدادنا مرتين؟ وإن لم  
نصمد سيزيد تعدادهم بقدر عشرة آلاف مقاتل من جند  
قسطا الذين سيميلون إلى المتفوق، ثم إن البارود أصبح بلا  
قيمة في حربٍ تستعر بقلب الغابة، فلا توجد راجمات لثلقي،  
وأثر القنابل اليدوية في تلاحمٍ ضخم بهذا القدر يُعد أثرًا  
معدومًا، كما أن من المستحيل إلقائها لمسافاتٍ طويلة من  
بين جذوع الأشجار وأغصانها، فكل قبلة سترتطم وتسقط  
دون أن تبلغ مداها ستقلب علينا.

لذا اجتمعت بالقادة أمام الصفوف أثناء تجمع الجنود،  
أخذنا نتناقش في خطة القتال؛ لم نجد أي منفذ أو طريقة  
أخرى للالتحام إلا دخول الغابة والقتال فيها، لأننا إن انتظرنا  
في المنطقة الزراعية المكشوفة هنا أمام أسوار رانتاز، لن  
نعطي أنفسنا فرصة للتراجع إلى داخل الأسوار والدفاع من  
داخلها إذا ما دارت الدائرة علينا. اتفقنا على ذلك الجانب، ثم  
أخذ مالك دفة الحديث، أشار إلى أن أولى ما يجب النظر إليه  
في تحركنا وتشكلنا، هو استقطاب جند قسطا نحو الانضمام  
لنا باليوم الأول من القتال، لنهي هذه الحرب في يومها  
الأول، لأنه لو مر هذا اليوم دون منتصر فإن جند قسطا لن  
يجدوا حجة للتأخر على الانضمام لجيش



الشماليين، ولو حدث ذلك وانضموا لهم سيتسع الفارق بقدرٍ عظيم بيننا وبينهم، لا سيَّما مع ضبابية موقف جند رانتاز المنضمين للشماليين، لذا اقترح علينا إعادة تنظيم صفوفنا، بأن نضع الفرسان المدرعين بدروعٍ كاملة لدى المقدمة كي يصمدوا في وجه مدرعين الشمال، من خلفهم تأتي فرقة الرانتازيين وجندنا من المدرعين بدروعٍ خفيفة، وفي الميمنة تنتظم الحوريات، ولدى الميسرة ينتظم فرساننا رماة الأسهم، مبررًا ذلك بأن الحرب داخل الغابة ينبغي أن يكون لها تشكيل مغاير، فالصفوف القتالية في المقدمة من الجيشين المتحاربين لا تكون ملتحمةً التحامًا كاملًا بسبب جذوع الأشجار، لذا يصبح الاقتتال مثل معارك فردية متعددة بين الجند المتقارعين وبعضهم لدى صفوف المواجهة الأمامية، فرأى أنه يجب أن تصمد صفوفنا الأمامية في مواجهة صفوفهم الأمامية، ونجعل جناحي الميمنة والميسرة حزين بقدرٍ كبير بعيدًا عن المواجهات الأمامية، ليلتف هذان الجناحان من الحوريات والفرسان رماة الأسهم كل جناح في ناحيته، ليتوغلوا نحو جانبي ومؤخرة جيش الشماليين؛ يهاجمون بسهامهم من بعيد في حركاتٍ كرٍ وفر، كي يُحدثوا شيئًا من الخلخلة والضعف في انتظام صفوف العدو، كما أن هذا التوغل سيحدث أثره في إقناع كشافى جيش قسطا بأن المعركة تتجه إلى صالحنا، لا سيَّما إذا ما



تقهقر مشاة الشماليين بالمؤخرة أمام تساقط السهام فوقهم، فإذا ما انضم إلينا جيش قسطا هاجمًا على مؤخرة الشماليين ستنتهي هذه الحرب خلال بضع ساعات.

ما إن أتم شرح أفكاره عرفت أنه كما تأملت، قائدًا حقيقيًا كان نصرًا لنا استقطابه. ارتضيت ما شرحه وارتضاه سائر القادة، من ثم نظمنا فرق الجند على ذلك لتنطلق بعد شروق الشمس بقدر ساعتين إلى داخل الغابة، بينما تقدمت الصفوف أنا ومالك وسائر القادة، يجاورنا حملة الأعلام وضاربو الأبواق. لم نتحرك هذه المرة مسرعين، حيث لم نرد التوغل بعيدًا في الغابة اعتبارًا لحالة التراجع، كما أردنا الحفاظ على قوة الجند والخيل بعدما استراحوا من تحركهم البعيد من غولار إلى رانتاز، لكننا ما إن تحركنا بقدر ثلاث ساعات قابلتنا طلائع جند الشماليين، توقفوا على مرمى نظرنا ما إن رأوا انتظام صفوفنا، كي يقاربوا صفوفهم وينظموها، حيث بدا أن جيشهم تمدد أثناء تحركه وتباعدت صفوفه بسبب سرعة التحرك. نصحني مالك بإعطاء أمر الهجوم بلا تأخير كي نستغل تلك الثغرة، وهو ما فكرت فيه وقتها، لذا أمرت بضرب بوق الهجوم، في حين تنحيت عن المقدمة أنا والقادة نحو مؤخرة الجيش، لتنطلق صفوفنا هاجمة على طلائع آربوس.

بدا بأول الاشتباك أننا سننتصر في هذه الحرب خلال بضع ساعات، فقد التحمت صفوف جنودنا المدرعين الأولى بصفوف مدرعيهم في نطاقٍ عرضي كبير شمل كامل امتداد صفوفهم الأولى، في حين بقي الرانتازيون والفرسان الخفاف على أهبة الاستعداد خلف صفوفنا الأولى، وبذات التوقيت أخذت تنطلق بعض سرية من الحوريات من ميمنتنا لتجاوز الصفوف الأمامية من جيش عدونا وتتوغل عن جانبه لتبدأ مناورات الرمي بالسهام في حركات كَرٍ وفرٍ خاطفة امتدت حتى مؤخرة جيش الشماليين، وكلما توغلت سرية منهن وأفرغت سهامها، عادت لتنتقل سرية جديدة. بدين مقاتلات خارقات لا يشق لهن غبار، يضربن ويغدن ببراعةٍ مستحيلة، في حين حذا حذوهن فرساننا رماة الأسهم بالميسرة لدى الجانب الآخر للعدو، أخذوا يتوغلون ويضربون سهامهم سرية وراء سرية، لم يظهروا ببراعة الحوريات إلا أن التوغل بالجانبين أحدث ارتباكًا شديدًا في صفوف العدو لا سيَّما بجانب الحوريات. بدا أن الشماليين لم ينظموا صفوفهم على مثل هذه الخطة التي أعدها مالك، بل نظموا على اعتبار التحام مباشر لا يتحرك فيه الرماة على خيلهم ذاهبين وعائدين في حركات كَرٍ وفرٍ، بل جعلوا رماتهم ينتظمون بصفوفهم العادية كأنهم سيقاتلون كفرسان خفاف وحسب.

مرت ساعة على هذا التخبط في جيش الشماليين، تشتت

صفوفهم وتخلخت، أخذوا يتراجعون شيئًا فشيئًا، وكثر القتل بينهم، إلى أن سمعنا صوت أبواق وتصايح، بدا أن حارث يعطي تعليمات جديدة، عندها أخذت بعض سراياهم تتحرك من لدى القلب وتتجه نحو مقدمتهم يمينًا ويسارًا، حيث أخذوا يوسعون من التمدد العرضي لجيشهم حتى أصبح يغطي عرض الغابة تقريبًا، كي يمنعوا توغل الفرسان رماة الأسهم والحمريات على جانبي صفوفهم، ورويدًا رويدًا أخذ جيشهم يعيد تنظيم صفوفه على هذه الشاكلة، ومع كثرة عدد الجند فيه استطاع أن يسد هذه الثغرة التي كنا نخلخلهم من خلالها، وألجانًا مرغمين إلى أن يتحول فرساننا رماة الأسهم وكذلك الحمريات إلى مجرد فرسان خفاف، استلوا سيوفهم والتحموا بالقتال.

تحركت بفرسي عندها متقدمًا وسط الصفوف حتى بقيت خلف صفوف المواجهة مباشرة، صرثُ أصرخ في الجند بالثبات والتكاتف وعدم خلخلة الصفوف كما لو أنني كنت أقرأ أفكار حارث، فهو لم يكتفِ بسد الثغرة وحسب، بل استقرأ نقاط القوة في خطتنا وأخذ يُقلبها لصالحه، ففي حروب المناطق المستوية أو المكشوفة تلتحم الصفوف الأولى من كلا الجيشين؛ صفوف المواجهة، فيما تبقى الصفوف التاليات كداعمة، كلما سقط من بالمقدمة أو أرهقوا، فلا يدخل الجيشان بكامل جنودهما في مجموعة

من القتالات الفردية، ولا تتغلغل كل الصفوف بقلب كل الصفوف؛ يمنع ذلك تكاتف صفوف المواجهة في كلا الجيشين المتحاربين، أقصى ما يمكن أن يتحارب هو عدة صفوف من كل جيش، لكن بحربنا هذه وسط جذوع الأشجار، بدا من المستحيل أن تتكاتف صفوفنا الأولى لتمنع توغل صفوفهم بقلب صفوفنا، في حين لم نعمل حسابًا لمثل هذا التغلغل، فمعنى توغلهم في صفوفنا وأعدادهم ضعف أعدادنا تقريبًا، أن كل جندي لدينا سيقا تل جنديين من لديهم، أما لو الأعداد متساوية لدينا ولديهم لكان الأمر هين، لذا ما إن تمددوا سادّين تلك الثغرات التي كنا نتحرك فيها، أخذت قواتهم تضغط هاجمة ومتوغلة في صفوفنا، لتأخذ المعركة في التحول إلى حربٍ همجية غير منظمة مع مرور الوقت، وخلال ساعة، تمدد توغلهم إلى مقدار ثلث صفوفنا، واستمروا في التمدد راغبين في ذلك الالتحام الكامل.

حاولت مرارًا أن أمنع ذلك، صرّثُ أتحرّك بفرسي يمينًا ويسارًا ووسط صفوفنا محفرًا لهم على منع توغلهم، لكن بدا الأمر مستحيلًا؛ لم يستطع الجند الاصطفاف في صفوفٍ متلاحمات بالعرض بسبب الجذوع، بل والمسافة بين كل صفٍ والذي يليه كانت متسعة، عندها رأى مالك أن الشماليين لو بلغوا مقصدهم والتحموا بالكامل، فلن تكون هناك إمكانية لنا للتراجع، سيفنى كل جيشنا ومعظم جيشهم، إلا أن الغلبة

بالنهاية ستكون للقلة الباقية منهم، لذا سارع إلى حمل أحد  
أعلام رانتاز ورفعها عاليًا، ثم ترك المؤخرة وانطلق يعدو على  
فرسه وسط صفوف المواجهة هاتقًا بحياة إمارته، طالبًا من  
جند رانتاز أن ينقلبوا على جيش حارث. بدا الأمر سهلًا إذا  
ما أراد جند رانتاز هذا الانقلاب، فقد كانوا يرتدون زيًا بني  
اللون، فيما ارتدى جند الشماليين زيًا أبيض، وجندنا كانوا  
بزيينا الأسود، لو انقلبوا لن نقاتلهم ولن يقاتلونا ليتحولوا  
وسط هذا الهرج لقتال الشماليين، بيد أن الحرب ظلت دائرة  
على وضعها، لدرجة أنه لما زاد التوغل من طرفهم حدث  
شيء من الاضطراب، لا سيَّما عندما بلغت قوات رانتاز ذات  
الرداء البني من عندهم إلى قلب جيشنا الذي انتظم فيه  
إخوانهم من جند رانتاز بذات الملابس، صاروا يتقاتلون وهم  
أبناء إمارة واحدة، والأكثر سوءًا أن مالك خلال محاولاته  
البائسة أصيب بضربة سيف في كتفه أثناء عدوه، ولولا  
صلابة عوده وتماسكه لسقط وذهس بالأقدام، إلا أنه تمسك  
بظهر فرسه حتى انسحبنا أنا وهو نحو موضعنا بمؤخرة  
الجيش، لتسارع أفرودينا إلى محاولة تضييد جرحه.

في ذلك التوقيت بدأت تبرز بشائر هزيمتنا، فكلما مر الوقت  
كلما توغلوا أكثر في صفوفنا حتى جاوزوا ثلثي الصفوف،  
وكثر القتل من الطرفين في تلك المقاتلات الفردية التي  
صارت تغطي أغلب ساحة المعركة. توقعث في أية

لحظة أن يأتي طوفان جديد من جنود قسطا في ملابسهم البنية التي تشبه ملابس جند رانتاز، سيسارعون إلى إثبات ولائهم للشماليين قبل انتهاء الحرب، لا سيّما أن الغروب لم يبق عليه سوى قدر ساعتين، تمنيت أن يمر النهار دون قدومهم، كي تفض عتمة الليل هذه المعركة فأعود بجندي نحو رانتاز أَدافع من خلف الأسوار، ومع البارود فوقها أعرف كيف أردعهم، بينما قررت أن أضرب أبواق التراجع مباشرةً إذا شعرت بدخول جند قسطا إلى الحرب، لأنهم إن دخلوا سيقلبوا موازين القوى بشكلٍ واضح وصارخ، إذن عندها لا بُدَّ أن يهرب أي قدرٍ منا إلى داخل أسوار رانتاز، حتى ولو كان ذلك الانسحاب السريع غير المنظم سيؤدي إلى مزيدٍ من القتل، لكنه سيكون السبيل الوحيد.

لم يتأخر الأمر كثيرًا، ما هي إلا ساعة مرت بعد إصابة مالك، وبدا أن الالتحام صار يغطي أغلبية جيشنا، في ذلك التوقيت وجدتُ سيلاً جديدًا من جنودٍ يرتدون الملابس البنية أخذوا يقتحمون ساحة القتال من خلف صفوف جيش آربوس، كانوا كالسهام المنطلقة مندفعين بكامل قوتهم، تيقنت أنهم جيش قسطا وكدت أعطي الأمر بإطلاق بوق التراجع إلا أن أفرودينا صرخت في قائلة:

- إنهم يقاتلون معنا، انظر، إنهم يضربون في جند الشماليين

أثناء اندفاعهم.

لم أرَ ما رأَت، بل لو رأيتَه لكذّبت عيني، فلم يبزغ هناك ما يوحي بإمكانية انتصارنا كي ينضم لنا جند قسطا، إلى أن اقترب منا من بدا قائدَهم، فقد كان يحيطه قدر من الفرسان يدافعون عنه وسط المعركة، سمعته يصرخ في جند رانتاز قائلاً، أنا حاكمكم شهد صاحب رانتاز، أمركم بقتال جيش آربوس الشمالية، لا أريد جنديًا واحدًا يرتدي ملابس رانتاز البنية يقاتل ذلك الجيش الذي جاء نصرَةً لإمارتنا.

هنا حدث هرج ومرج، اضطراب شديد ضرب مقاتلي آربوس الشمالية، فقد انضم إلينا جند قسطا مندفعين بكامل قوتهم، ثم ظهر الحاكم شهد يأمر جنده الرانتازيين بالانضمام لنا، ومع انصياعهم لحاكمهم، وكذلك رؤيتهم لتحول دفعة القتال لصالحنا، أخذ جيش رانتاز ينقلب على جيوش آربوس، ليصبح ذلك التلاحم وبالاً عليهم، فقد صار كل جنديٍّ أبيض محاطًا بجنديين منا، بينما لبث الحاكم شهد يصول ويجول أمرًا ناهيًّا على الرغم من كبر سنه، حتى أحس أن القتال تحوّل بالكلية لصالحنا، عندها جاءنا بالمؤخرة. ما إن بلغنا نزل عن فرسه وانكب يتفحص مالك المسدي على الأرض، اقتربث منه مترجلًا وطمأنته بأن أفرودينا أحسنت تطيب جرحه، في حين رد عليه مالك



مبتسمًا:

- لم تقاتل بنفسك منذ أمدٍ يا أبي.

- لم أكن لأتركك أبدًا يا مالك، لقد كانت هذه الحرب فرصتنا الأخيرة.

أسندنا مالك ليقوم واقفًا وسطنا ليشاهد صنيع أبيه، بينما لم يأتِ الغروب على القتال دائرًا، فما إن حدث ذلك الانقلاب ودارت الدائرة عليهم، انتشر بين الشماليين خبر هروب حارث وحرسه نحو المملكة الأم لآربوس الشمالية؛ صار سائر جند زورين والمملكة الأم يلقون أسلحتهم، ويرفعون أيديهم فوق رؤوسهم، فيما أخذ جنودنا بأسرونهم ويعقدون أيديهم خلف ظهورهم، في حين أخذ البعض الآخر يتفقد جرحانا ويغطي فقداننا، أما الحوريات فاهتممن لشأنهن وحسب، أخذن يضمدن جرحاهن ويحملن فقداهن في سكونٍ يُشبه مراسم مآتمية.

وسط كل ذلك ابتسم الحاكم صهد لابنه مالك، ثم شرع يحكي وهو في منتصف ثلاثتنا عن الحيلة التي قام بها ليقلب موازين هذه الحرب، قال إنه حين حدثت خيانة الجنوب وهرب بأهله إلى قسطا، لحق به قدر ألف فارس من فرسان الخدمة داخل رانتاز، ولما عرف بتخطيط ملك قسطا المتعلق بالانضمام لصاحب الكفة الراجحة، تسلل إلى جنوده



الذين أمّنهم حاكم قسطا بالمساء، أوعز إليهم أنهم سيتسللون فرادى من البوابات ما إن تفتح بعد خروج جيش قسطا، لكن البوابات لم تفتح إلا بصبيحة يومنا هذا، أي في اليوم التالي على خروج جيش قسطا، من ثمّ صاروا يتسللون فرادى إلى أن تجمعوا مع شروق يومنا بالغابة، وانطلقوا ليلحقوا بحربنا، ولما بلغوا مشارف ساحة القتال وجدوا جيش قسطا أخذ في التحرك لنصرة آربوس الشمالية بعدما قال كشافوهم أن آربوس في طريقها للانتصار، لكن صهّدًا لحق بهم هو وجنده موعزين لهم أن الأوامر جاءت من قسطا بتغيير القرار والانضمام لذلك الجيش القادم من رانتاز لتغليب كفته، وليس الانضمام لصاحب الكفة الراجحة، وأنه جاء على رأس هذا الدعم لتأكيد القرار القادم من قسطا، ثم سبقهم والتحم في قتال آربوس الشمالية من الخلف كي لا يدع مجالاً لأولئك القادمين من بعده لأن يأخذوا قرارًا مغايرًا، فقد أصبحوا عدوًا لآربوس من قبل أن يلتحموا، لذا أكملوا على ذات النهج مرغمين.

لم تغادر ساحة القتال حتى شروق اليوم التالي، فقد استمر جندنا في أسر وتكبييل جنود زورين والمملكة الأم، ثم تحركنا بهم نحو أسوار رانتاز بالصباح، في حين عاد جيش قسطا نحو بلدته محملاً ببشائر النصر. خلدنا للراحة في يومنا، وبالصباح التالي التقيت أنا وأفرودينا ومالك وصهد

لدى مجلس الحكم بقصر الأخير، لم يجلس على كرسي رأس المجلس، بل جلس هو وابنه بأحد جانبي المجلس، وجلست أنا وأفرودينا بالجانب الآخر. أراد التحدث بشأن ترتيب أوضاع الحكم والممالك والتبعية، إلا أنني طلبت تأجيل الحديث عن ذلك حتى تنتهي من أمرنا، مشيرًا إلى أن حاكم قسطا سيرتضي التبعية لرانزاز تحت مسمى آربوس الوسطى بعد انتصارنا وغلبتنا، كما كان يرتضيها في السابق، لذا بقي أن نحدد مصير كيبول وزورين قبل أي نقاش بيننا حول ترتيب الكراسي، يأتي من بعدهم المملكة الأم لآربوس الشمالية التي صارت بلا جيش ولا رجال تصلح للقتال.

لم يهدأ بال صهد إلا أنه انصاع لرغبتني، وأخذنا من يومنا في مراسلة الكافة، بدأنا بحاكم قسطا، كما تأملنا أعلن تبعيته لآربوس الوسطى، لكنه أشار لكون هذه المملكة تحت حكم الملك جاد بن زايد المأمول عودته؛ لم نلتفت إلى ذلك وتركناه إلى حينه، من ثم أرسلنا إلى كيبول وزورين، طلبنا فتح أبوابهم والخضوع لسلطة التحالف المشترك بين آربوس الوسطى ومملكة الوافدين؛ وافق حاكم كيبول على عرضنا، فأرسلنا له في اليوم التالي للموافقة جيشه المأسور لدينا برانزاز، والمكون من خمسة آلاف مقاتل، لكن أصحابهم قدر خمسة آلاف مثلهم من جند قسطا ورانزاز، بعد تعيين قادة جدد للجيش يدينون بالولاء لآربوس الوسطى، أما

حاكم زورين فرفض الانصياع مصممًا على تبعيته لآربوس الشمالية، وعدم خضوعه لا لآربوس الوسطى ولا لمملكة الوافدين، حينها كانت قوات مشاتنا المحاصرة لإمارته قد انتهت من حفر النفقين اللذين كلفا بحفرهما، لذا أمرت قائد جنودنا رشيد بالانطلاق من رانتاز على رأس جيش صغير من فرسان الوافدين بقدر خمسة آلاف مقاتل، ليدعموا جنود مشاتنا في اختراق أسوار زورين بعد تفجيرها بالبارود.

لم يمر سوى يومين وجاءني نبأ اقتحام جيشنا لأسوار زورين، وهروب حاكمها وأهله إلى المملكة الأم لآربوس الشمالية، في حين سيطر جيشنا على مقاليد الأمر فيها، وابتدر إصلاح ما أفسده في أسوارها، لآمر عندها بإرسال أسرى جنود زورين إلى بلدتهم كي يتولى قادة جيشنا هناك دمجهم في قواتنا.

من بعدها اجتمعنا أنا وأفرودينا ومالك وصهد من جديد، كان قد مضى على حربنا الكبرى مع آربوس الشمالية نحو عشرة أيام هيئنا فيها أمر سائر الإمارات الخمس الواقعة شمال ضفة نهر جودي، غولار، زورين، رانتاز، قسطا، كيبول، لنبدأ حينها في النقاش حول ترتيب أوضاعنا سويًا كسلطات حاكمة، أو عزت لهم أنني سأضم زورين وغولار إلى سلطة مملكة الوافدين الدائمة، لذا سأولي عليهم حكمًا من عندنا،

وأجعل غالبية الجند فيهما من جنودنا، مع ضم من يرتضي من جنودهم السابقين إلى قواتنا، في حين سأترك رانتاز وقسطا وكيبول تحت سلطة مملكة آربوس الوسطى بقيادة الحاكم صهد، لكن بتحالفٍ كامل معنا قريب إلى التبعية كما اتفقت مع مالك قبل تحركنا سويًا، ذلك إلى أن ندخل المملكة الأم لآربوس الشمالية، عندها تعود آربوس الشمالية مكونة من المملكة الأم ورائتاز وقسطا وكيبول، تحت قيادة الحاكم صهد، إلى أن نحرر مارينا والملك جاد من أيدي الجنوب، وعندها لهم الاتفاق فيما بينهم على تنصيب الملك جاد أو خلعه أو تنصيب صهد أو مالك أو غيرهم، على أن يبقى التحالف بيننا على حاله سواء استمروا تحت مسمى آربوس الوسطى بعاصمة رانتاز أو عادوا لمسمى آربوس الشمالية بعاصمة المملكة الأم، ومهما كان الحاكم الذي سيستقرون عليه.

بدا الحاكم صهد متضررًا من ضمي زورين وغولار بتبعية كاملة لمملكة الوافدين، فقد كان يعلم جيدًا أنني سأغير من تركيبتهم السكانية، وأمعن في حمايتهم بالبارود حتى يصيروا قطعة من مملكتي، في حين كان يطمع أن يصير ملكًا على سائر آربوس الشمالية بتكوينها القديم، حتى لو ظل متحالفًا أو تابعًا باعتبار أنه سيأتي اليوم الذي يتحرر فيه من تلك التبعية، إلا أنه لم ينطق معارضًا وارتضى ما

قررتة وحسب مُبدئًا القبول التام، في حين بدا على مالك الرضا باطنًا وظاهرًا، بل بدا عليه حفظ جميلي ومعروفي الذي أسديته إليه. صرث مؤقتًا أن الأمر لو بقي مع مالك فلن ينشب نزاع بيننا ذات يوم، فهو لا يطمع في توسيع ملك أو في سلطة نافذة، بل يبتغي أن يعدل فيما يملك ويحسن الحكم، بينما أنا لم أبتغ في توسعي إلا لتأمين مملكتي، وأن أجعل لها على الأرض موطن قدم في تلك الأراضي الخصبة المطلة على ضفة نهر جودي.

ما إن انتهينا قررت الرجوع نحو زورين لاستكمال ترتيب الأوضاع فيها، بيد أنني قبل أن أتحرك من رانتاز فاجأنا ورود أخبار جديدة من مملكة آربوس الجنوبية، فقد أخذ الخلق هناك في الهروب عبر الجسور نحو بلدات آربوس الشمالية، نحو غولار، زورين، رانتاز، قسطا، كيبول، وجاءت الأنباء بنشوب حرب بين كامل جيشهم وجيش الذكران الذي استدعوه، نجم عنه فناء جيشهم ومقتل ملكهم، لذا أخذوا يهربون بمساء تلك الليلة التي أفني فيها جيشهم.

## شق عهد الحوريات

### أفرودينا

كنت أعلم من قبل قدومي إلى البر أن الذكران سيخرجون دون حاجة لأن أرغم يوسف على استدعائهم أو استعدادهم، لكنني لم أتوقع هذه الأحداث الجسام، لقد أخبرناه أثناء اتفاقنا عن حالهم وما صلتهم بنا، فعرف أنهم يقذفون منيهم -بفطرة حيوانية- كل شهر على مقربة من مهبط شلالات بالميري، عند منبت نهر جودي، فتتلقفه محارات رابوسا وتغلق عليه فكوكها الصدفية، لتمر شهور قبل أن تتكون لؤلؤة ميلاد داخل كل محارة منهن، ثم تهلك المحارة وتبقى اللؤلؤة، لؤلؤة الميلاد المرجوة.

كذلك أحطناه علمًا بأن هناك مئات الآلاف من لآلي الميلاد تجمعت بالنهر على مدار سنوات عند تلك البقعة القريبة من الشلالات، بينما تحطها عدة دوامات كالتي صارعها ليلغنا، لكن روح أربوس لا تمر اللآلي إلا باستقدام الغرقى وفقًا لشروطها، وعندها تسمح بدخول اللآلي إلى منافذ الدوامات، ثم عبورها ذلك النفق المار تحت سلسلة الجبال، من النهر عند الذكران إلى البحر عندنا، فإن أنجبنا ذكرًا نذهب به نحو حد نهر جودي شرقًا لنمرره للذكور، ولو أنثى فنستبقها معنا.

إلا أنه لم يعرف أننا قديمًا عندما كانت تفلت لؤلؤة حرة دون أن نجتذب غريقًا في مقابلها، ثم تلتقم إحدى حورياتنا تلك اللؤلؤة الحرة، فإنها كانت تحمل حملًا لا يتعلق بروح غريق، ذلك لأنها لم تمنح قبسًا من روحها إلى غريقٍ تجتذبه، حتى تأخذ لؤلؤة في مقابل الإتيان به، ولم تنتظر موت الغريق كي تسترد ذاك القبس إلى جنينها، فقد كانت الحورية في تلك الحالة الخاصة باللؤلؤة الحرة تمنح القبس مباشرةً إلى جنينها بعد سنوات الأهداب السبع، دون حاجةٍ لكل هذه الدائرة التي تصنعها روح آربوس حتى تجبرنا على اجتذاب الغرقى.

لم يعرف أيضًا أننا بالسنوات الأخيرة لم تعد مشكلتنا تقتصر على تقاتل الغرقى -من يدعون هنا وافدي البحر- في ساحات آربوس أو في الحروب أو في غيرها، وما يحدثه ذلك من خللٍ بالتناسل لدينا، بل أضيف إلى هذا أن الذكران بشكلٍ أو بآخر وبسبب حقدٍ منهم انصبَّ علينا، أخذوا يحاولون سد منافذ تلك الدوامات التي تمر لها اللآلئ كي تدخل إلى النفق وتعبّر إلينا، حتى صرنا نأتي بالغرقى ولا تمر لنا اللآلئ في عديدٍ من المرات، وأخذت نسبة الفقد تتزايد حتى صار لا يمر لنا إلا بنصف المرات التي نستدعي فيها الغرقى، وانقطعت نهائيًا تلك اللآلئ الحرة التي كانت تأتينا دون اجتذاب غرقى.

لم نخبر يوسف بأن المطلوب منه هو أن يجد حلًا دائمًا  
لأمر انسداد منافذ الدوامات، بأن يضع حدًا بينها وبين سائر  
النهر كي يُبعد عنها الذكران دون أن يمنع تحرك المحارات  
واللآلئ بقاع النهر، مثل أن يصنع جسرًا ضخمًا يبعد الذكران،  
لكنه يحوي فتحات صغيرة بأسفله تسمح بتحرك اللآلئ  
والمحارات، وفتحات أخرى كبيرة بالأعلى، تسمح بانسياب  
ماء النهر دون عبور الذكران، ولأجل أن يتركوه يصنع مثل  
هذا الجسر كان لزامًا عليه أن يهزمهم، أن يدحرهم هنا بالبر،  
أن يروا باروده وقوته، ثم يخشون أن يطاردتهم بالنهر بأية  
حيلة يصنعها، فهم لا يخضعون إلا للغة القوة، نهج حيواني  
خالص، كأنك تروض فرسًا أو ما شابه، لكن تجتذبه إلى  
ساحتك كي تروضه عليها، ليسوا مثلنا يعترفون بالعهود  
والمواثيق.

لكن ما لم نتوقعه أن نجدهم بهذه الشراسة، أن يقدرُوا  
على إفناء جيش آربوس الجنوبية كاملاً في خلال ساعات،  
ما جعلني أظن أن كل ما خططنا له قد ينقلب علينا، بل قد  
نفقد كل الزورجولات التي جئنا بها إلى البر، لا سيَّما مع علمنا  
بحقد الذكور علينا، الذي لا نعرف له سببًا ولا علة، كأننا نحن  
معشر الإناث كنا السبب في طبيعة أجسامهم التي لا تغادر  
النهر، لدرجة أنهم قد يكونون لجأوا لسد منافذ الدوامات



كيدًا بنا، دون أن يفكروا في أنهم بذلك قد يقطعون نسلهم كما يقطعون نسلنا لو كانوا يعقلون أو يفكرون.

إلا إنني توجب علي أن أكمل فيما جئت لأجله أيًا كانت العاقبة، لذا ما إن عرفت بما فعلوه بالجنوب وقتما كنا نستعد أنا ويوسف للارتحال نحو زورين، قررت أن أكاشفه بتتمة عهدنا، لأخبره بأن علينا أن نواجه أولئك الذكور كي نهزمهم ونأسر منهم، وعلى جث موتاهم وأرواح أسراهم نتفاوض في بقعتهم بشأن بناء السد، أخبره وأنا أعرف أن الأمر صار لزامًا عليه بأن يواجههم، لكني الآن أخبره ليعلم أنه بمواجهتهم يكسب ردع الشر عن سائر بر آربوس وبذات الوقت يكمل عهده.

كما أحسنت ملكتنا روزينا حين أخّرت الإفصاح عن مطلبنا، وانتظرت لنرى من أمر البر، وذلك لأن استدعاء أولئك الذكران الهمج لو كان تم من خلالنا أو بسببنا ثم أحدثوا هذه المذابح، للحق بنا ذنب استدعائهم، ولكان يوسف يُلقي اللائمة علينا، بل لألقى سائر أهل آربوس اللائمة على يوسف وعلينا، أما الآن فنحن نواجهه معه شرًا يهدد سائر بر آربوس ويهددنا، لذا إن هزمناه هنا فلا بُدَّ أن نكمل في انتصارنا ونردعه عن الإضرار بنا معشر الحوريات، فنحن شركاء المواجهة، كما أننا إن انتصرنا قد أطلب منه مطلبنا الإضافي

بأن ينقل لنا آلاف اللآئى -أثناء بناء جسره- من تلك التي  
تجمعت بالنهر ليضعها ببقعتنا، بقعة الحوريات، كي تكون  
مخزونة من اللآئى الحرة لنا، قد يكفيها لسنوات، وإن نفذ  
فتبقى منافذ الدوامات باقية.

بتلك الليلة بينما كنا ببهو القصر سمعنا عن الهرج الذي  
حدث عند سائر الجسور الموصلة بين بلاد الجنوب الخمسة  
ومثيلاتها الشمالية، لا سيما الجسر الموصل بين صورف  
ورانتاز. انطلقت أنا ويوسف ومالك على خيلنا نحو ذلك  
الجسر في حين تقدمنا الحرس يحملون المشاعل، وجدنا  
هناك أن الخلق من آربوس الجنوبية يتصارعون على  
المرور عند مدخل الجسر بناحيتهم، أكثرهم من الرجال  
والشيوخ، يأتي بعدهم النساء والأطفال، من يلج منهم  
إلى الجسر يسارع إلى صعود تلك المتاريس والعوارض  
الموضوعة فوقه، التي وضعها جيش الجنوب بعد خيانتته  
لرانتاز، ثم يسقطون على الأرض ما إن يعبروا إلى ناحيتنا،  
غير مصدقين أنهم نجوا. بدا الذعر يملأ أعينهم على ضوء  
المشاعل، ينهجون من أثر طول الركض والخوف، يتلفتون  
حولهم كأنهم يخشون أن يلحق بهم متعقبوهم، عندها  
أمر يوسف حرسه باستدعاء سرية من الجند لتزيل تلك  
المتاريس والعوارض، وتساعد في انتشار أولئك الخلق، بينما  
أمر مالك بفتح البوابة الجنوبية لرانتاز لأولئك النازحين، كما

أمر باستقدام فرقة كاملة من جيش رانتاز لتنظيم دخولهم  
ونصب الخيام لاستيعابهم.

فيما لاحظت أن يوسف ومالك لا يقفان عند منفذ الجسر  
في ناحيتنا فوق خيلهم لمجرد تنظيم أمر النازحين، بل  
أخذوا يعطون الأوامر والتوجيهات هنا وهناك، لكن أعينهم  
ظلت ثابتة على الجسر، هذا يبحث عن ميرا، والآخر يفتش  
عن مارينا وسط النازحين، رأيت بأعينهم الفقد، لا سيّما  
أنا انشغلنا جميعًا طوال الأيام السابقات عن متابعة أخبار  
أربوس الجنوبية بسبب الملاحم التي عايشناها بتلك الفترة،  
فكان آخر علمنا عن ميرا ومارينا أنهما أخذتا إلى صورف، ولم  
تأتنا أي أخبار جديدة، لذا وقف العاشقان يتأملان ظهورهما.  
لم أبتئس لأمر يوسف، صحيح أنه استهوى قلبي بعض  
الشيء، إلا أنني جئت إلى هنا وأنا أعلم أن لي مهمة جئت  
لأتمها على أكمل وجه، فما كان اختيار روزينا لي إلا لعلمها  
بمدى صلابة قلبي، حتى حملي منه كان إتمامًا لما جئت  
لأجله.

بقينا واقفين فيما مرت ساعات الليل مسرعة حتى أقبل  
الشروق، وعندها طأطأ كل من العاشقين رأسه وعدنا نحو  
القصر، لأسارع حينها إلى إيقاف يوسف بممر الطابق الثاني  
لقصر شهد قبل أن يدخل كل منا إلى غرفته، طلبت منه أن

نتحدث فعرض عليّ الجلوس بغرفته، ولجنا إلى داخلها مع شروق الشمس الذي تسلل من باب شرفتها المفتوح، أشار لي بأن أجلس على أحد المقاعد فيما جلس على طرف سريره. بدا يائسًا وكنت أعرف سبب يأسه، فقد تأمل أن يجدهما مع النازحين، لكنني لم ألتفت إلى ذلك، فهذا هو الميقات المناسب لإبلاغه مطلبنا وما جئنا لأجله، لذا أخذت أحكي عن شقنا في العهد، عن الذكران والجسر واللالئ الحرة، بينما ظل منصتًا غير متفاجئ، حتى إذا ما فرغت ابتسم رادًا:

- كنت أعلم منذ البداية أن مطلبكم سيتعلق بأمر اللالئ بالنهر، توقعت ما تقولين بشكلٍ أو بآخر، لكن اسمحي لي أن أخبرك شيئًا، أنا لم أر في حياتي من هم لا يرون سوى صالح أنفسهم وحسب مثلكن، أنتن لا ترون في العالم سوى تكاثركن وتناسلكن وحسب! إن سبب شقاء هذه الجزيرة ليس تسلط المعمرين على الوافدين فقط، بل سبب ذلك هو استقدامكن لوافدي البحر يوميًا وعامًا بعد عام، تجلبن هذه الأرواح، أو دعينا لا نقل أرواحًا، هم أشباه أرواح، هم أجساد بها من أرواحكن، تأتيين بهم فاقدين لذاكرتهم، يعيشون لسبعة أعوام ثم يولوا مع كل شقاء العالم، تقدمونهم قريبًا لروح آربوس كي تمرر لكن اللالئ. لو توقفتن عن ذلك الاستقدام لانقطع من يدعون وافدين من الأصل، ولجاء وقت اعترفت فيه سائر آربوس بحق وافدي الجبال في الحياة، لأنهم

معمرين أبناء معميرين، إنما مع استمراركن في جلب وافدي البحر ستظل تلك الفئة قائمة.

استمعت إليه ورددت:

- وماذا كان علينا أن نفعل؟ أن نتوقف عن التكاثر لكون البشر يميلون إلى تقسيم أنفسهم في جماعات لأنهم يعشقون التناحر والتنافس وإثبات المنعة والفوقية حتى ولو على بعضهم البعض؟ قل لي إذن، لم تتقاتل آربوس الجنوبية وجارتها الشمالية منذ مئات السنين؟ هل لأننا نجلب الوافدين أيضًا؟ إن حياة البشر قائمة على النزاع، قائمة على التناحر. انظر إلى عالمك الحقيقي، فهو صورة مستقبلية من هذا العالم الذي تراه هنا في آربوس، لقد كان عالمك يومًا مثل هذا العالم قائمًا على التناحر البدائي وحسب، كل فريق يثبت منعته وشدته، بآلات الحرب، الأسوار، الجنود، والثروة، ثم أخذت الأمور تتطور مع مرور القرون وسط حروبٍ لا آخر لها، وبحث لم يتوقف عن التمييز والقوة لكل جماعة، وأثناء ذلك السباق أهلكتم الأرض والبحر والسماء. من يجب أن نقول عنهم أنهم لا يرون سوى أنفسهم هم أنتم معشر البشر، ويا ليتكم لا ترون سوى أنفسكم وتحافظون على عالمكم! لكنكم لا ترون سوى أنفسكم بينما تتنازعون وتهلكون العالم من حولكم، لذا دعنا من كل هذا واجعلنا في أمرنا وعهدنا،

سنواصل سويًا وندحر أولئك الذكران بشكلٍ أو بآخر ليستقيم  
أمر عالمي وعالمك.

أوسع من ابتسامته ورد:

- دعينا من عالمي الحقيقي، قد نجعل من هذا العالم صورة  
أخرى حتى لا يصير مثل عالمي يومًا ما، قد أوحده هذه  
الأرض، وأمنع التنازع والتناحر، لكني وقتها قد أحتاج إلى  
توقف وافدي البحر، أفإن نقلت لكم الآلاف من تلك الآلي إلى  
بقعتكم لتستخدمونها كآلي حرة ألن يكفيك ذلك؟

- سيأتي يوم وتنفذ.

- سيتكوّن بالنهر منها المزيد، فأنقل لكن كل عام ما يكفيك،  
على أن تمتنعوا عن اجتذاب وافدي البحر.

- إذن عندها قد تبرم عهدًا جديدًا معنا يستلزم بقاءك بهذه  
الأرض، لئن نفذ عهدك ويُنْفِذَه ورثتك من بعدك، ستبني لنا  
الجسر المرغوب، ثم تنقل لنا ما يكفي لكل عام، حتى إذا ما  
توقفت أنت أو أي من ورثتك عن النقل، نعود لديدنا القديم،  
نأتي بالغرقى فتمرر لنا روح آربوس الآلي.

أجفل للحظاتٍ شاردًا ثم استأنف:

- لنتتهي من أمر الذكران ثم نرى من أمرنا.

أنهينا حديثنا على ذلك، فيما شعرت أنني أنجزت مهمتي فيما يخص إقناع يوسف بمطلبنا، لكن بقي الانتهاء من الهم الأكبر، وهو سطوة الذكران. تركته واتجهت إلى غرفتي ليأخذ كل منا قسطه من الراحة، وما إن استيقظنا بعد الظهيرة اجتمعنا بمجلس الحكم، كلف يوسف مالكا بإرسال المراسيل إلى قسطا وكيبول بأن يستوعبا النازحين إليهم، بينما أرسل إلى غولار وزورين بنفس الأمر، لتمر من بعدها عدة أيام انقطعت فيها أي أخبارٍ تأتينا من الجنوب عبر المتلصصين، بدا أنهم لقوا مصرعهم أو هربوا ولم يستطيعوا الوصول لنا برانتاز، لكن الأخبار أخذت تتوارد يوميًا من خلال النازحين.

علمنا أن الذكران أخذوا يتحركون كالريح لا يبقون في بلدةٍ أكثر من ثلاثة أيام، انطلقوا من طليطيل مقرهم الأول إلى صورف حيث قامت أكبر المعارك التي أهلكوا فيها جيش الجنوب كاملاً وقتلوا ملكهم، منها اتجهوا غربًا إلى لوشال، وبعدها قاطب، ثم المملكة الأم لآربوس الجنوبية، قبل أن يختموا مسعاهم بالوصول إلى زاهر بأقصى الشرق، ساعدهم على ذلك أنهم لم يجدوا أية مقاومة تذكر، فرجال تلك البلاد هربوا منها نحونا ما إن عرفوا بما حدث في طليطيل وصورف، كما أن خطأ الجنوبيين الأكبر تمثل في أنهم جمعوا جيوشهم كلها في معركة صورف، فما إن

غلبوا صارت سائر بلداتهم بلا جند يدافع عنها، كما عرفنا أن الذكران يتسلقون الأسوار بسهولة، مهما بلغ ارتفاعها أو حبكة صنعها، لذا لم يقف أمامهم جنود أو أسوار، فصاروا يدخلون البلدات واحدة تلو الأخرى، وما إن ينتهوا من إحداها يتركون عليها سرية صغيرة من جنودهم، ثم يواصلون للتي تليها.

لكن بتلك الأثناء ووسط الهلع والخوف الذي ساد وسط سكان الشمال والنازحين إلينا من الجنوب، بقينا نترقب تحركهم نحونا، بينما استبق يوسف ذلك وأخذ يوزع من باروده على سائر الإمارات الخمس برفقة بعض جنوده، ليضعوا البارود على الأسوار، ويعلموا جنود الأسوار في سائر القرى طريقة إشعاله وإلقائه، كي يمنع بذلك تسلق الذكران للأسوار، كما اتفق مع مالك على فصل جيش مملكة الوافدين عن جيش مملكة آربوس الوسطى، ليتجمع كل جيش منهما في موضع، فتصبح لنا فرصتان في القتال بحربين مختلفتين. جمع مالك جند كيبول وقسطا ورائتاز ووضعهم على أهبة الاستعداد خارج أسوار رائتاز، فيما اتجهت أنا ويوسف إلى زورين حيث جمعنا هناك سائر جند مملكة الوافدين بما فيهم جند زورين وغولار الذين انضموا إلينا، إلى جانب أننا ضمنا لنا الكثير من الرجال الذين هربوا من آربوس الجنوبية عندنا.



لما انتهى الذكران من سائر بلدات الجنوب عادوا نحو طليطيل، مقرهم الأول، لبثوا فيها بعض يوم كأنهم يلتقطون أنفاسهم ويعيدون تنظيم أمرهم، ثم انطلقوا منها إلى قسطة الموازية لها بالشمال لدينا، هجموا على أسوارها بشراسة مساءً، لكن رجال يوسف وباروده ومقاومتهم، كذلك المفاجأة التي تلقاها الذكران في شدة تفجر البارود وسطهم جعلهم تركوا أسوار قسطة بعدما منوا ببعض الخسائر القليلة، فهم لم يعاندوا مقابل قوة البارود؛ ما إن رأوا أثره فروا هاربين، واتجهوا نحو المملكة الأم لآربوس الشمالية.

عرفنا وقتها أنهم اصطحبوا خونة من آربوس الجنوبية، هم من أخبروا الذكران أن المملكة الأم لآربوس الشمالية لا تحوي بارودنا، فانطلقوا نحوها، دخلوها وأعملوا القتل فيها، ففر رجالها وبقايا جنودها، بعضهم إلى مملكة الوافدين وقلعة سرايوس، والبعض الآخر انطلق نحو الإمارات الخمس، فيما لم نعرف مصير حارث أو ضياء أو غيرهم من قادتها، لكن على الأرجح كان قتلهم على يد الذكران، لأنهم كانوا يركزون دومًا على الجنود والقادة قبل سائر الرجال، وما إن انتهوا من إخضاع المملكة الأم لآربوس الشمالية لبثوا فيها عدة أيام قبل أن ينطلقوا من جديد نحو كيبول أصغر إمارات الشمال بأقصى الشرق، لكن بعدما تعلموا الدرس من قسطة.

بلغوها ليلاً كعادتهم، استقروا خارج مدى راجماتها بين جذوع أشجار الغابة، ثم أخذوا يهجمون على أسوارها في سرايا متعاقبة، كل سرية بقدر مئة محارب منهم، في موجات كرفٍ وفرٍ سريعة، كأنهم يموهون ثم يهربون، مما أدى إلى إهدار بارود كيبول حتى نفذ، ووقتها هجموا عليها بكامل جيشهم عند الشروق، تسلقوا أسوارها واقتحموها، أعملوا فيها القتل أكثر من أيٍّ من القرى السابقات؛ غيظًا منهم لمقاومتهم بالبارود وإسقاط بعض مقاتليهم، ليفر من نجا من الرجال نحو قسطا ويحكون عن هول ما رأوا.

بيومها وما إن تناثرت الأنباء، انطلق مالك بجيش آربوس الوسطى من رانتاز نحو قسطا، فقد علمنا أن الذكران أدركوا طريقة إهدار البارود واقتحام الأسوار، فوجب التلاقي من جديد، حيث خطط مالك بشجاعةٍ مفرطة أن يواجههم بالغابة خارج أسوار قسطا في تلك البقعة ما بين كيبول وقسطا، معتقدًا أن ضخامة جيشه وتناقص أعداد الذكران بسبب تركهم بعضًا منهم في كل بلدة دخلوها سيؤدي إلى توازن القوى، لا سيَّما أن جيشه بذلك الوقت كان يزيد عن ثلاثة أضعاف جيش الذكران بما ضمه من رجال الجنوب الهاربين، وبجمعه سائر جند رانتاز وقسطا وكيبول، كما وضع باعتباره أن يجعل لنفسه فرصة ثانية بالرجوع إلى أسوار قسطا إذا ما انهزم.

لم يكن بيده سوى ذلك وإلا لصار خائناً لقسطا محتفظاً بسائر جيش آربوس الوسطى لحماية بلدته رانتاز وحدها، لكن لم تختلف المقدمات فلم تختلف النتائج؛ بعد ثلاثة أيام انطلق جيش الذكران من كيبول، قابلوا جيش مالك بالغبابة في شروق اليوم الرابع، ليعملوا فيه القتل بلا هوادة، ويفنون ثلثيه في بعض ساعة، ليثبتوا لسائر الخلق حينها أن الذكران لا يغلبون من البشر مهما زادت أعدادهم أو قوة جيشهم.

ولما فر مالك ببقايا جيشه أمامهم لم يتعقبوه مباشرة؛ كأنهم بعد هذه المعركة صاروا مدركين تمام الإدراك أن من يفر اليوم سيأتي بالغد، صاروا أكثر ثقة في أنه ما من قوة ستستطيع الصمود أمامهم، لذا أعادوا تنظيم صفوفهم بالغبابة على مهل قبل أن يواصلوا نحو قسطا ليصلوا مع غروب الشمس، إلا أن فلول الجيش المنسحب عندما وصلت إلى قسطا وتحصنوا بداخلها، فيما تراص الكثير من الجند فوق الأسوار، ومع وفرة البارود بقسطا عن كيبول واستخدامهم الحجارة إلى جانب السهام والحراب والبارود، فضلاً عن وجود مالك وسطهم، الذي نَظَّم أمر المقاومة من خلف الأسوار بما لا يهدر مخزونهم من البارود سريعاً، استطاعوا بعد ليلة طويلة أن يصدوا هجوم الذكران على قسطا، ليعود الذكران نحو المملكة الأم لآربوس الشمالية، لالتقاط أنفاسهم

وتنظيم صفوفهم بعدما فشلوا في اقتحام قسطنطينية، لكنهم لبثوا على نفس ثقتهم أنه ما من قوة تستطيع الوقوف أمامهم، وبقي سائر الخلق في أربوس يستعدون للنهاية بشكلٍ أو بآخر.

## النداء

يوسف

عاد الذكران نحو المملكة الأم بعدما أخفقوا في دخول قسطا، أو أنهم لم يخفقوا بشكلٍ كامل بل اكتفوا بإفناء ثلثي جيش آربوس الوسطى في هذه الحرب، ولما وجدوا مقاومةً شديدة على أسوار قسطا تركوا أمرها إلى حين، كيلا يرهقوا جندهم الذين انتصروا قبل ساعات. استقروا بالمملكة الأم لبضعة أيام كأنهم في هدنة، ثم أخبرنا كشافونا أنهم تحركوا نحو الغرب بمساء اليوم الخامس من هدنتهم المزعومة، دون أن يحددوا وجهتهم هل غولار أم زورين. كان جيشنا كاملاً وقتها مستعدًا بزورين فيما استقر بغولار حامية الأسوار وحسب، فبقينا في حيرةٍ من أمرنا هل نبقى بزورين على حالنا أم نتحرك إلى غولار؟ لا سيّما أننا كنا ننتوي مثل مالك أن نواجههم خارج الأسوار، علّنا نجعل من الأسوار خط دفاعٍ ثانٍ، لكن بترتيبٍ مختلفٍ وخطةٍ جديدة.

حينها أشارت أفرودينا بأن نرسل جيش الحوريات كاملاً نحو غولار، فهم خير الراميات، إن استقررن فوق الأسوار مع حامية جنودنا لن يستطيع الذكران الدخول إليها إذا ما قرروا البدء بها، لا سيّما أن مخزون البارود بغولار كبير للغاية، ومن كل أشكاله لقربها من قلعة سرايوس، سواء السهام التي

تحمل رؤوس بارود صغيرة، أو القنابل اليدوية أو حتى قنابل  
الراجمات الكبيرة، فإذا ما اندحر الذكران خارج أسوار غولار  
كما اندحروا عند قسطا، إما سيرجعون إلى المملكة الأم  
ثانيةً أو ينتقلون إلى زورين حيث ينتظرهم جيش مملكة  
الوافدين بكامل تعداده الذي تجاوز الثلاثين ألف مقاتل، من  
ثمّ يلاحقهم جيش الحوريات ليهجم عليهم من الخلف عندما  
يلتحمون بجيشنا.

وافقتها على ذلك فقد بدا نعم الرأي، لذا جهزناهن على  
عجل وانطلقت فرق الحوريات نحو غولار في ليلتها، فيما  
عدا أفرودينا بقيت وحدها معنا بزورين، اجتمعت معها ومع  
القادة بمجلس قصر الحاكم الذي اتخذته مقرًا لنا، لتحدث  
بشأن خطط الاصطفاف والمقاومة، اطمأنت منهم على  
أنهم حركوا راجمات الأسوار لثلقي قذائفها على أبعد مدى،  
حتى إذا ما نظمنا صفوفنا أمام الأسوار مباشرة في أي اتجاه  
منها، يصير موضع سقوط البارود أمام صفوفنا في سائر  
الاتجاهات الأربعة. كنت أبتغي أن أعيد ما حدث فوق الجبال  
عندما استدرجت جند حارث، فلو نظمنا صفوفنا على هذه  
الشاكلة أمام الأسوار مباشرةً لنستدرج الذكران نحو هجومٍ  
شامل، ثم أطلقنا عليهم قذائف البارود الكبيرة قبيل الالتحام  
مباشرةً، سيصيب صفوفهم بخلخلة عظيمة، قبل أن نهجم  
عليهم وسط التفجيرات، وإن زامن ذلك هجوم الحوريات من

الخلف فقد نقضي عليهم.

من ثمّ انتقلت إلى التيقن من جاهزية سائر الجند للتحرك واستعدادهم للاصطفاف خارج الأسوار خلال مهلة قصيرة، كذلك استعداد جند الراجمات لمهمتهم التي لن تكون هينة، كما أعطيتُ أمرًا بتكثيف عدد الكشافين في سائر الاتجاهات، في الغابة شرقًا وغربًا، بين شعاب التلال، وعلى ضفة نهر جودي كي نستبق تحرك الذكران نحونا وننظم صفوفنا، بالأخير انفض اجتماعنا على ذلك، لكنني لم أخلد إلى الراحة، حيث كنت أعرف أن سائر الجنود، بل سائر الخلق بكل أربوس يتخبطهم الخوف من هذا البلاء الذي انصب عليهم بين عشية وضحاها، كأنه عقاب لهم على قرونٍ من الفرقة والنزاع بين الشمال والجنوب، أو سخط نزل بهم كأثرٍ لعقود من اضطهاد الوافدين الذين ترتبط أرواحهم بتناسل الحوريات، أو لعنة حلت عليهم بسبب سوء تدبيرهم ونقضهم لعهود زهير الأول مؤسس الحياة الحقيقية بكل بر أربوس، لكنني بثُّ أمل أن نحقق على أولئك الذكران ولو نصرًا معنويًا في غولار، ثم نهزمهم هزيمة حقيقية خارج زورين، لا سيّما وقد صرنا آخر جيوش هذه الأرض، لذا ما إن انتهى اجتماعنا خرجت مع قادة الجند نحو مواضع تجمع فرقنا بدار سلاح زورين وبالفناعات، وخارج السور الغربي. صرثُ أنتقل بين فرق الجند أحدثهم وأحتمهم على الثبات، أوعز لهم أننا إما

نقف لهذا البلاء أو تنتهي الحياة بكل بر آربوس، فلا بديل عن المواجهة، إن هربنا نحن الرجال فإلى أين المفر، سيظلون في أثرنا بحالٍ أو بآخر، بينما بقيت أثناء انتقالنا في الطرقات أبتسم لأهل البلدة، أثبت فيهم روح المقاومة والأمل ببعض الكلمات والمداعبات، لكن ما إن مرت تلك الليلة ولحقتها الليلة التالية، جاءتنا أنباء جديدة من غولار بالصباح، نسفت كل الآمال التي عقدناها.

حيث جاؤوني إلى مجلس الحكم بقائد سرية الجنود التي استطاعت الفرار من غولار، بدا الذعر على قسماته، بل أحسست أن جسده لا زال ينتفض. لم أكن جالسًا لدى كرسي رأس المجلس، بل لدى صف المقاعد الأيمن، فيما اتخذت أفرودينا موضعها عن يساري، وجلس قادة الجند أمامنا على الصف المقابل، أمرته بالجلوس إلى جانبي، ثم طلبت منه أن يلتقط أنفاسه ويحكي لنا ما حدث بغولار، أخبرنا أنهم سمعوا صياح الذكران وصرخاتهم تقترب من الشرق عبر الغابة مع أول خيوط الشروق، إلى أن توقفوا عن الحركة والصياح بنهاية الغابة على تخوم المنطقة الخالية المحيطة بالأسوار، واروا صفوفهم بين الأشجار، ثم انطلقت من عندهم صيحة غريبة كعواء الذئاب وكأنها استنفار للهجوم، من بعدها أخذوا يهجمون بسرية وراء أخرى، في حركات كرٍ وفرٍ خاطفة، كانوا يدورون حول الأسوار مبتعدين ومقتربين كأنهم



يبحثون عن ثغرة، وبذات الوقت يحاولون استنزاف البارود كما فعلوا في كيبول من قبل، إلا أن الحوريات بدین خارقات في الرمي كعادتهن ولم يستهلكن البارود على غير حاجة ماسة، صرن يقنصن من تلك السرايا المهاجمة بسهامهن كلما ظهرت إحداها بأي جانب من جوانب الأسوار، حتى كثر القتل في الذكران، لدرجة أنهم بعد قدر ساعة توقفوا عن محاولات الهجوم، ظلوا لهنيهة ساكنين تمامًا متوارين بالغابة كأنهم يعيدون ترتيب خططهم، ثم عادوا بعدها يهاجمون بشراسة أكبر، بديلاً عن سرية واحدة يتبعها سرية مثلها، أخذوا يهاجمون بسريتين أو ثلاث، إلا أن الحوريات بقين لهم بالمرصاد، فتوقفوا لمرة ثانية بعد عدة هجمات فاشلة، ثم عادوا بعدها بشراسة أشد وبأعداد أكبر، لكن الحوريات أوقعوهم أيضًا.

سكت وابتلع ريقه، نطّم أنفاسه كأنه بالكاد يحاول النطق ثم واصل قائلاً:

- ما إن تكررت محاولات الهجوم وأحبطتها الحوريات بكل مرة، توقفوا بالأخير ولم يعاودوا الهجوم، بل وجدنا من ظهر وحيدًا أمامنا خارجًا من بين جذوع الأشجار، بدا من هيئته أنه قائدهم، وقبل أن تقنصه الحوريات، وضع كفيه على جانبي وجهه، ثم سمعناه جميعًا في كل غولار، بل أظن

صوته وصل عندكم، حيث أصدر صوتًا كما لو أنه مزيج من عواء الذئاب مع صهيل الخيول، صار يُطلقه مرات بعد مرات، وعندها كأن الحوريات أصابهن سحر، ألقين أقواسهن وسهامهن وصرن يلقين بأنفسهن عن الأسوار إلى خارج غولار، كأنهن يستجبن للصوت بصورة غير واعية، ومن نجين منهن من القفزة وهن قليلات اتجهن نحو ذاك القائد باستسلام تام، لا نعلم ماذا جرى فيهن، فقد أخذ يأمرهن بالتوجه إلى داخل الغابة، لكننا سمعنا صرخاتهن بعدها، كأن من نجا منهن من القفز قتلهن جنود الذكران داخل الغابة، من بعدها هجم الذكران علينا هجومًا شاملاً بكافة صفوفهم، فنجحوا في اقتحام الأسوار بعدما فقدنا الحوريات. لم نلحق أن نواجههم بالبارود، لا سيَّما مع تلك الصدمة التي حدثت لسائر الجند بفقداننا للحوريات على حين غرة.

حينها وقفت أفرودينا مذعورة تستعر عيناها غيظًا، اتجهت نحوه فخفت أن تؤذيه، لذا وقفت حائلًا بينها وبينه، لتقول غاضبة:

- ولم لم تحاولوا منعهن من أذية أنفسهن؟

- حاولنا، حاول سائر الجند، لكن الحوريات كن كما المسخرات المسحورات، كن يقاتلن من يقف أمامهن، لا يستسلمن إلا عندما يلقين بأنفسهن من فوق الأسوار في

استجابة غير عقلانية لهذا الصوت.

انهارت عندها بين يديّ باكية وهي تردد:

- أنا من قتلتهن بإرسالي لهن، أنا من قتلتهن، لكني لم أكن أعلم أن أولئك الذكران لهم علينا حق الاستدعاء للنصرة، لم أكن أعلم أنهم لهم علينا ذاك الحق.

أخذتُ أهدئ من روعها، فيما أمرت بصرف ذلك القائد. صرْتُ أردد عليها بأننا سننتقم للكافة، للحوريات ولسائر أهل آربوس، حتى إذا ما هدأت قليلاً أجلستها إلى جوارِي، ثم قلت للجميع أن علينا الاستعداد منذ هذه اللحظة، لترد أفرودينا وهي على ذات أساها:

- لن تنفع معهم هذه الخطط التقليدية، لن يهجموا بسائر جيشهم أمام جنودك، سيموهون ببعض الجند وحسب، هم أكمل ما لديهم هو غريزة البقاء، غريزة الدفاع والهجوم من أجل حيواتهم، يفعلون ذلك بلا عقل، يفعلونه بفطرة عسيرة على الفهم. كنت أظن أن الحوريات سيفقدونهم قدرًا كبيرًا من قوتهم، كنت أظنهن سيدرسون مواطن الضعف والقوة، ويدحرونهم عن غولار، ثم يساعدنا هنا، لكن ذاك النداء أخلف كل آمالي.

- وما رأيك إذن؟

تمالكت حالها ونظرت أمامها متحدية:

- أرى أنهم ما إن واجهوا البارود هنا بالشمال، أخذوا يتريثون بين الحرب والتي تليها، كما أنهم فقدوا كثيرًا من القتلى بحربهم الأخيرة حول غولار، لذا سيأخذ الأمر منهم بعض الوقت لتأبين موتاهم قبل التحرك من جديد، وعلينا أن ننتهج نهجًا مختلفًا بهذه المرة.

- وما هو؟

- لقد حكيت لي من قبل بأنك تلغم قلعة سرايوس بالكامل، حتى إذا ما سقطت بيد أعدائك، يفجرها آخر الخارجين منها، كيلا تكون منفذًا للصعود نحو مملكة الوافدين بأعلى الجبال.

- ماذا تقصدين؟

- سنلتف بجيشنا مسرعين عبر ممرات التلال، ثم نتحرك نحو الغابة بغرب غولار في تلك المنطقة الواقعة بينها وبين قلعة سرايوس، ثم نهجم على غولار بجيشنا، ستصير أول مرة يتعرض فيها أولئك الذكران للهجوم في بلدةٍ استقروا فيها، وهو ما سيثير بداخلهم نزعة الاستقواء وعدم تقبل تلك الإهانة، أنا من جنسهم وأعرف ذلك جيدًا، سينفرون للهجوم علينا، فنفر أمامهم نحو قلعة سرايوس، ثم يتفرق الجند أمامها، البعض يدخلها ويصعد عبر الأنفاق الصاعدة، والبعض

يهرب نحو الصحراء، والبعض يفر إلى الغابة، وهم سيجدون أمامهم قلعة لن يتورعوا عن دخولها لإثبات نفوذهم فيها، وما إن يدخلوها نفجرها بالكامل؛ سيلقون مصرعهم جميعًا، ووقتها سيخشاك بقيتهم بالنهر، وسيطلبون جثث من على البر، كي يؤبنوها في القاع الأعماق، مقر موتاهم.

لمعت عيناى ورددت:

- أمرتفجير القلعة هين، قذيفة بارود واحدة من فوق الجبل إن سقطت فوقها ستفتح سلسلة من التفجيرات المتتاليات، فمنذ شيدناها أول مرة فكرنا في ذلك حتى لا تصبح منفذًا للصعود إذا ما سقطت في يد عدونا، لكن إن لم يدخل الذكران إلى القلعة، سنشتت بذلك كامل جيشنا، كما أننا في هذه الحالة لن نترك على زورين سوى قدرٍ محدود من الجنود، ستكون مطمئنًا لهم إذا ما استداروا عائدين نحوها.

وقفت عندها قائلة:

- سيدخلون القلعة، أنا أضمن ذلك.

لم يكن أمامنا سوى الاستماع إلى رأي أفرودينا، فمواجهتهم في حربٍ جديدة لم تكن مضمونة العواقب. هي أكثر إدراكًا لهم، طالما قالت إنهم سينجون مما خططت

له إذن سيصح قولها، ولا يمكن الاعتماد على كثرة أعدادنا، فعندما فكر مالك في كثرة عدد جنده لم تختلف النتائج، كما أنها لما قالت أنا أضمن ذلك من قبل، ما قالت أتمته، لذا أعطيت أوامري بترك حامية قدرها خمسة آلاف مقاتل على زورين، وتجهز كافة الجند غيرها، من ثمّ تحركنا بالمساء، اتجهنا نحو ممرات التلال متحركين غربًا، حتى إذا ما جاوزنا غولار عند شروق اليوم التالي، خرجنا من منافذ التلال إلى الغابة بعد غولار في تلك المنطقة بينها وبين سرايوس. توقفنا نلتقط أنفاسنا وننظم صفوفنا حيث وضعنا الفرسان المدرعين بالمقدمة، ثم تلاهم الفرسان الخفاف، فيما لم نصطحب أيًا من المشاة، بينما أرسلت القائد رشيد ليجهز أمر قلعة سرايوس، وانتظرنا حتى حل الغروب، واستعدنا للتحرك، لكنني وقفت أمام الجند حينها، وعلى أضواء المشاعل خطبت فيهم هاتفًا:

- أنتم الآن تعرفون أنكم آخر أملٍ لهذه الأرض، من بعدكم هذا الطوفان لن ينكسر على أية صخرة، هم يبحثون عن إفناء سائر الرجال كمجرد بداية، من بعدها لن يتركوا روحًا واحدة فوق سائر بر آربوس، وإن تركوا فستموت تلك الأرواح جوعًا وكمدًا. من يهرب اليوم من هذه الحرب لن يندم مرة واحدة، بل سيظل نادمًا حتى يدخلوا عليه داره، وعندها يندم الندم الأكبر. ما أطلبه منكم صبر ساعة عند

التلاحم، ثم التراجع نحو سرايوس بشيءٍ من التنظيم، حتى إذا ما بلغناها فليفر منكم من يريد الفرار، لكن اعلموا أنني سأعود لأقاتلهم إن لم ينجح مسعانا بهذه المرة حتى وإن لم يبقَ بصحبتى سوى سيفي، فأن أموت مدافعًا عن أرضي خير من أن أعيش فيها هاربًا أنتظر موتي كل يوم.

صمتٌ للحظات ثم واصلت بصوتٍ أعلى:

- بينكم رجال نهضوا معي من الكهوف، منذ أول خروجنا إلى أعلى الجبال وتأسيسنا لقريةٍ صغيرة ذات أسوار. هل تخيلتم يومًا أن هذه القرية تقف في وجه آربوس الشمالية والجنوبية؟ هل تخيلتم أن تنمو وتتمدد حتى يصير حكمها اليوم على سائر بر آربوس، ويكون جيشها هو آخر أمل لهذه الأرض؟ إن نجح مسعانا فيما كان مستحيلًا بالسابق فسينجح اليوم، سينجح اليوم لأنكم ستقاومون حتى آخر رمق، آخر نفس، آخر روح.

رفعت سيفي وصرخت فيهم قائلاً:

- لأجل كل آربوس.

رفعوا أيديهم جميعًا وردوا هاتفين:

- لأجل كل آربوس.

رددوها أكثر من مرة قبل أن أشير بضرب الأبواق، لتتحرك بكامل جيشنا نحو أسوار غولار، فيما نضياء المشاعل التي قطعت ظلمة الغابة. ما هو إلا مسير ساعة وحدث ما تأملته، فقد بدا أن لهم مستكشفين بالغابة، ظهر اثنان منهم أمامنا دون مشاعل على حين فجأة، قبل أن يفروا عائدين نحو غولار، أمرت بعدم ملاحقتهم أو قنصهم، وواصلنا في طريقنا إلى أن اقتربنا من تخوم الغابة الملاصقة للمنطقة الخالية المحيطة بأسوار غولار، عندها أخذ يتبادر إلى مسامعنا أصوات تصايح الذكران، بدا أنهم ينظمون صفوفهم خارج الأسوار استعدادًا لملاقاتنا؛ ابتهجت لذلك، حيث سار الأمر كما نخطط له، لذا واصلنا في طريقنا حتى ظهرت طلائع صفوفنا الأولى من المدرعين خارج الغابة في أول المنطقة الخالية، في حين بدا اصطفااف الذكران لم يكتمل بعد. أعطيت أمري بضرب بوق التوقف، لكن الذكران ظنوه بوقًا للهجوم، فبادروا بتحريك صفوفهم الأولى قبل اكتمال اصطفاافهم وهجموا علينا بشراسةٍ لم أتخيلها، بدا هجومهم المبكر غير الكامل رحمةً لنا، حيث استطعنا تجاوز الصدمة الأولى واصطبرنا قدر ساعة نقاوم بواسطة صفوف فرساننا المدرعين، قبل أن يكتمل اصطفااف سائر جيش الذكران، وعندها زاد ضغطهم ووحشيتهم بشكلٍ كبير وكثر القتلى في صفوفنا الأولى. صار جنودنا يتساقطون أمام ضرباتهم التي



كانت تخترق الدروع والخوذات، فأمرت بإطلاق بوق التراجع الأول على عجل.

أخذت صفوفنا تتراجع إلى داخل الغابة بروية دون أن تلتف هاربة حتى تراجعنا بقدر مائة ذراع وتوارت سائر صفوفنا داخل الغابة، في حين أخذ الذكران يتقدمون نحونا بين جذوع الأشجار التي صارت تفرق الصفوف وتمنع التلاحم، لذا ما إن تراجعنا بهذا القدر أعطيت أمر الالتفاف والانسحاب السريع.

انسحبنا أمامهم نحو قلعة سرايوس، بينما لم يخلفوا عادتهم عندما يشعرون بالانتصار ذات حرب، تمهلوا وأعدوا صفوفهم، ثم أخذوا يتحركون من خلفنا حتى بلغوا أسوار القلعة عند شروق الشمس، كنت أعطيت أوامري بوقوف بضعة عشر جنديًا على سورها الأمامي، مع إطلاقهم بعض السهام والحراب ما إن يبزغ الذكران أمامهم في تلك المنطقة المستوية أمام القلعة، بينما دخلت أنا إلى القلعة أنا وقادة الجند وأفرودينا، ثم انسحبنا إلى النفق الخلفي الصاعد نحو أعلى سلسلة الجبال، حيث بقينا ننتظر ما سيؤول إليه أمرنا، فيما تفرق سائر الجند في كافة الدروب والاتجاهات.

ما هالني حينها أنهم لم يهجموا على القلعة، بل ظلوا واقفين أمامها دون حركة بقدر ساعة وكأنهم أحسوا أن

القلعة فخ، أو عرفوا من الوشاة الذين اصطحبوهم، أو أدركوا الأمر لأي سبب، وما إن مرت الساعة جاء من يخبرني أنهم أخذوا يلتفون راجعين نحو غولار. كانت أفرودينا تقف إلى جوارى بالنفق وبصحبتنا قادة الجند، فما إن سمعت هذا النبأ همست لي قائلة:

- نفذ عهدك كما اتفقنا، أنا ضمنت لك أن يدخلوا القلعة، وأنا لا أضمن إلا ما أثق به، عندما يلتفون بالكامل حولي أعط أمر الإطلاق، سأنتقم للهوريات وأموت معهم.

أمسكت معصمها قائلاً:

- ماذا تنتوين؟

ابتسمت:

- لأول مرة تمسني عامداً، أنا قائدة من بني الحوريات، ولست قائدة وحسب، بل قائدة حبلى، لي عليهم أمر الاستدعاء للحماية، هو ليس استدعاءً للتوجيه والأمر مثل قائد الذكران، لكنه سيفي بغرضنا. لم يكن حملي هباءً.

أفلتت معصمها من يدي، ثم ركضت عبر النفق حتى نزلت إلى منتصف القلعة، وضعت يديها على جانبي وجهها، وأخذت تصرخ بصوتٍ حاد. جريت نحو منفذ النفق إلى القلعة لأشاهد ما يحدث، لأجدهم ما إن استمعوا لصوتها

التفوا مرة أخرى نحو القلعة، ثم صاروا يركضون نحوها كالمسحورين بلا تفكير، وقتها هرب سائر جنودنا نحو النفق، فيما أخذ الذكران يتسلقون أسوار القلعة ويقفزون بداخلها، صاروا يتجمعون حول أفرودينا بينما ظلت تصرخ حتى امتلأت القلعة بهم عن آخرها، وعندها أخذنا نركض داخل النفق لأن من هم فوق الجبل كان معهم الأمر بإطلاق البارود ما إن يكتمل دخول الذكران إليها، وما هي إلا دقائق وارتج الجبل بهزاتٍ عنيفة، كانت علامة على تفجير القلعة بمن فيها.

من بعدها بقيت على حالة من الصدمة لفقدان أفرودينا بهذه الشاكلة ليومٍ كامل بمنزلي بالمملكة الأم، إلى أن جاءني القادة بمجلسي يطلبون أوامري بعدما جمعوا ما استطاعوا جمعه من عظامٍ وأشلاء، أمرت بتوزيع جيشنا إلى ثلاثة جيوش، أحدهم يتجه إلى غولار يؤمنها قبلما ينطلق إلى المملكة الأم لآربوس الشمالية، والجيشان الآخران يتجهان إلى سائر بلدات آربوس الجنوبية لتأمينها والسيطرة عليها، بينما أرسلت إلى مالك أطلب منه تأمين كيبول ببقايا جيشه وإرسال سرية من الجند إلى صورف على عجل لتبحث عن ميرا ومارينا، في حين سبقنا إلى غرضنا سائر الخلق بكافة بر آربوس، حيث صاروا ينتفضون على تلك السرايا الصغيرة من الذكران بكل بلدة ويأسرونهم، بعدما علم الخلق جميعًا بفناء جيش الذكران عن بكرة أبيه، ليتيسر عمل جيوشنا

الثلاثة بقدرٍ كبيرٍ وينطلقوا من بلدة إلى أخرى دون مقاومة،  
يجمعون أسرى الذكران وحسب ويتركون حاميات على كل  
بلدة.

لكني لم أستفق إلا بعد ثلاثة أيام عندما جاءني خبر ظهور  
ميرا ومارينا بصورف وإحضارهما إلى رانتان، لم أنتظر أن  
يبعثوا لي ميرا، ما إن عرفت بالنبأ هرعت إلى هناك، حيث  
احتضنت ميرا لأول مرة بعد شهورٍ طويلةٍ بهو قصر صهد،  
احتضنتها طويلًا قبل أن أفلتها قائلاً:

- دمرنا قلعتك للمرة الثانية، لكن موضعك بقلوبنا لا زال  
قائمًا.

لم تبتسم، بدت متضاربة المشاعر لا تعرف ماذا تقول،  
حتى أجهشت بالبكاء فضممتها من جديد إلى حضني، تلك  
اللبؤة المفترسة التي تتحول بين يديّ إلى هرة أليفة، بينما  
مددت يدي أسلم على مارينا وجاد وهي واقفة بحضن  
زوجها. لاحظت صلابة نظراتها، بدت تخبرني أن هذه هي  
القسمة العادلة، هي مع من أنقذها، وأنا مع من أنقذتني  
مرازا، فبادلتها نظرات رضا تفهمتها، ليقطع مالك تلك اللحظة  
شارحًا سبب تأخر ظهورهم. قال إن أحد الكهنة وقت سقوط  
صورف أخبر مارينا بأن الذكران سيبحثون عنها ولن يسمحوها  
بهروبها، لأنهم قد يرغبون في استخدامها لاستدعاء المزيد،

وعندما تقابلت مارينا مع ميرا بطرقات صوف حاولا الهروب منها إلى رانتاز، إلا أنهما لاحظا أن هناك من الذكران من يقفون على بواباتها يفتشون بأعينهم في كل من يحاول الرحيل، لذا اختبأتا في أحد المنازل التي هجرها أصحابها، فيما بقيت ميرا تتزود بالزاد لمارينا وولدها ولم تتركهما حتى أزيحت الغمة.

ضممت ميرا مرة أخرى إلى صدري قائلاً:

- هي لا تتوانى عن الخطوب أبدًا.

لكنها استمرت على عبوسها لم تقطعه أبدًا حتى انطلقنا عائدين إلى زورين، لأتابع سائر الأمر من هناك، ولأبتعد قدر المستطاع عن إسراء، كي أتركها لزوجها الذي صار صديقي ومُعيني، وكيلا نُشعل جذوةً سبق أن همدت بيننا.

ما إن بلغنا زورين وجلسنا بهو قصر الحاكم فيها أخذت أحكي لميرا عن أفرودينا، وأن حملها لم يكن سوى لغرض يخص العهد، اتضح بالأخير أنها كانت تتركه إلى حينه إن عازته، لكن ميرا لم تتفهم الأمر من أول مرة، بل ظننت أنها تريد أن تتقضى الأمر علني أكذب عليها؛ لم أبتئس لذلك، بل بقيت مشفقًا على نحول جسدها وذبول نضارة وجهها إثر كل هذا الأسر الطويل، موقنًا أنها مع مرور الأيام ستتحسن جسديًا، وعلى صعيد مشاعرها أيضًا، وكي أحاول تسريع

وتيرة استشفائها سألتها عمًا تعرفه عن أخويها اللذين رافقانا قديمًا بالكهف، من وعدتها باسترجاعهما ذات يوم. أخبرتني أنها عرفت أن اسميهما صار فادي وحسام، لذا أعطيت أوامري بالبحث الحثيث عنهما في سائر بلدات آربوس الشمالية، فادي وحسام، أشقران بأعين زرقاء مثل أختهما.

لما استقر الأمر بسائر البلدات جمعت كافة أسرى الذكران، بلغوا قدر سبعمائة ذكر مكبلين، وضعتهم بزنازين زورين بعدما أخذت قطعة من حراشف كل منهم كدليل على الأسر، وبالليلة التالية على ذلك استدعيت آخر كاهن عليم من كهنة آربوس الجنوبية، اصطحبت مالك ومارينا وبعض سرية من جند رائتاز واتجهنا نحو معبد تبة طليطيل.

استدعينا الذكران بليلتها، بدا لأول وهلة من ظهورهم أنهم أحيطوا علمًا بما جرى لأقرانهم، لذا يسّر علينا هذا الأمر طول النقاش، من ثمّ تعاهدنا على ألا أهاجمهم بالنهر أبدًا ببارودي ولا بجنودي، وأن أمنحهم أشلاء قتلاهم ونصف الأسرى، قبل بناء الجسر المبتغى، على أن أمنحهم النصف المتبقي بعد بنائه، مع الاتفاق على عدم المساس لا بالجسر ولا بمنطقة تجمع لآلى الميلاد؛ وافقوا صاغرين في حينها، حين بدا أنهم كما أوعزت أفرودينا لا يعرفون إلا لغة القوة والبطش، لنعود في ليلتها ونبدأ في الصباح التالي بناء الجسر المقصود كما

طلبت أفرودينا قبل رحيلها.

أثناء بنائه عدت أنا وميرا نحو مملكتنا فوق الجبال،  
لنجلس بأول ليالينا لدى مقعدينا المتجاورين بشرفتي، أمام  
البحر الذي انعكست فوقه سماء مقمرة، لتبدأ لأول مرة في  
الحديث عن دواخلها قائلة:

- تمنيت الموت عندما أخبروني أنك تزوجت تلك الحورية  
وحملت منك!

- لكني لم أمنحها قلبًا، ولم أعطيها حبًا، كان أمرًا نافذًا وفقًا  
لعهدي معهن.

- كيف تقنعني بذلك؟

- كان اتفاقي معهن أنها زوجة قد تطلب حقها، واكتشفت  
بالأخير كما أخبرتك أن حملها يُعزز من نفوذها وسط فئتهن،  
وهو ما نصرنا على الذكران بالأخير. أظنك عرفت أن ما  
أحكىه صدقًا، بعدما عدنا إلى المملكة هنا.

- هل أحببتها؟

- إن قلبي ممتلئ بك عن آخره، لم يترك حبك مكانًا لما  
سواه.

- ولا مارينا؟

- ولا مارينا ولا غيرها.

- هي أخبرتني أنها لم تعد تهواك، بل عشقت زوجها مالك.

- أعرف ذلك.

- لم تأخرت كل ذلك؟ أنا لم أتأخر عنك يومًا.

- إن كان الأمر بيدي لجئت إليك أستبدلك بنفسي، لكنني خشيت على تلك المملكة أن تضيع وسط كل هذه القلاقل، بينما كنت مطمئنًا أن فارسيتي ستقاوم إلى أن آتيها.

- إذن بقيت لي وحدي بالأخير.

- بل أنا من فزت بك بالأخير، ولن أغير هذه الأرض لأظل إلى جوارك.

أمالت رأسها إلى كتفي فأحطتها بذراعي، في حين تيقنت من أن قلبي مال بقراري الأخير بشأن آربوس نحو اتجاه لم أفكر فيه من قبل.

خلال الأيام التالية لم نجد أخوي ميرا، لكن بينما كان رجالنا مستمرين في التفتيش عنهما بسائر آربوس شمالًا وجنوبًا، قابلناهما أنا وميرا بالمصادفة ذات نهار إلى جوار سوق مملكتنا، عرفتهما فنزلت عن فرسها واحتضنتهما باكية لساعة، بينما كانا فاقدين لذاكرتهما عن حياتهما بالجبال قبل



أسرهما فلم يعرفا أختهما. اصطحبناهما إلى منزلها، وحكيا لنا أنهما هربا من هجوم الذكران على المملكة الأم لآربوس الشمالية نحو الصحراء، استقرا فيها لعدة أيام دون أن يعلما بأمر اندحار الذكران وهزيمتهم، إلى أن نفذ منهما الزاد، فتحركا نحو مملكة الوافدين حتى لا يعودا للعبودية بآربوس الشمالية، بينما أخذت ميرا تحكي لهما عن حياتهما معها قبل أسرهما من قوات آربوس الشمالية وإفقادهما ذاكرتهما، كما حكيت لهما أيضًا أنهما أول من ساعداني بالجبال.

من ثمّ تحسن حال ميرا مع ظهورهما بسرعة كبيرة، لدرجة أنها لما عرفت بسجن ماجد طلبت مني مسامحته على الرغم من المكيدة التي كادها لها بأيام أسرها لدى قوات آربوس الشمالية، فلم أستطع أن أرفض لها طلبًا وحررته.

لتمر الأيام والأشهر ونتمم بناء الجسر، بنفس الطريقة التي ابتغتها الحوريات، كما زدت على ذلك بأن أرسلت من أزالوا صخورًا تراكمت بقرب منافذ الدوامات التي قصدتها أفرودينا، عن طريق ربط خصورهم قبل أن يغطسوا في الماء، وخلال أشهر البناء أعدنا الحياة تدريجيًا إلى سائر البلدات شمالًا وجنوبًا، بينما وحدث سائر آربوس تحت حكم موحد، حيث عينت حكمًا جدد على سائر بلدات آربوس الجنوبية، وعينت يزن على المملكة الأم لها، فيما تركت

حاكم قسطا عليها كما هو، وتركت صهداً حاكماً على رانتاز،  
في حين عدنا لتنصيب جاد ملكاً على المملكة الأم لآربوس  
الشمالية بولاية أمه ومالك، على أن يتبع ملكه كل من  
قسطا ورانتاز وكيبول، وبقوا جميعاً تحت السلطة الموحدة  
لآربوس، ومقرها لديّ بمملكة الوافدين.

بعدما أتممنا بناء السد، وبليلة محاق الشهر التالي، ذهبت  
وحدني إلى بقعة الحوريات عن طريق النفق الذي منفذه  
فوق موضع تساقط شلالات بالميري، قابلت روزينا ملكة  
الحوريات، واتفقت معها على أن يتوقفن عن جلب الغرقى،  
فآربوس أصبح فيها من أهلها ما يكفيها، في مقابل منحتين  
من طرفي، الأولى هي إتمام الجسر وفتح الدوامات كي تمر  
لهن بعض اللآئ الحرة كما كان يحدث قديماً وهو ما أتممته،  
والثانية أن أمنحن برأس كل سنة قدر ثلاث آلاف لؤلؤة؛  
وافقن على ذلك، مضيفات أنهن سيعدن لاجتذاب الغرقى ما  
إن يأتي من بعدي من ينقض عهدي، بينما تفهمن من حديثي  
أنني انتويت البقاء، هنا في هذه الأرض التي صنعتها،  
وأحببت فيها، وبالأخير وصلت إلى كل ما أتمنى بأرضها.

ما إن أتممت اتفاقي معهن احتفلت سائر آربوس بزفافي  
على ميرا بليلة اكتمال القمر التالية.

تمت بحمد الله وتوفيقه.

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

عبد الفتاح عبد العزيز الرصيف